الإسلام
والصراعات الدينية

حافظ عثمان

مقدمة

شغلت الصراعات الدينية ، أو الصراعات التي اتخذت الشكل الديني ستارا لأهدافها ، شغلت آلاف السنين من عمر البشرية ، مما أخر مسيرتها الحضارية وسبب الكثير من الآلام في الأنفس والكثير من تدمير مصادر اشباع حاجات الإنسان .

وبالنظر إلى أن هذه الصراعات لا زالت تمثل العقبة الرئيسية التي تحول دون تقدم ورفاهية غالبية الشعوب الفقيرة بصفة عامة والشعوب الإسلامية بصفة خاصة ، فقد تم وضع هذا الكتاب على أمل أن تجد هذه الشعوب في وقائعه وأحداثه ما يجعلها تتخلص من صراعاتها الدينية ولتكثف جهدها وطاقتها على طريق تعمير الأرض واستثمار ثرواتها بالعلم وبالمال وبالجهد ، لتشبع حاجات ابنائها ولتحقق الأمن والسلام بينهم ثم لتشارك ، على قدم المساواة ، في بناء صرح الحضارة العالمية وبدون أي صراعات دينية .

ولأجل الوصول إلى هذا الهدف ، تم عرض بعض النماذج عن الصراعات الدينية التي نشبت بين اتباع العقائد الفطرية الأولى ، وبين اتباع الديانات السماوية الثلاث ـ اليهودية والمسيحية والإسلام ، ثم بين اتباع الديانات السماوية بعضها وبعض ، ثم بين اتباع كل ديانة على حدة .

وهذا ما تناولته الابواب الثلاثة الأولى من الكتاب .

وسوف يتبين للقارىء ان الصراعات الدينية بين اتباع الديانة الواحدة كانت أشد وأشرس من الصراعات بين اتباع الديانات والعقائد الدينية المختلفة .

وفى كل صور الصراعات الدينية ، وأيا كان أطرافها كان الدين مؤيداً دائماً بقوة الحكم والسلطة ، كما كان الحاكم ، خاصة فى أوروبا المسيحية يؤمن تماماً أن قوة حكمه تنبع من اعتناق شعبه لعقيدة أو لمذهب دينى معين ، ومن هنا كان فرض الدين أو المذهب بقوة الحكم والسلطة هو الأمر الذى حقق المزيد من الفرقة تبعاً لتعدد المذاهب الدينية وعلى عكس أهداف الحكم والسلطة .

— ولقد تنبهت أوروبا المسيحية إلى مستنقع الصراعات الدينية الذى حال بينها وبين تكثيف الفكر والجهد والمال من أجل إشباع حاجات الإنسان ، فخرجت من هذا المستنقع تاركة أمور الدين للحريات الشخصية للإنسان ودون تكرار المحاولات الفاشلة بفرض مذاهب دينية معينة بقوة السلطة .

— وبالحريات الدينية والسياسية والاقتصادية والعلمية وغيرها ، تمكنت أوروبا من تحقيق وحدة شعوبها على طريق التعمير وكفاية حاجات الناس .

ويتناول الباب الرابع ثمرة الصراعات الإسلامية المسيحية فى العصر الحديث والتى بدأت فى القرن السابع الميلادى بإنتصار المسلمين على الامبراطورية البيزنطية المسيحية .

ثم يتعرض الكتاب لرد الفعل لدى العالم الإسلامى فى مواجهة إنكساره المهين أمام الحضارة الغربية المسيحية سواء بالنسبة للجامعة الإسلامية أو محاولات نشر العلم والثقافة بين شعوبه أو عن طريق الصراعات الدموية ضد الأجهزة الحاكمة بهدف حلول نظم الحكم الإسلامى محلها .

— وتستمر الصراعات (الشرسة) داخل العالم الإسلامى بين المسلمين أنفسهم ، سواء لإختلاف المذهب ، أو بسبب الخلاف مع الاجهزة الحاكمة — ثم بين المسنمين وغيرهم من إتباع الديانات الأخرى بينما يسعد الغرب المسيحى الظافر بهذه الصراعات ، ويعمل على مضاعفة عواملها ، ليحافظ على إنتصاره

وعلى سيطرته على مقدرات العالم الإسلامى ، هذا بينما المسلمون يغرقون حتى إذ انهم فى مستنقع هذه الصراعات، لاهين عن عوامل نهضتهم ورفاهية شعوبهم المتمثلة فى وحدتهم على طريق التعمير وكفاية حاجات الناس وامتثالا لامر الحق تبارك وتعالى . . .

والامل ، كل الامل ، ان يكون فى هذا الجهد شىء ينفع الناس . . . . .

والله ولى التوفيق

القاهرة ـ المطرية ١٩٩٢

حافظ عثمان

الباب الأول

صراع أتباع العقائد الأولى

مع أتباع الأديان السماوية

الفصـــــل الأول

صراعات اتباع العقائد الأولى مع اليهود

كان أول ظهور للعبرانيين في ميدان التاريخ خطابات (تل العمارنة) فى مصر ، والتى يرجع تاريخ أقدمها إلى ما بعد سنة ١٤٠٠ ق . م بقليل أى فى عهد يسبق أى أدب عبرانى وصل الينا .

ولم يحدثنا التاريخ عن موسى (عليه السلام) . مؤسس اليهودية ، وعن (سيدنا) إبراهيم(عليه السلام)الجد الأكبر للسامية ، وذلك أن التاريخ لا يهتم عادة الا بسرد اخبار الملوك والقادة .

وعلى اية حال فان (سيدنا) موسى ، ربيب القصر الملكى فى مصر ، هو القائد الأول لبنى اسرائيل فى مواجهة القوى التى لا تدين بديانتهم .

وكان أول احتكاك بين بنى اسرائيل (والعقائد المصرية الأولى) هو الذى جاء فى الكتب الدينية المقدسة .

ويلاحظ فى موقف كل من ملك مصر وموسى(عليه السلام)أنه كان صراعاً بين الإآله المعبود وسليل الآلهه (ملك مصر) ومع من ينكر هذه الألوهيه على وجه الإطلاق ولا يعترف الا باله أحد غير بشرى وغير مرئى .

وقد جن ملك مصر (الإآله) من منكر الوهيته ، خاصة أن فى هـذا الانكار ضياع هيبته وسلطاته والنظام القائم فى مصر من اساسه والذى يرجع إلى اكثر من ثلاثة آلاف عام قبل ظهور موسى .

وواضـح ، من السرد الـديني ، أن موسى وشيعتـه لم يسلكـوا مسلك رواد المسيحية والإسلام فى تحمل العقوبات من قيادتهم الوثنية ، سواء بالقتل أو بالسجن . أو بالاسترقاق فى بلادهم .

إن موسى (عليه السلام) وشيعته اتجهوا إلى الهروب بعقيدتهم إلى خارج مصر مما يـدل عـلى انهم لم يكونو من ابنـائهـا ، ولكن ملك مصـر (الإلـه) لم يـرض بذلك . . . . . . وكادت تقع الحرب بين الفريقين الا أن موسى تمكن من الهرب بشيعته إلى صحراء سيناء . . . . وفى خلال هذا الهروب ارتد بعض الاسرائيليين عن ديانتهم ، وتشكك آخرون فيها وقضوا أربعين عاما تائهين فى شبه جزيرة سيناء ثم هاجموا الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين .

وكان الكنعانيون يسكنون فلسطين ، وكانوا قد اجتازوا مرحلة من التمدن تبلغ اكـثر من ألف سنة حينـما غزا العبـرانيون البـلاد بعد هـروبهم من مصـر بقيـادة موسى(١) . . . . .

ولما تغلب العبرانيون على الكنعانيين سكـان فلسطين الأصليـين ، بدؤ ا في انشاء أول دولة لهم وعلى حطام الحضارة الكنعانية التى كانت سائدة فى فلسطين .

وقتلوا من الكنعانيين كثيرا . . . .

يقول ول ديورانت (إن هزيمة البدو الرحل (العبرانيين) للكنعانيـين ليست الا مثلا آخر لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرة آمنة . وقتل الاسرائيليون من الكنعانيين اكثر من استطاعوا قتلهم منهم وسبوا من بقى من نسائهم ، وجرت دماء القتلى انهارا ، وكان هذا القتل كما تقول نصوص الكتاب المقدس (فريضة الشريعة التي امر بها الرب موسى) و (زكاة الرب) . ولما استولوا على مدينتين من المدن قتلوا من اهلها ١٢,٠٠٠ رجل ولسنا نعرف فى تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف فى القتل

والاستمتاع به ، ومثل هذه السهولة فى تعداد القتلى الا فى تاريخ الاشوريين ، ويقال لنا (إن الأرض استراحت من الحروب احيانا) فقد كان موسى من رجال السياسة المتصفين بالصبر والاناة ، اما يشوع فلم يكن الا جنديا فظا ، وقد حكم موسى حكما سلميا لم تسفك فيه دماء ، وذلك بما كان يقضى به من احاديث جرت بينه وبين الإآله ، اما يشوع فقد اقام حكمه على قانون الطبيعة الثانى ، وهو أن اكثر الناس قتلا هو الذى يبقى حيا . وبهذه الطريقة الواقعية التى لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة) .

ويقول برستد : ــ

(ومن الحقائق المدهشة أن يكون ذلك الارث الخلقى العظيم (دين التوراه) قد وصل إلى المدنية الغربية من شعب خامل الذكر سياسيا منزو فى الركن الجنوبى الشرقى من حوض البحر المتوسط ، فان هذا الشعب لم يقم له نظام قومى خاص به الا منذ العشرين سنة السابقة لعام ١٠٠٠ ق . م . وعلى أثر انحلال هذه الدولة الصغيرة إلى الجزءين اللذين قاما على تراثها ظلا يكافحان البقاء ، فاستمرت احداهما مدة قرنين تقريبا ، واما الجزء الآخر فانه بعد أن مكث قرناً وربع قرن من سقوط الجزء الأول قضاها فى حياة قلقة شبه مستقلة ، تداولته فيها ايدى ممالك الشرق العظيمة قديما ، قد حاق به كذلك الفناء التام بعد سنة ٦٠٠ ق . م بزمن قليل . . . . وبذلك تكون حياة العبرانيين القدامى القوية المستقلة ، أو حياة جزء منهم ــ التى بدأت لأقل من ثلاثين سنة قبل عام ١٠٠٠ ق . م . قد مكثت حوالى اربعة قرون وربع قرن وختمت فى باكورة القرن السادس ق . م . أى أن هذا العهد من الحياة العبرانية القوية قد وقع باكمله تقريبا فى النصف الأول من الألف سنة الأخيرة قبل الميلاد المسيحى ، وفى تلك الفترة كان تقدم الثقافة فى مصر وفى بابل قد نضب معينه وصار يعد خبرا من اخبار التاريخ) .

ولقد تعرض اليهود ، بعد اقتناصهم فلسطين من الكنعانيين ، لحروب خارجيه ، خاصة من بابل . . . وأُسر الآلاف . . . وسُبى الآلاف . . . وتشتت الكثيرون منهم فى بلاد العالم وهم على إصرارهم على ديانة التوحيد ومن ثم كان لا بد من تكرار الصراعات بينهم وبين من لا يعترفون بالإآله الأحد .

مـرحلة خضوع فلسـطين واليهود لمصـر والشـام في العصـر الإغريقى .

أرجو أن لا يغيب عن ذمن القارىء أنه وراء غاية الصراعات الدينية ، اسباب سياسية واسباب اقتصادية واسباب شعوبية (قومية) واسباب اجتماعية

وكان من أهم الدوافع التى حركت الصراعات الدينية عند القيادات السياسية (الاغريقية) هو رغبتها الملحة فى توحيد شعوبها فى عقيدة دينية واحدة ، لتسهيل عملية الحكم عن طريق وحدة النظام الدينى والدنيـوى المطلوب خضـوع الجميع لاحكامه

وظلت بلاد اليهود تابعة لمصر حتى عام ١٩٨ ق . م . حين هزم أنيـوخوس الثالث بطليموس الخامس وضمها إلى الإمبراطورية السلوقية ، ولم ير خلفه فى بلاد اليهود الا أنها مصدر للايراد ، . . . فامر اليهود أن يؤدوا إلى خزانة الدولـة ثلث محصولاتهم من الحبوب ، . . . ثم حاول هذا الملك أن يفرض اله اليونان (زيوس) على اله اليهود هادفا أن يكون اتباعه على شريعة دينية واحدة . . . ولما ثار اليهود على هذه الاوضاع ذبح الافا من اليهود رجالهم ونسائهم ، ودنس الهيكل ونهبه ، وصادر مذبحه الذهبى وآنيته وكنوزه . . . وأمر أن يعود الهيكل كما كان ضـريحا مقـدسا لزيوس ، وأن يقام مذبح يونانى فوق المذبح القديم ، وأن يستبدل بالقرابين القديمة قربان من الخنازير . ثم حرم تقديس السبت والاحتفال بالأعياد اليهودية ، وجعل الختان جريمة يعاقب عليها بالاعدام ، وحرمت جميع مراسم الدين اليهودى فى جميع انحاء اليهود ـ والزم الاهالى باتباع المراسم اليونانية ، وعـوقب من يخالف ذلـك بالاعدام . وكان كل من يأبى من اليهود أن يأكل لحم الخنزير وكل من يوجد عنده كتاب الشريعة يسجن أو يقتل ، وامر أن يحرق هذا الكتاب إن وجد . وأشعلت النار فى اورشليم نفسها ، وهدمت اسوارها وبيع سكانها اليهود فى اسواق الرقيق ، وجىء بالأجانب ليقيموا فى مواضعها .

وعثرت شرذمة من جنود الملك على كهوف اوى إليها بعض اليهود الثابتين على دينهم فامروهم بالخروج ، فلما عصوا أمر الجنود وابوا كذلك أن يزيلوا ما عساه أن

يكون فى مداخل الكهوف من حجارة لأن اليوم كان يوم السبت ، اعمل فيهم الجنود النار والسيف ، وقتلوا كثيرين من اللاجئين ، واختنق الباقون بالدخان . وفى المدن قبض على النساء اللاتى ختن من ولدن حديثا من الأطفال وألقين من فوق الأسوار .

وكانت قصص الاستشهاد تتناقلها الألسن وتملأ بها الكتب .

وكان هناك رجل ثبت على مبدئه اسمه متاثياس هو واولاده الخمسة ــ ولما أمر عامل الملك أهل مدين بأن يجحدوا الشريعة ويقربوا لزيوس . جاء متاثياس الشيخ وابناؤه الخمسة وقال :

(لو أن جميع سكان المملكة اطاعوا امركم بالمروق من دين ابائهم لبقيت أنا واولادى الخمسة متمسكين بدين آبائنا الأولين) . ولما أن اقترب أحد اليهود من المذبح ليقدم القربان الوثنى المطلوب ذبحه متاثياس بيده ودبح ايضا مندوب الملك ، ثم نادى الشعب قائلا : من كان يغلو على الشعرية واراد أن يؤيد العهد فليتبعنى ، فسار وراءه هو وابنائه كثيرون من القرويين حتى وصلوا إلى جبل افرايم ، حيث انضمت اليهم جماعة صغيرة من الشبان الثائرين ومن كان باقيا على قيد الحياة من المتقين

وحدثت حروب بين هؤلاء (المتقين) وبين الملك . . . انتهت بانتصار وبمولد دولة يهودية جديدة .

وكان ملوك مصر من البطالمة الأوائل قد سمحوا لليهود المقيمين بمصر بمزاولة انشطتهم التجارية والمالية .

غير أنه لم تلبث أن ظهرت الفوارق بينهم وبين بقية الشعب المصرى ، ونشأت من هذه الفوارق الدينية والعنصرية مضافا إليها المنافسات الاقتصادية حركة مناهضة للسامية فى أواخر هذا العصر . **ذلك أن المصريين واليونانيين قد اعتادوا جميعا وحدة الدين والدولة** ، ولم يكن يرضيهم استقلال اليهود الثقافى عن سائر اهل البلاد . يضاف إلى هذا أن منافسة الصانع ورجل الأعمال اليهودى كانت ثقيلة الوطأة عليهم ، ولما أن اخذت رومة تستورد الحبوب من مصر كان تجار الإسكندرية اليهود

هم الذين ينقلون هذه البضاعة فى اساطيلهم . وادرك اليونان عجزهم عن صبغ اليهود بالصبغة الاغريقية فأوجسوا منهم خيفة على مستقبلهم ، وأخذوا يشكون من أن الشريعة اليهودية تحرم التزواج بينهم وبين أهل الأديان الأخرى ، وأن معظم اليهود لا يختلطون بغيرهم ، كثرت الكتب والرسائل المناهضة للسامية . . واشتدت الأحقاد بين الجانبين حتى أدت فى القرن الأول الميلادى إلى أعمال العنف المخربة(٥)

مرحلة خضوع فلسطين واليهود للامبراطورية الرومانية .

أصبح اليهود من عهد قيصر عنصرا قويا من عناصر السكان فى العاصمة وقد وفد منهم إلى روما عدد قليل من عهد ماض يرجع إلى عام ١٤٠ ق . م . وجىء بعدد كبير منهم إلى رومة اسرى بعد الحروب التى شبت فى عام ٦٣ ق . م ولم يلبث هؤلاء أن تحرروا من الرق بجدهم ، واقتصادهم ، ولم يحل عام ٥١ ق . م . حتى كان عددهم فى الجمعية التشريعية قد ازداد إلى حد جعل شيشرون يصف معارضتهم بأنها مجازفة سياسية غير مأمونة العاقبة . ويمكن القول بوجه عام إن الحزب الجمهورى كان معاديا لليهود وان الشعب والأباطرة كانوا من أصدقائهم .

وقد ظلوا على الدوام يؤيدون قيصر ، وبسط عليهم فى نظير ذلك حمايته ورعايته ، وحذا اغسطس حذوه فى هذه الخطة . اما تيبيروس فكان معاديا لكل العقائد الأجنبية ، ولذلك جند اربعة آلاف منهم ليحاربوا فى سردينيا حربا لا تكاد تختلف فى شىء عن الانتحار ، ثم اخرج البقية منهم من رومة (١٩ م) . ثم ادرك بعد اثنى عشر عاما من ذلك الوقت أن سجانوس قد اضله فى هذا الأمر ، فالغى مرسوم نفيهم ، وامر الا يضار اليهود فى ممارسة طقوس دينهم وفى اتباع عاداتهم . وبسط عليهم كاليجولا حمايته فى رومة ، ولكنه قاومهم خارجها ، ونفى كلوديوس بعضهم على اثر ما احدثوا فى المدينة من شغب ، ولكنه اصدر فى عام ٤٢ م مرسوما عاما يؤيد فيه حقهم ايا كان مقامهم فى انحاء الامبراطورية فى أن يعيشوا حسب قوانينهم . وفى عام ٤٤ نفى دومنيان اليهود من رومة إلى وادى اجبريا وفى عام ٤٦ اعادهم وسمح لهم أن يستمتعوا بالطمأنينة جيلا كاملا .

وكانت نزعة اليهود الانفصالية ، واحتقارهم للشرك وعبادة الأوثان ، وتزمتهم الخلقى ، وامتناعهم عن الذهاب إلى دور التمثيل أو مشاهدة الألعاب وعاداتهم وطقوسهم الدينية الغريبة ، وفقرهم وما نتج عنه سن قذارة ، كان كل هذا سببا فى كراهية العناصر الأخرى لهم ، وهى الكراهية المألوفة فى تاريخهم الطويل ، وقد ندد جوفال بكثرة تناسلهم ، كما ندد ناستس بوحدانيتهم الدينية ، وندد غيرهم بشغفهم بالثوم . وزادت البغضاء بينهم وبين غيرهم من الطوائف بعد استيلاء الرومان على بيت المقدس وسط معارك دموية . ومثلت فى موكب النصر الذى استقبل به ناستس جماعة كبيرة من الأسرى اليهود والغنائم المقدسة ، كما مثلت رموز عن هذا النوع على ما أقيم له من اقواس النصر ، واضاف فسبا زيان إلى اذاهم السخرية منهم وأمر بأن يخصص من ذلك الوقت نصف الشاقل ، الذى كان يرسله اليهود المشتتون لصيانة الهيكل ، لتعمير رومة . .

ونعمت فلسطين المضطربة بفترة صغيرة من السلام فى عهد تميريوس (الإمبراطور الرومانى) ولما جلس كاليجولا على العرش أراد أن يجعل عبادة الأمبراطور دينا يوحد به أجزاء الإمبراطوريه المختلفة فامر أن تشتمل كل العبادات قربانا يقرب لصورته واصدر تعليماته إلى الموظفين فى اورشليم أن يضعوا تمثاله فى الهيكل .

وكان اليهود فى عهد اغسطس وتيبيروس قد خطوا نصف الطريق إلى ترضية الأباطرة بأن كانوا يضحون ليهوه باسم الإمبراطور ، ولكنهم كانوا ينفرون اشد النفور من وضع تمثال منحوت لرجل وثنى فى هيكلهم ، وبلغ هذا النفور درجة دفعت آلافاً منهم – على حد قول الرواية المأثورة – إلى أن يذهبوا إلى حاكم سورية ويطلبوا اليه أن يذبحهم وان لم يكونوا قد ارتكبوا ذنبا قبل أن ينفذ هذا المرسوم .

وتألفت عصابات من المتحمسين و (الفدائيين) لمحاربة اليهود ، واقسم اعضاؤها أن يغتالوا كل يهودى خائن ، فكانوا يندسون وسط الجماعات فى الشوارع ويطعنون ضحاياهم من خلفهم ، ثم يختفون بين الجماهير فى الفوضى التى تعقب عملهم هذا .

وانقسمت المدينة وانقسمت كل اسرة تقريبا بين هذين الحزبين فاستولى احدهما على الجزء الأكبر من اورشليم ، واستولى الآخر على جزئها الأدنى كلاهما يهاجم الآخر بكل ما يصل اليه من سلاح ، ووصل الأمر عام ٦٨ إلى نشوب معركة دامية بين الحزبين انتصر فيها المتطرفون وقتلوا ١٢,٠٠٠ يهودى بينهم الأغنياء كلهم تقريبا .

وفى عهد كاليجولا (٣٧ ـ ٤١) أتت سياسة فرق تسد أكلها . . . . وذلك أن الاغريق سخروا من الأمير اليهودى اجريبا عند مروره بالإسكندرية (أوائل اغسطس ٣٨) وهو فى طريقه إلى ارتقاء عرش مملكة صغيرة على حدود بلاد اليهود فى فلسطين ، ولما كان الإسكندريون قد عرفوا اجريبا منذ بضع سنين رجلا مفلسا متلافا يتهرب من سداد ديونه ، فانه هالهم أن يصبح هذا اليهودى المتلاف ملكا بين عشية وضحاها وأن يروا اليهود يستقبلونه استقبال الملوك العتاة ، ولذلك استقر رأيهم على انتهاز هذه الفرصة للنيل من أجريبا ومن اليهود فى شخصه فنظموا موكبا هزليا قدامه رجل معتوه عصبوا رأسه باكاليل من لحاء البردى ، ووضعوا فى يده صولجانا من ساق البردى وطافوا به فى شوارع المدينة وهم يرددون كلمة سريانية معناها الملك ولكن ما أن افاق الإسكندريون من نشوتهم حتى خشوا عاقبة سخريتهم من اجريبا فقد كان صديق الامبراطور وصاحب حظوة لديه ، فرأوا انه لن ينقذهم من ورطتهم الا أن يوقعوا بين اليهود والامبراطور . ولما كان الامبراطور قد امر باقامة تماثيله فى جميع المعابد وكان اليهود لم ينفذوا امر الإمبراطور لأن اقامة تماثيل البشر فى معابدهم كان يدنسها ، فان الإسكندريين ادعوا بانهم لم يتظاهروا ضد اجريبا الا لعدم امتثال اليهود لأمر الإمبراطور . واتخذوا من ذلك ذريعة ليدخلوا المعابد اليهودية ويقيموا فيها تماثيل الإمبراطور وعندما قاومهم اليهود اتهموا بعدم الولاء للامبراطور وبذلك افلحوا فى حمل الحاكم الرومانى فلاكوس على حرمان اليهود امتيازاتهم . وانتهز الإسكندريون فرصة وقوف الحاكم الرومانى إلى جانبهم للتنكيل باليهود ونهب حوانيتهم وتخريب دورهم وبيعهم . وبطبيعة الحال لم يقف اليهود بلا حراك وانما هبوا للدفاع عن انفسهم وذويهم وبيعهم وممتلكاتهم ، فاشتبك الفريقان فى صراع عنيف دون أن يتدخل الحاكم الرومانى فلاكوس لوضع الأمور فى نصابها . . . . بل إنه القى القبض على ثمانية وثلاثين من اعضاء مجلس اليهود وامر بجلدهم فى الحادى والثلاثين من اغسطس بالرغم من انهم كانوا معفين من هذه العقوبة .

ونشأت فى هذه الفترة اعمال تصور هذا النزاع يسميها الباحثون (اعمال الإسكندريين) أو (اعمال الشهداء الوثنيين) بسبب ما بينها وبين (اعمال الشهداء المسيحيين) من تشابه مرده فى الحالين إلى صياغة الوثائق فى قالب مضابط لمحاكمات يلقى فيها المتهمون خطباً طويلة ويندون بمثالب الحكم الرومانى ويتبادلون مع الامبراطور عبارات قارصة عنيفة . و (اعمال الإسكندريين) تعبر عن كراهية الاغريق الشديدة لليهود وللرومان .

وفى عام ٦١ اشتبك الإغريق مع اليهود فى الإسكندرية وراح ضحيته خمسون الف منهم ، حسب قول مؤرخهم يوسف

وتجدد النزاع بين اليهود والإغريق عام ١١٣ ــ ولكن الأمبراطور الرومانى نصر اليهود ووبخ الإغريق على مسلكهم ــ ولكن اليهود كانوا يشعرون بقلق شديد لأن الرومان كالوا لهم ضربات شديدة منذ ثورتهم فى فلسطين فى عام ٦٦ ، فقد دمروا معبدهم الأكبر فى اورشليم وارغموهم على دفع ضريبة الدينارين لمعبد جوبيتر كابيتولينوس فى روما بدلا من معبد اورشليم واغلقوا معبد ليونتوبوليس فى مصر وصادراوا جميع ممتلكاته ، واخذوا يعتبرونهم جماعة مشاغبة يجب اخذها بالحزم . ازاء كل ذلك اضمر اليهود حقدا دفينا للرومان واخذوا يتطلعون إلى الفرصة التى تتيح لهم الخلاص من ربقتهم . وقد ظن اليهود أن فرصتهم قد سنحت عندما تحرج مركز الامبراطور فى اثناء الحملة التى قام بها فى الشرق ، ففى عام ١١٥ اندلعت نيران ثورة اليهود فى قبرص وفى مصر وفى قوريناتيه (برقة) وفى عام ١١٦ انقلبت الثورة إلى حرب ضروس وراح ضحيتها اعداد كبيرة من الإغريق والرومان .

وقد اعمل اليهود القتل بين الإغريق المقيمين فى ريف مصر مما حدا بهم إلى الالتجاء إلى الإسكندرية حيث شاركوا الإسكندريين فى القضاء على كل ما وصلت إليه ايديهم من اليهود . وفى شتاء ١١٦ زحف يهود برقة على مصر لكنهم بدلا من أن يحاولوا اقتحام الإسكندرية اتجهوا نحو الأقاليم وانضموا إلى اليهود المقيمين هناك وسيطروا على بعض الجهات وسلبوا ونهبوا وحرقوا وخربوا كما سولت لهم انفسهم

الفصـــل الثــانى

صراعات أتباع العقائد الأولى مع المسيحيين

نشأت المسيحية بين يهود فلسطين ، وكان أول صراعاتها مع الديانة اليهودية نفسها ، وذلك أن اليهود اعتبروا المسيحيين الأوائل جماعة منشقة عنهم ومن ثم قاوموهم وصارعوهم واضطروا الحاكم الرومانى بيلاطس إلى التدخل فى هذا الصراع بعد أن اقنعوه أن المسيح يدعو إلى قلب نظام الحكم بتعاليمه ويعمل على أن يكون ملكا لبنى اسرائيل .

وكانت شعوب البحر الأبيض المتوسط ، ومنها فلسطين ، تخضع لروما التى كانت تدين ، هى وشعوبها بعقائد تعدد الآلهة وتأليه الإمبراطور الرومانى .

وهذا لا يتفق مع الديانة المسيحية الناشئة الداعية إلى إله واحد لا يجوز تأليه أو عبادة سواه والا كان الإنسان كافرا .

وكانت الحكومة الرومانية فيما قبل ايام المسيحية تظهر فى اغلب الأحيان للاديان المعارضة للدين الوثنى المقرر تسامحا تظهر هذه الأديان مثله للشعائر الرسمية وللامبراطورية ، فلم تكن تطلب من اتباع العقائد الجديدة الا حركة يأتونها من حين إلى حين يمجدون بها الآلهة ورئيس الدولة ، ولهذا آلم الأباطرة أن يجدوا أن المسيحيين

واليهود ، دون سائر اتباع الاديان الخارجة على دين الدولة ، هم الذين يأبون أن يعظموا عبقرياتهم ، ذلك أن احراق البخور امام تمثال الامبراطور كان قد اصبح دليل الولاء للامبراطورية وتوكيدا لهذا الولاء .

لكن الكنيسة كانت ترفض من ناحيتها الفكرة الرومانية القائلة بأن الدين خاضع للدولة ، وترى فى عبادة الإمبراطور نوعا من الشرك وعبادة الأصنام ، ولذلك امرت اتباعها أن يرفضوا هذه الشعائر مهما ينلهم من الأذى بسبب هذا الرفض واستدلت الحكومة الرومانية من هذا على أن المسيحية حركة متطرفة ، بل لعلها حركة شيوعية ـ تعمل فى السر على قلب النظام القائم .

وقد استطاعت القوتان قبل عهد نيرون أن تعيشا معا من غير أن يشتجر بينهما النزاع . وكان القانون يعفى اليهود من أن يعبدوا الإمبراطور . ونال المسيحيون فى أول امرهم هذه الميزة لانهم لم يكن يستطاع التفريق بينهم وبين اليهود . ولكن مقتل بطرس وبولس ، وحرق المسيحيين بيد الرومان ليزيد الإمبراطور نيرون العابه بهاء، بدل هذا التسامح المتبادل المشوب بالاحتقار من الجانبين عداء دائما ، وحربا تندلع نارها بين الفينة والفينة ، فلا غرابة أن وجه المسيحيون بعد هذا الاجتراء ، اسلحتهم كلها إلى صدر روما ـ فنددوا بما فيها من فساد وعبادة للاصنام وسخروا من آلهتها وأظهروا الشماتة فيها حين حلت بها الكوارث . . . واعلنوا ، أن كل من أتيحت لهم فرصة لاعتناق المسيحية ثم لم يعتنقوها سيعذبون عذابا ابديا ، وقال الكثير منهم إن هذا سيكون ايضا مصير كل الخلائق الذين وجدوا قبل المسيحية ثم لم يعتنقوها لأى سبب من الأسباب . وإن كان بعضهم قد استثنى سقراط من هذا العذاب ـ ورد الوثنيون على هذا بأن سموا المسيحيين (حثالة الناس) و (البرابرة الوقحين) واتهموهم بانهم (اعداء الجنس البشرى) وقالوا إن الكوارث التى حلت بالإمبراطورية ليست الا نتيجة غضب الآلهه الوثنية والسماح لمن يسبونها من المسيحيين بأن يبقوا احياء . واخذ كل فريق يفترى على الآخر آلاف الافتراءات فاتهم المسيحيون بانهم سحرة متصلون بالشياطين ، وانهم يقترفون الخطايا سرا ، ويشربون دماء الآدميين فى عيد الفصح ويعبدون الحمار .

ورفض المسيحيون الانضمام للخدمة العسكرية ، وتجنبوا غير المسيحيين وابتعدوا عن الألعاب (الهمجية) التى يقيمونها فى اعيادهم ، وامرهم قساوستهم الا يغشوا دور تمثيلهم لأنها مباءة للفجور ، وحرم على المسيحى أن يتزوج غير مسيحية ، وعلى المسيحية أن تتزوج بغير مسيحى ، واتهم الوثنيون العيد المسيحيين بانهم يبذرون بذور الشقاق فى الأسر بتحريضهم ابناء اسيادهم وزوجاتهم على اعتناق الدين المسيحى ، واتهم الدين المسيحى بانه يعمل لتشتيت شمل الأسر وخراب البيوت .

وساء الشعب عزلة المسيحيين وتعاليهم ، وثقتهم بانفسهم واهابوا بحكامهم أن يعاقبوا اولئك الملحدين الذين يهينون الآلهه .

وحدثت المذابح والمجازر والتعذيب لآلاف المسيحيين عسى أن يرجع المسيحيين عن دينهم ولكن العكس حدث وهو تضاعف اعدادهم

وكان أول اضطهاد للمسيحيين من الوثنية فى عهد الإمبراطور الرومانى نيرون حيث حدث الحريق الذى شمل معظم احياء روما وحتى يبعد الإمبراطور (الفاسق) الشبهة عن نفسه ادعى أن المسيحيين هم السبب وبدأ فى القبض عليهم وتعذيبهم حتى الموت

واصبحت المسيحية جريمة التزم الحكام الرومان ، بصفة عامة ، بتوقيع أشد واشنع واقسى العقوبات على مرتكبيها .

وكان بامكان من تثبت ضده المسيحية سواء بشهادة الشهود أو باعترافه إن ينجى نفسه من الموت اذاارتضى فى المحكمة ، وضع بعض حبات البخور على المذبح (أى اذا رجع إلى العقيدة الوثنية) فاذا رفض استعمل القاضى كل وسائل الترغيب ، فان رفض استعمل الترهيب القولى ، فاذا لم يفلح استعمل العنف وأتى بالسوط والمخلقة .

وفى هذه الأجواء التى يغلب على الشعب فيها العقيدة الوثنية ، يتم انتهاك عفة النساء المصرات على المسيحية ، والقتل والسلب والنهب والتحقير والنفى والأعتقال . . . الخ

واثارت الاستفزازات المتبادلة فى حرب دينية دامت لأكثر من مائتى عـام ، اثارت ثائرة الفريقين المتنازعين ، وطردوا الموظفين المسيحيين من وظائفهم فى القصر وتضاعف الاضطهاد ، ولقد صوروا العمل المجيد على انه انقاذ الامبراطورية ، ومن الخطر الإبقاء على شعب مستقل نبذ عبادة روما ونظامها وأسس جمهورية متميزة مستقلة ، تحكمها قوانينها الخاصة ويتولى زمام الأمر فيها حكام فيها ، ولها اموالها العامة ، وتربط بين افرادها روابط قوية ـ واتجه الجند إلى الكنيسة الرئيسية فى نيقوميديا ، وحرقوا الكتاب المقدس ، وهدموا البناء بآلات الهدم والدمار وذلك فى خلال بضع ساعات .

ونص مرسوم الاضطهاد على هدم جميع الكنائس والإعدام لكل شخص يجرؤ على عقد اية اجتماعات بقصد العبادة الدينية ـ وجمعت الكتب المقدسة وحرقت علنا . وصودرت فى الحال املاك الكنيسة وبيعت اجزاؤ ها لمن يدفع اكبر ثمن ، أو ضمت لاملاك الإمبراطور ، أو وهبت للمدن والهيئات ، أو منحت لرجال الحاشية الجشعين بناء علىَ توسلاتهم .

وبالنسبة للرافضين لديانه روما ، فقد اعتبر الأشخاص الاحرار ذوو المنبت الكريم محرومين من الحصول على اية امجاد أو وظائف ، وحرم العبيد إلى الأبد من أى أمل فى الحرية ، وحرم الشعب (المسيحى) بأجمعه من حماية القانون ، ورخص للقضاء فى الاستماع والحكم فى اية قضية ضد أى مسيحى ولكن لم يكن مرخصا للمسيحيين الشكوى من أى ضرر أو أذى يصيبهم هم انفسهم .

ولم يكد هذا المنشور ينشر علنا ، حتى مزقته يد مسيحى عبر باقذع السباب واحتقاره ومقته لهؤلاء الحكام الملحدين الطغاة وانتهى الأمر به إلى التعذيب الشديد فالقتل .

وتصور دقلديانوس أن محاولة حرق قصره مرتين كانت بسبب المسيحيين وزج فى السجون بعدد كبير من ذوى المناصب والحظوة ، وبلغ الامعان فى التعذيب بمختلف الوسائل حد الشطط . وتلوث القصر والمدينة على السواء بدماء اولئك الذين نفذ فيهم حكم الإعدام .

وصدر مرسوم بتوقيع عقوبة الإعدام على المسيحيين الذين يمتنعون عن تسليم كتبهم المقدسة . . . وانتهز كثير من الناس هذه الفرصة ليفوزوا بشرف الاستشهاد ولكن كان فى الجانب الآخر كثيرون ممن اشتروا الحياة الدنيا بالكشف عن مخابىء الكتب المقدسة وتسليمها غدرا إلى الكفار .

وامتلأت السجون فى كل ولايات الإمبراطورية بمشايخ المسيحية واتباعهم وعذبوا تعذيبا شديدا وهدمت الكنائس ، وعندما احتمى بعض الأهالى بكنيستهم تم حرق الكنيسة بكل من فيها .

وعندما اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية عام ٣١٢ دارت الدائرة على الوثنيين ولكن لما تولى الإمبراطور جوليان حكم الإمبراطورية الرومانية عام ٣٦١ ثم ارتد عن المسيحية إلى الوثنية دارت الدائرة على المسيحيين مرة أخرى .

وتلقى الوثنيون أمره الكريم بفتح (كل) معابدهم ، وبهذا انقذهم على الفور من القوانين الظالمة والمضايقات التعسفية التى تحملوها تحت حكم الإمبراطور قسطنطين الذى اعتنق المسيحية وشجع على اعتناقها ــ وكان يلذ لجوليان أن يجمع اساقفة المذاهب المسيحية المتنافرة ويسمع ضجيجهم وجدلهم واقتنع كل الأقتناع بانهم ، مع بعضهم ، أشد حقدا واكثر عنادا ، وانه لم يعد يخشى من احتمال اتحادهم .

وعمل جوليان المغريات المادية والتسهيلات القانونية لإغراء الناس بالارتداد عن المسيحية .

وكان اكتساب عدد جديد من المهتدين إلى الوثنية شيئا يشيع فيه اهواءه الغالية على نفسه .

واظهر عطفا وتعاطفا مع اليهود وأنه حاميهم الكريم . . . واكتسبوا محبته بحكم كراهيتهم لاسم المسيح . وكانت معابد اليهود الفقيرة الجرداء تثير فيهم الكراهية والحقد نحو الكنائس الثائرة المليئة بالمتعبدين ، غير أن قوتهم لم تكن معادلة لحقدهم ، ومن ثم فان المتزمتين من رجال الدين عندهم كانوا يوافقون على اغتيال المرتد إلى المسيحية سرا .

وقد وضع جوليان مبدأ يفيض بالظلم والأذى ، نقل بمقتضاه إلى احبار ديانته حق التصرف فى المنح السخية التى كان الامبراطور قسطنطين المسيحى التقى وابناؤه قد اغدقوها من الخزانة العامة على الكنيسة المسيحية . وكذلك سن من القوانين الصارمة ما هدم آمالهم فى الحصول على الهبات التى كان يوصى بها الناس لهم .

وهكذا أدخل القساوسة المسيحيين فى زمرة احقر طبقات الشعب واقلهم شأنا وحرم على المسيحيين تعلم فنون النحو والبلاغة باعتبارها نتاج العقل اليونانى أو الرومانى (الوثنى) الذى كانوا يحتقرونه .

وكان راغبا فى حرمان المسيحيين من المزايا ــ وإبعادهم عن الوظائف التى يحتاج شغلها إلى ثقة ــ وسلم جوليان سلطان الحكم للوثنيين والزم المسيحيين بتقديم تعويض كامل عن المعابد وعما بداخلها التى استولت عليها الكنائس أو المسيحيون اثناء حكم الأباطرة المسيحيين قبله .

وقد حدث أن الأسقف مرقس ، قبل عهد جوليان ــ كان قد استخدم فى تحويل الناس إلى المسيحية ، مع الإقناع والحماس ، هدم أحد معابد الوثنيين ومن ثم فان حكام جوليان طالبوه بأن يدفع ثمن المعبد الذى هدمه كاملا ، ولما كانوا على يقين من فقره فقد كانت رغبتهم الوحيدة أن يذلوا كبرياءه العنيد بأن ينتزعوا منه وعدا بأن يدفع أتفه تعويض . وكانوا يخشون الرجل العجوز فجلدوه بطريقة وحشية ومزقوا ذقنه ، ثم طلوا جسده العارى بعسل النحل وعلقوه فى شبكة بين السماء والأرض عرضة للدغ الحشرات ولأشعة الشمس . غير أن الأسقف مرقس ظل ، وهو معلق على هذه الصورة يفخر بالجريمة التى ارتكبها ، ويوجه الأهانات إلى معذبيه العاجزين الغاضبين ثم أنقذ فى نهاية الأمر من ايديهم ، واصبح طليقا يتمتع بشرف نصره الإلهى .

وفى كثير من المدن ، اساء الوثنيون لحظة انتصارهم فعذبوا ، وقتلوا ، وجروا الأجساد المسيحية الممزقة فى الطرقات حيث كانت تطعن باسياخ الطهاة ، وان احشاء القساوسة المسيحيين والعذارى المسيحيات بعد أن كان يذوقها اولئك المتعصبون المتعطشون للدماء ، كانت تخلط بالشعير ، وترمى فى احتقار إلى الحيوانات القذرة فى المدينة .

وصادر جوليان اموال الكنائس ــ واستعمل السيف والنار .

وطرد اثناسيوس المصرى من كرسيه ــ وطارده ــ غير أن الرجل اختفى كالعادة ورد المسيحيون باحراق المعابد الوثينة . . . . الخ .

ولما مات الإمبراطور جوليان ، وتولى بعده جوفيان دارت الدائرة على الوثنيين .

وفى القرن الرابع اختلف المسيحيون فى كل نقطة عدا نقطة واحدة هى ــ انه يجب اغلاق الهياكل الوثنية ، ومصادرة املاكها ، واستخدام اسلحة الدولة التى كانت توجه من قبل لقتال المسيحية فى قتال هذه المعابد وقتال من يتعبدون بها .

وكان قسطنطين قد قاوم تقديم القرابين والاحتفالات الوثنية وإن لم يكن قد حرمها تحريما باتا ، فلما جاء قسطنيوس أمر باغلاق جميع الهياكل الوثنية فى الدولة ومنع جميع الطقوس الوثنية وانذر من يعصى امره بقتله ومصادرة املاكه ، كما فرض هاتين العقوبتين بعينهما على كل حكام الولايات الذين يهملون تنفيذ هذا الأمر ، ومع هذا فقد بقيت جزائر وثنية متفرقة فى بحر المسيحية الآخذ فى الاتساع ، فكان فى المدن القديمة ، أثينا ، انطاكية ، وأزمير ، الإسكندرية وروما وبخاصة بين الأشراف وفى المدارس طوائف كبيرة من الوثنيين متفرقين فى احيائها المختلفة ، وظلت الألعاب تقام فى اولمبيا إلى ايام ثيودسيوس الأول (٣٧٩ ــ ٣٩٥) والطقوس الخفية يحتفل بها فى الوسيس : حتى جاء الريك فهدم هيكلها فى عام ٣٩٦ م .

ولقد اقرت فى الفقة الدينى قاعدتان منمقتان اشتقوا منهما نتيجة صارمة مباشرة ضد رعايا الإمبراطورية الذين ما زالوا متمسكين بطقوس اجدادهم ، أولاهما أن الحاكم يعتبر إلى درجة ما ، مدينا بالجرائم التى يهمل فى حظرها أو عقابها ، وثانيتهما أن العبادة الوثنية التى تؤدى الى آلهة خيالية لا تعدو أن تكون فى واقع الأمر شياطين هى أبغض جريمة ضد الجلال الأسمى للخالق .

وعقد الإمبراطور ثيودوسيوس مجلس السناتو حيث طرح سؤالا هاما عما اذا كانت عبادة الإله جوبيتر أو عبادة المسيح هى التى ينبغى أن تكون دين الرومان ؟

تحطمت حرية التصويت التى تظاهر بالسماح بها ، بفعل الآمال والمخاوف التى اوحى بها وجوده فى الاجتماع . كما أن نفى سيما خوس (الوثنى البليغ الذى حاول جهده الإبقاء على مظاهر الوثنية) بصورة تعسفية كان بمثابة نذير قريب العهد باية معارضة لرغبات الملك ، تنطوى على الخطر . وعندما اخذت الأصوات بالطريقة المعتادة انحازت اغلبية كبيرة جدا ضد جوبيتر فادانته وحقرته . وقد يكون مدعاة للدهشة أن بعض الأعضاء ، مهما قل عددهم ، كان لديهم من الجرأة ما جعلهم يعلنون بكلماتهم وبأصواتهم ، أنهم ما زالوا يؤيدون جانب الإله المنبوذ . وهذا التحول السريع من جانب السناتو لابد أن يرجع اما إلى عوامل خارقة للطبيعة أو إلى دوافع حقيرة ، وقد افعم هؤلاء الذين اهتدوا كرها لا اختيارا ، فى كل مناسبة ملائمة ، عن رغبتهم الباطنة فى خلع قناع المراءاة الكريه . غير انهم تمسكوا شيئا فشيئا بالديانة الجديدة ، لأن قضية الديانة القديمة اصبحت أكثر يأسا فأذعنوا إلى سلطات الإمبراطور وإلى اسلوب العصر ، وإلى توسلات زوجاتهم وابنائهم الذين كان رجال الدين فى روما ورهبان الشرق يحرضونهم ويسيطرون عليهم . . . . وسرعان ما اصبح المثل الذى ضربته بعض الأسر النبيلة مثلا يحتذى عند العامة . . . وخضعت روما والولايات لسيطرة الإنجيل .

وهاجم ثيودوسيوس الخرافة فى اعظم جانب حيوى لها وذلك بحظر تقديم القرابين التى اعلن انها عمل اجرامى بقدر ما هو عمل مشين ، وبما أن المعابد كانت قد أقيمت بغرض تقديم الذبائح ، فقد اصبح واجب الملك الخير أن يبعد عن رعاياه ، ذلك الإغراء الخطير . . . فقد كلف قواده باغلاق المعابد ، والاستيلاء على ادوات العبادة الوثنية أو تدميرها والغاء امتيازات الكهنة ، ومصادرة الأملاك الموقوفة على الأماكن المقدسة ، لمنفعة الإمبراطور أو الكنيسة أو الجيش .

وسار الأب المقدس مارتن اسقف تور ، على رأس رهبانه المخلصين ، لتدمير الأصنام والمعابد والأشجار المقدسة فى ابرشيته الواسعة . . . وانتشر تحطيم المعابد والاستيلاء على محتوياتها من الشعب بقيادة قساوسته فى كل مكان .

وتم تحطيم معبد سيرابيس وتمثاله فى الإسكندرية وانتشرت الحرائق فى هذه الأماكن . . . وأقيمت على انقاض بعضها . . . أو بداخلها كنائس . . . وأحرقت مكتبة الإسكندرية واصبحت رمادا على يد توفيلوس .

يقول المرسوم الإمبراطورى

تقتضى ارادتنا ومشيئتنا ، أنه ينبغى على كل فرد من رعايانا ، حاكما أو مواطنا عظيم الشأن والمقام أو حقيرا ، الا يعبد فى اية مدينة ، أو فى اى مكان صنما لاحياة فيه ، بذبح ضحية بريئة .

. . . . وامتلأت الكنائس باعداد متزايدة من هؤلاء المهتدين التافهين الذين اعتنقوا الديانة السائدة مدفوعين بدوافع دنيوية ، وبينما كانوا يقلدون فى خشوع جلسة المؤمنين ويرددون صلواتهم ، كانوا يرضون ضمائرهم بالتضرع إلى آلهتهم القديمة فى دخيلة انفسهم . واذا كان الوثنيون فى حاجة إلى الصبر على الألم ، فقد كانت تعوزهم روح المقاومة ، ومن ثم فان اعدادهم الغفيرة المشتتة ممن كانوا يبكون على خراب معابدهم استسلموا دون كفاح إلى خصومهم ، اما المقاومة غير المنظمة التى ابداها فلاحو سوريا واهل الإسكندرية ضد التعصب المحلى ، فقد أُسكتت باسم الإمبراطور وبسلطاته . . وفى عهد الإمبراطور جستنيان كانت هناك بقية من الوثنيين متوارين عن الأنظار ، ويعيش بعضهم فى احسن الأوضاع الإنسانية . . . وقد اثار هؤلاء الوثنيون سخط المسيحيين . . . ومن ثم عين اسقف ليكون محققا يتحرى شئون العقيدة ، وسرعان ما اكتشفت عينه اليقظة ، فى البلاد وفى المدينة ، أولئك الحكام ، ورجال القانون ، والأطباء ، والسفسطائيين الذين ما زالوا يعتنقون خرافة اليونان .

وقد طُلب اليهم فى قسوة وفى جفاء أن يختاروا دون ابطاء بين غضب الههم جوبيتر وبين غضب الإمبراطور جستنيان ، وقيل لهم إن كراهيتهم للانجيل لم يعد ممكنا أن تتوارى وراء قناع فاضح من الالحاد وعدم الاكتراث ، . . . . . وقد خضع الضعفاء لمليكهم الدنيوى وأدوا شعائر المعمودية وجاهدوا فى حماس خارق لمحو ريبة الوثنية أو التفكير فيها . . . أما النبيل فوتبوس فهو وحده الذى فضل أن يعيش ويموت كما عاش اجداده من قبل فحرر نفسه بضربة خنجر . . . . ثم مثلوا بجثته وعرضوها بصورة شائنة .

وبفضل عناية الاسقف نفسه امكن اكتشاف سبعين الفا لا زالوا مختفين بآخر جذوات اساطيرهم ، فى بلدة هيوميروس ، وتم تحولهم للمسيحية .

وفى ايام فوقا ملك الروم بعث كسرى ملك فارس جيوش إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام وقتلوا النصارى باجمعهم واتوا إلى مصر فى طلبهم فقتلوا منهم امة كبيرة وسبوا منهم سبيا لا يدخل تحت حصر وساعدهم اليهود فى محاربة النصارى وتخريب كنائسهم . . . ونال اليهود من النصارى كل منال وأعظموا النكاية فيهم وخربوا لهم كنيستين بالقدس وحرقوا اماكنهم .

وفى ايام تسطابوس الملك الزم الحنفاء اهل حران وهم الصابئة بالتنصر فتنصر كثير منهم وقتل اكثرهم على امتناعهم من دين النصرانية

ولما اعتنق اولاف المسيحية وهو فى الجزائر البريطانية وجلس على عرش النرويج هدم المعابد الوثنية ، وشاد الكنائس المسيحية ، وظل يعيش مع عدد من الزوجات . وقاوم الزراع الأحرار الدين الجديد اشد المقاومة ، واصروا على أن يقرب اولاف القربان إلى آلهتهم ثور كما تقضى بذلك الشعائر القديمة ، وأجابهم أولاف إلى ما طلبوا ولكنه عرض أن يقدم إلى ثور خير قربان يرتضيه وهو الزراع الأحرار انفسهم ، فلم يكن منهم ازاء ذلك الا أن اعتنقوا الدين المسيحى ولما استمسك واحد منهم يدعى راند بدينه الوثنى ، أمر أولاف بشد وثاقه ودفع ثعبانا فى حلقه بأن كوى ذيل الثعبان بالنار ، فاندفع الثعبان إلى بطن راند وقضى على حياته .

وخطب أولاف لنفسه سجريد ملكة السويد ، فوافقت على الخطبة بشرط أن لا تتخلى عن دينها الوثنى — فضربها بقفازه فى وجهها قائلا (وما الذى يرغمنى على أن اتخذك زوجة وانت عجوز شمطاء ، سليطة ، كافرة ، فردت عليه (سيكون ذلك سببا فى موتك) وفعلا قامت الحرب وألقى فى اليم بكامل سلاحه

وفى عصر شارلمان (٧٦٨ — ٨١٤) — كان السكسون المقيمون عند الحدود الشرقية لبلاده وثنيين ، احرقوا كنيسة مسيحية واغاروا مرارا على غالة ، وكانت هذه الأسباب كافيه فى رأى شارلمان لأن يوجه اليهم ١٨ حملة (٧٧٢ — ٨٠٤) قاتل فيها الطرفان بمنتهى الوحشية ، فلما هزم السكسون خيرهم شارلمان بين التعميد والموت وامر بضرب عنق ٤٥٠٠ منهم فى يوم واحد ، وسار بعد فعلته هذه إلى ثيو نفيل ليحتفل بميلاد المسيح

وكانت معظم فنلندا حتى القرن الثانى عشر وثنية ، وبدأ الألمان ينشرون الدين المسيحى بينهم بالنار والسيف ، ولما وجد الفلنـديون أن الألمـان يتخذون الـدين المسيحى وسيلة للتسلل إلى بلادهم والسيطرة عليها ، نفضوا عن انفسهم هذا الدين وتطهروا بالمياه من تعميده ، ورجعوا إلى وثنيتهم ودعا البابا أنوسنت الثالث إلى شن حرب صليبية عليهم ، وقاد رجال الدين هذه الحرب ، التى انتهت بفوز الألمان وامتلاكهم البلاد ونشروا الدين واتخذوا من الأهالى رقيقا للارض .

واخيرا تمخضت هذه الصراعات عن تغلب المسيحية على العقائد الدينية الأولى حيث انتشرت فى اوروبا ومصر وشمال افريقيا والشام .

الفصل الثالث

صراعات اتباع العقائد الأولى مع المسلمين

عندما بدأ النبى ﷺ دعوته فى مكة بالطرق السلمية ، عاداه قومه بالطرق السلمية ايضا .

وكما بدأ الصراع مع أتباع اليهودية عندما قام اتباعها (باحتقار) آلهة الرومان والوثنيين ، وكما اشتد صراع الوثنيين مع المسيحيين لهذا السبب أيضا ، كذلك الحال مع الإسلام ، فقد بدأت صراعاته الدموية مع نقد الوثنية والسخرية منها ومن اتباعها جهارا . . .

وهنا تكتل اصحاب وقيادات المصالح السياسية والاقتصادية من الوثنيين للدفاع عن مصالحهم وعن اوضاعهم الاجتماعية والدينية التى تساند مواقعهم . . . . ضد هذا الخطر الإسلامى .

فعذبوا الضعفاء وفتنوهم عن دينهم ، واضطهدوا النبى عليه الصلاة والسلام وعائلته . . . . . حتى تمكن من الهجرة الى يثرب حيث كون الدويلة الإسلامية لتكون خنجرا مصوبا لجميع العقائد الوثنية واتباعها فى كل جزيرة العرب .

وكانت بداية هذه الصراعات عندما بادأهم النبى ﷺ بذكر آلهتهم ــ وكان من قبل لا يذكرها ، وعابها ، وكان من قبل لا يعيبها . هنالك عظم الأمر على الوثنيين

وحز فى صدورهم ، وبدءوا يفكرون التفكير الجد فى أمر هذا الرجل وما هو لاق منهم وما هم لاقون منه ، لقد كانوا إلى يومئذ يسخرون من قوله ، وكانوا اذا جلسوا فى دار الندوة أو حول الكعبة فجرى ذكره على السنتهم لم يثر اكثر من ابتسامات استخفافهم واستهزائهم . اما وقد حقر من شأن آلهتهم وسخر مما يعبدون وما كان يعبد آباؤهم ، ونال من (أصنام) اللات والعزى ومن الأصنام جميعا ، فلم يبق الأمر موضع استخفاف وسخرية ، بل اصبح موضع جد وتدبير . أو لو أتيح لهذا الرجل أن يؤلب عليهم اهل مكة وأن يصرفهم عن عبادتهم فماذا تؤول اليه تجارة مكة ، وماذا يكون مقامها الدينى وهى قبلة العبادة لجميع العرب فى ذلك الوقت .

وكان النبى عليه الصلاة والسلام فى حماية عمه أبى طالب ، وعرضت عليه القيادات الوثنية اما أن يكف ابن اخيه عنهم ، أو يتركه يفعلوا به ما شاءت لهم الكراهية وروح الانتقام .

ثم طلبوا من ابى طالب أن يسلمهم النبى ﷺ مقابل فتى غيره يتخذه له ولدا . . .

ولكن الرجل اصر على حماية ابن اخيه رغم اصرار النبى ﷺ على الثبات فى دعوة التوحيد مهما لاقى فى سبيلها من مغريات ومن اضطهادات . . .

وعملت بنو هاشم ، عائلة الرسول ﷺ ، على حمايته رغم أن منهم كثيرين لم يؤمنوا بدعوته .

ولكن الوثنيين وجدوا بغيتهم فى اتباع الرسول ﷺ من الضعفاء والارقاء ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم حتى القى احدهم عبده الحبشى بلالا على الرمال تحت الشمس المحرقة ووضع حجرا على صدره وتركه ليموت ، لا لشىء الا أنه اصر على الإسلام ولم يزل بلال وهو فى هذه الحال وهو يكرر كلمة : (احد ، أحد) محتملا هذا العذاب فى سبيل دينه . . . وكانت نهاية هذا العذاب على يدى أبى بكر الذى اشتراه واعتقه . واشترى ابو بكر كثيرا من الموالى الذين كانوا يعذبون ، ومن بينهم جارية كانت لعمر بن الخطاب اشتراها منه قبل اسلامه . وعذبت امراة حتى ماتت لأنها لم ترضَ أن ترجع عن الإسلام إلى دين آبائها . وكان المسلمون من غير الموالى يضربون وتوجه اليهم أشد صور المهانة .

ولم يسلم الرسول ﷺ ، مع منع بنى هاشم وبنى عبد المطلب له ، من هذه الاساءات ، فقد كانت أم جميل زوج ابى لهب تلقى النجس امام بيته فيكتفى النبى ﷺ بأن يزيله وكان ابو جهل يلقى عليه اثناء صلواته رحم شاه مذبوحه ضحية للاصنام فيحتمل الأذى ويذهب إلى ابنته فاطمة لتعيد إليه نظافته وطهارته . هذا إلى جانب ما كان المسلمون يسمعون من لغو القول وهجر الكلام حيثما ذهبوا . واستمر الأمر على ذلك طويلا ، فلم يزدادوا الا حرصا على دينهم وابتهاجا بالأذى والتضحية فى سبيل عقيدتهم وايمانهم .

وقام الشعراء بسب الرسول ﷺ ومن معه ، وكان الوثنيون يأتمرون به حتى حاول رجل قتله عند الكعبة . وكان منزله يرجم ، وكان اهله واتباعه يهددون . . . .

ورغم ذلك وغيره ، كثر اتباع الرسول ﷺ . وتضاعف ايذاء الوثنيين لهم ، حتى اضطر كثيرَ منهم إلى الهجرة بدينهم الجديد خارج مكة ومنهم الكثيرون الذين هاجروا إلى الحبشة .

وحتى فى الحبشة ، لم يسلم المسلمون من مكائد الوثنيين الذين تتبعوهم إلى هناك ليوقعوا بينهم وبين ملك الحبشة الذى استظلهم بحمايته ولكن المؤامرة فشلت .

وبدأ الرسول ﷺ توسيع دائرة مستمعى رسالته ، عسى أن يؤمن بها قبائل العرب فيقوى الإسلام بكثرة اتباعه ويتمكن من الانتشار بين البشر جميعا . . .

وكانت مكة ملتقى الحجاج الوثنيين من كل العرب ، وفى كعبتها حشد كبير من اصنامهم وآلهتهم .

وانتظر الرسول ﷺ مجىء قبائل العرب لاداء الحج فيعرض عليهم القرآن . . . .

وهنا خشى وثنيو مكة من انتشار دعوته بين العرب ، واجتمع قادتهم يضعون خطة تمنع قبائل العرب من الاستماع اليه .

واقترح بعضهم أن يقولوا عنه إنه كاهن ، فرد الوليد هذا الرأى أن ليس ما يقوله محمد ﷺ بزمزمة الكاهن ولا بسجعه . واقترح آخرون أن يزعموا أن محمدا ﷺ

مجنون ، فرد الوليد هذا الرأى بانه لا تبدو عليه لهذا الزعم ظاهرة . واقترح بعضهم أن يتهموا الرسول ﷺ بالسحر ، فرد الوليد بأن محمدا لا ينفث فى العقد ولا يأتى من عمل السحرة شيئا . وبعد حوار اقترح الوليد عليهم أن يقولوا للحاج من العرب إن هذا الرجل ساحر البيان وان ما يقوله سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء واخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . وكان لهم عند العرب من الحجة على قولهم هذا ما اصابهم فى مكة من فرقة وتخاذل وتناحر ، بعد أن كانت مكة مضرب المثل فى العصبية وفى قوة الرابطة .

وهذا هو ما اتفقوا عليه ، وقاموا فعلا بتنفيذه .

ولعلك تجد أن هذا الاتهام هو نفسه الذى اتهمت به المسيحية فى نشأتها الأولى فى بلاد الرومان .

وهذا اتهام يتفق مع واقع كل من المسيحية والإسلام فى نشأتها الأولى ، حيث يتجه الرفيق أو الابن أو الزوجة إلى دين سماوى بينما رب الأسرة ثابت على وثنيته . . . وهنا يتفكك الترابط الأسرى . . . فالترابط القومى . . .

ولكن ذلك لم يحل دون وصول رسالة القرآن إلى الكثيرين . . . فكثر الأتباع .

وحصر الوثنيون الرسول ﷺ وعائلته واصحابه ثلاث سنوات فى شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة ، وقاطعوهم اقتصاديا ، ومنعوا أى غذاء يصل اليهم ، ومنعوا مصاهرتهم والاتصال بهم . . .

وعانى الرسول ﷺ وأصحابه فى مدة الحصار هذه الكثير من الآلام إلى أن رق لاحوالهم بعض الوثنيين من اقاربهم وعملوا على فك هذا الحصار . . . .

وبعد أن فقد حماية عمه وعطف زوجته ومساندتها وذلك بموتها ، تضاعفت عليه صنوف الإيذاء من الوثنيين ، وكان من ايسر ذلك أن اعترضه سفيه من سفهائهم فرمى على رأسه ترابا . . . فدخل إلى بيته والتراب على رأسه فقامت إليه فاطمة ابنته وجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى .

ولما كثرت مساءات قريش للرسول ﷺ ، خرج وحده قاصدا بلدة الطائف لعله يجد عندهم من ينصره أو يتبع دينه ولكنه عاد من عندهم بشر جواب . فرجاهم

الا يذكروا من استنصاره بهم شيئا حتى لا يشمت به قومه . ولم يسمعوا له بل اغروا به سفهاءهم يسبونه ويصيحون به . ففر منهم إلى حائط ، فرجع السفهاء عنه . وجلس إلى ظل شجرة ، فلما اطمأن رفع عليه السلام رأسه إلى السماء ضارعا فى شكاية والم وقال : (اللهم اليك اشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أو إلى عدو ملكته أمرى . إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك اوسع لى . اعوذ بنور وجهك الذى اشرقت له الظلمات وصلح عليه امر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك) .

ولما عرفت قريش هذا الأمر ، ازدادت للرسول ﷺ ايذاء ، فلم يصرفه ذلك عن الاستمرار فى دعوة الناس والقبائل إلى رسالة التوحيد .

ومن القبائل من لم يستمع اليه وردوه ردا غير جميل ، بل رده بنو حنيفة ردا قبيحا . اما قبيلة بنو عامر فطمعوا اذا هو انتصر بهم أن يكون لهم الأمر من بعده . فلما قال لهم : ان الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء لووا عنه وجوهم وردوه كما رده غيرهم .

ولما جهر الرسول ﷺ بما ناله من تكريم ربه واسرائه إلى السموات العلا ، واجتماعه بالرسل وبالأنبياء ، ورؤيته لعزرائيل ولمخلوقات لم يسمع الإنسان بمثلها . . . . ثم ارتفاعه إلى قمة سدرة المنتهى

ثم كان فى حضرة العرش وكان منه قاب قوسين أو أدنى ، وعودته إلى بيت المقدس وعودته منه إلى مكة على الدابة المجنحة . . . . وكل هذا فى ليلة واحدة .

لما جهر الرسول ﷺ بذلك رغم نصيحة ابنة عمه ابى طالب بعدم الجهر بالإسراء حتى لا يكذبوه ويؤذوه ، ارتد كثير من المسلمين عن دينهم وازدادت مساءات قريش له ولاتباعه .

---

* محمد حسنين هيكل ـ حياة محمد .

ومضت ثلاث عشرة سنة منذ بدأ الرسول ﷺ دعوته إلى أن دعاه أهل يثرب ليكون بينهم بعد أن فشا فيهم الإسلام .

أى أن الرسول ﷺ واتباعه ظلوا قلة مستضعفة ، مضطهدة لما ينيف على ثلاثة عشر عاما قضوها بين وثنيى مكة .

فهل يترك الوثنيون الرسول ﷺ وشأنه يقبع فى يثرب ، أو هل يتركهم محمد وشأنهم .

لقد لاحظنا فى الصراع بين أتباع المسيحية وأتباع الوثنية أن الهدف عند أى طرف فى الصراع هو القضاء على عقيدة الطرف الآخر بكل السبل بما فيها القتل الجماعى والتعذيب والتحقير والتضييق فى مباشرة الحقوق الاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية .

وكما سبق البيان أن الإمبراطور الوثنى قد سخر كل إمكانات الدولة لفرض عقيدته ، وهكذا فعل الإمبراطور المسيحى وهكذا فعلت قيادات الوثنية العربية مع المسلمين .

وجزيرة العرب تعتبر وطنا لكل قبائل العرب ، وكانت كلها تدين بقداسة الكعبة فى مكة (الوثنية) والرسول ﷺ اتجه فى صلاته إلى بيت المقدس نازعا من قبلة العرب مكانتها . . . ثم لما اتجه بصلاته إلى مكة ، اتجه اليها باعتبارها خالية من الوثنية والأصنام وانها بيت إبراهيم رائد التوحيد . . .

وها هو الرسول ﷺ يعمل على نزع مكانة القيادات الوثنية الدينية فى مكة من موقعها .

وكان حتما على الرسول ﷺ أن ينشر رسالته بين كل العرب ، فهذا هو طبيعة واجبه الإلهى والمنطقى .

ولو اقتصر الرسول ﷺ على إسلام أهل يثرب ، الذين احبوا قيادته لمدينتهم سياسيا واقتصاديا ودينيا ، لما خرج عن كونه ساعيا إلى السلطة والمال .

ولو اكتفى الرسول ﷺ بجعل يثرب مقره المنيع ، وراح هو أو صحابته يدعون القبائل إلى الإسلام بالطرق السلمية ، كما حدث كثيرا ، لما سكتت قريش عن تأليب القبائل عليه لقتاله ، حتى تظل الأوضاع كما هى دون أى تغيير .

وحدثت غزوة بدر بين قلة مستضعفة من المسلمين وبين صناديد قريش حيث نصر الله سبحانه وتعالى هذه القلة المستضعفة ، ومنذ هذه المعركة دأب القرشيون على مهاجمة الإسلام بهدف القضاء عليه وعلى اتباعه كما يتبين ذلك من مهاجمتهم للمسلمين فى غزوتى أُحد والأحزاب .

وبلغ الرسول ﷺ أن بنى أسد يحرضون قومهم وغيرهم على مهاجمة المدينة ليغنموا منها ـ وذلك بعد شهرين من أحد ـ فأرسل الرسول ﷺ سرية من ١٥٠ هاجمتهم قبل أن يستعدوا للحرب وغنمت منهم .

وكان محمد ﷺ يرسل بعض رجاله إلى القبائل لتعريفهم بالإسلام وارسل محمد ﷺ ستة من اتباعه إلى قبيلة مجاورة وحدثت الخيانة وقتل ثلاثة واسر اثنان باعوهم إلى أهل مكة .

ومن ضمن من بيعوا : زيد بن الدثنة لصفوان بن امية الذى اشتراه ليقتله بأبيه امية بن خلف ، فدفع به إلى مولاه نسطاسى ليقتله . فلما قدم سأله ابو سفيان : انشدك الله يازيد ، اتحب أن محمدا الآن عندنا فى مكانك تضرب عنقه وأنت فى اهلك ؟

قال زيد : والله ما احب أن محمدا الا فى مكانه الذى هو فيه لا تصيبه شوكة تؤذيه وانا جالس فى اهلى فعجب ابو سفيان وقال :

ما رأيت من الناس احدا يحبه اصحابه كما يحب اصحاب محمد محمدا ، وقتل نسطاسى زيدا .

أما حبيب فقد خرجوا به ليصلبوه ، فقال لهم : إن رأيتم أن تدعونى حتى اركع ركعتين فافعلوا . فاجازوه ، فركع ركعتين اتمهما واحسنهما ، ثم اقبل على القوم وقال : اما والله لولا أن تظنوا انى انما طولت جزعا من القتل لاستكثرت الصلاة ، ورفعوه إلى خشبة ، فلما اوثقوه اليها نظر اليهم بعينى مغضبة وصاح : اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم احدا . فاخذت القوم رجفة من صيحته ، واستلقوا إلى جنوبهم حذر أن تصيبهم لعنته ، ثم قتلوه .

اما الثالث فقد قتلوه رميا بالحجارة قبل الوصول إلى مكة عندما برز لمقاتلتهم بعد أن فك قيود اسره ــ (يوم الرجيع) .

وطلب إبن براء عددا من المسلمين لأهل نجد ليدعوهم للدين فوافق الرسول ﷺ علي ارسال اربعين رجلا بعد أن تعهد ابو براء بتأمينهم ، ثم هوجموا وهم فى الطريق وقتلوا (يوم بئر معونة) .

وعن إبن عباس : (والله أن كان المشركون ليضربون احدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر على أن يستوى جالسا من شدة الضرب الذى نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة ، وحتى يقولوا له : اللات والعزى الهك من دون الله فيقول نعم . . . الخ) .

البـــاب الثانـــى

صراعات اتباع الاديان السماوية مع بعضها

تصارع أتباع الرسالات الثلاث مع أتباع الوثنية فى أوربا وبلاد حوض البحر الأبيض المتوسط وشرقى آسيا حتى تغلبت كل من المسيحية والإسلام عليها ، كما ظلت اليهودية تقاوم فى هذه الصراعات لتستمر وفى نطاق قبيلة العبرانيين بصفة اساسية .

وبهذا حلت الرسالات السماوية فى هذه البلاد محل العقائد الفطرية أو غير السماوية .

وانتهت إلى الأبد العقائد الدينية عن الإله رع وآمون وبتاح وايزيس واوزوريس ، وحورس فى مصر ، والعقائد الزرادشتية فى فارس ، وعقائد الحيثيين والسومريين والفينيقيين ، كما تلاشت عقائد الإغريق والرومان عن آلهة الأوليب والإله جوبتر وغيرها .

واصبح ذكر أسماء أصنام العرب مثل هبل واللات والعزى من اختصاص الخاصة من الفقهاء والمؤرخين .

وكان المتوقع ، منطقيا ، أن تهدأ الصراعات الدينية بعد تغلب الرسالات السماوية على الوثنية . . . ولكن المنطق لا يتفق عادة ، مع مسار التاريخ . . وذلك أن كلا من أتباع الرسالات السماوية الثلاث وجدت الوثنية والكفر فى اتباع الرسالات السماوية الأخرى ومن ثم حل صراعهم والتغلب عليهم مثلما فعلوا ذلك من قبل مع أتباع الوثنية .

فاتباع اليهودية كفّروا كلا من اتباع المسيحية والإسلام لأنهم آمنوا أن دينهم وحده الحق ، ودين غيرهم باطل .

واتباع المسيحية اعتبروا اليهود كفرة ، لأنهم كذبوا المسيح الذى يتفق وجوده مع ما جاء فى التوراه . . .

ثم كفّر اتباع المسيحية المسلمين الذين آمنوا بنبوة محمد ﷺ وبرسالته بدلا من أن يتوقف ايمانهم عند المسيح ورسالته .

وكفّر المسلمون المسيحيين واليهود لأنهم لم يؤمنوا بآخر رسول وبآخر رسالة .

وليس هناك ما يستحق الذكر عن محاولة اليهود لتهويد غيرهم ، وذلك للظروف القبلية والعنصرية التى يعيش فيها اليهود منذ بداية نشأتهم الدينية وحتى الآن .

ولكن كان الصراع بين اتباع الديانات السماوية صراعا شرسا واستعملت فى هذا الصراع أحدث الأسلحة المعروفة فى كل عصور الصراع وسأعرض لك فى الفصول التالية نماذج عن الصراعات التى نشبت بين كل من أتباع المسيحية واتباع اليهودية وبين اتباع الإسلام واليهودية . . . واتباع المسيحية واتباع الإسلام .

(وقالتِ اليهودُ ليْست النصارى على شىءٍ وقالتِ النصارى ليْستِ اليهودُ على شىءٍ وهُمْ يتلُونَ الكتابَ كذلِكَ قالَ الذين لا يعلمونَ مثلَ قوْلِهِمْ فالله يحكُم بَينهُمْ يومَ القيامةِ فيما كانوا فيهِ يختلفونَ)

البقرة : ١١٣

الفصــل الأول

صراعات اتباع اليهودية وأتباع المسيحية

جاء السيد المسيح داعيا اليهود إلى الحق وعبادة الله وحده وإلى العناية بالحياة الروحية والزهد والقنـاعة والأخـلاق الفاضلة ، وأن الله ليس عنـده شعب مختار وشعب غير مختار كما اعتقد اليهود ، بل كل الناس عبيد له وسواسية لا فـرق بين إنسان وآخر الا بالتقوى والعمل الصالح .

لما جاء السيد المسيح بذلك أثار سخطهم وغضبهم فسعوا به إلى حاكم الروم (بيلاطس) فى بيت المقدس واغروه بقتل المسيح . ولكن الحاكم لم يأبه لوشايتهم وسعايتهم ضده ولم يرغب فى قتله ، لأنه لم يخف منه أن يستولى على الملك ويزيل سلطان الروم ، ولم ير فى دعوة المسيح الا اصلاحا خلقيا ودينيا لا يمس السياسة أو الحكومة من قريب أو بعيد، ولكن اليهود لم يقتنعوا ولم ييأسوا ولم يسكتوا عن تدبير المؤامرات فكذبوا على عيسى ونسبوا اليه ما يثير غضب (بيلاطس) عليه فاصدر امره بالقبض عليه وحكم باعدامه صلبا .

ولقد ظلّ المسيح زمنا طويلا لا يرى فى نفسه الا أنه أحد اليهود ، فلا يخطب الا فيهم ، ولما ارسل اتباعه لينشروا انجيله لم يرسلهم الا لمدن اليهود (إلى طريق امم لا تمضوا ، وإلى مدينة السامريين لا تدخلوا) ومن ثم كان تردد الرسل بعد موته

فى أن يحملوا الأنباء الطيبة إلى عالم (الكفرة) . . . . وقال (لم أرسل الا إلى خراف بنى اسرائيل الضالة) وقال للابرص الذى شفاه من علته (اذهب وأر نفسك للكاهن وقدم القربان الذى أمر به موسى) (على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون ، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، لكن حسب اعمالهم لا تعملوا) . . . .

وقال عليه السلام (لا تظنوا انى جئت لانقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل) .

وجاءت المسيحية بالأمر بالاستعداد للدخول فى الملكوت عن طريق الحياة العادلة ، والرأفة والبساطة . . . وزادت المسيحية صرامة فى مسائل الجنس والطلاق ، ولكنها كانت اكثر استعدادا للعفو من اليهودية ، كما خففت الشروط الموضوعة على الطعام والطهارة ، وحذفت بعض اوقات الصوم ، واعادت الدين إلى الصلاح والاستقامة بدلا من المراسم والطقوس .

وقد قاوم اليهود على اختلاف شيعتهم هذه (الاصلاحات) ــ وكان الذى اغضبهم بنوع خاص ما ادعاه المسيح لنفسه من حق العفو عن الخطايا والتحدث باسم الإله .

وقد هالهم أن يروه يختلط بعمال رومة المبغضين ، وبالنساء ذوات السمعة السيئة . وكان كهنة الهيكل واعضاء السنهدرين يرقبون نشاطه بعين الريبة ويرون فى هذا النشاط ما كان يراه هيرودوس فى نشاط يوحنا وهو أنه ستار يخفى تحته ثورة سياسية ، وكانوا يخشون أن يتهمهم الحاكم الرومانى بأنهم يتحللون مما هو مفروض عليهم من تبعات ليحافظوا على النظام الاجتماعى وقد اوجسوا فى نفوسهم خيفة من وعد المسيح بتدمير الهيكل . ولم يكونوا واثقين من أن هذا التدمير انما هو تدمير مجازى لا يقصد به حرفيته .

وحلت القطيعة الأخيرة بين عيسى عليه السلام وبينهم حين بدأ يشيع بين الناس أنه هو المسيح المنتظر .

واشتعل العداء بين اليهود والمسيح خاصة عندما وجدوا اتباعه يزدادون وخشوا أن تؤول الحكومة الرومانية هذه الحركة على انها حركة مضادة للحكم الرومانى .

وبالاضافة إلى عوامل العداء الأخرى ، كنقد المسيح لكثير من تصرفات الكهنة وشيوع الاعتقاد أنه المسيح المنتظر ، قاد اليهود عملية هلاكه والوقيعة بينه وبين الحاكم الرومانى . . .

وهذا هو أول صراع بين أتباع اليهودية وأتباع المسيحية الناشئة .

وانتشر رسل المسيحية ، بعد نهاية حياة المسيح ، إلى مختلف البلاد يبشرون بالدين الجديد ، ولما كثر عدد المهتدين ، وكثر ما تحت ايدى الرسل من اموال ، عينوا سبعة من شمامسة الكهنة للاشراف على شئون هذه الجماعة. وظل رؤساء اليهود فترة من الزمن لا يعارضون قيام هذه الشيعة لصغرها وانتفاء الأذى من وجودها ، فلما تضاعف عدد (الناصريين) (النصارى) فى بضع سنين قلائل وقفز عددهم من ١٢٠ إلى ٨٠٠٠ استولى الرعب على قلوب الكهنة . فقبض على بطرس وغيره وجىء بهم امام السنهدرين (اليهودى) لمحاكمتهم (باعتبارهم شيعة يهودية منحرفة) . وكان السنهدرين يريد أن يحكم باعدامهم ، ولكن فريسيا يدعى عمالائيل — اشار على المجلس أن يؤجل الحكم ، ثم وفق بين الرأيين بأن جلد المقبوض عليهم واطلق سراحهم . وحدث بعد ذلك بزمن قليل (٣٠ م) أن استدعى أحد الشمامسة الذين عينوا للاشراف على جماعة المهتدين واسمه اصطفانوس للمثول أمام السنهدرين واتهم بانه يتكلم (بكلام تجديف على موسى وعلى الله) — فدافع الرجل عن نفسه دفاعا قويا غير مبال بما يتهدده من اخطار .

(يا قساة القلوب وغير المختونين بالقلوب والآذان ، انتم دائما تقاومون الروح القدس ، كما كان آباؤكم كذلك ، انتم أى الأنبياء لم يضطهده آباؤكم ، وقد قتلوا الذين سبقوا فانبأوا بمجىء البار الذى انتم الآن صرتم مسلميه وقاتليه ، الذين اخذتم الناموس بترتيب الملائكة ولم تحفظوه) .

واثار هذا الدفاع القوى غضب السنهدرين فامر بأن يجر الرجل إلى خارج المدينة ويرجم بالحجارة . وكان شاب فارسى يدعى شاول يساعد على هذا الهجوم وبعد ذلك صار هذا الشاب ينتقل من بيت إلى بيت فى اورشليم ويقبض على اتباع (الكنيسة) ويزجهم فى السجن .

وفر اليهود المهتدون ذوو الأسماء والثقافة اليونانية الذين يتزعمهم اصطفانوس إلى السامرة وأنشأوا فيها جماعات مسيحية قوية اما معظم الرسل الذين يبدو أنهم

سلموا من الاضطهاد لأنهم ظلوا يراعون الناموس ، فقد بقوا فى اورشليم مع المسيحيين اليهود . وبينما كان بطرس يحمل الانجيل إلى البلاد اليهودية صار يعقوب (العادل) أخو (الرب) رئيس الجماعة المقيمة فى اورشليم بعد أن قل عددها ونقصت مواردها . وكان يعقوب يبشر بالناموس بكل ما فيه من صرامة ، ولم يكن يقل عن الأسينيين تقشفا وزهدا فلم يكن يأكل اللحم ، أو يشرب الخمر ، ولم يكن له الا ثوب واحد ، ولم يقص شعره أو يحلق لحيته قط . وظل المسيحيون تحت قيادته سبعة اعوام لا يمسهم اذى ، ثم حدث حوالى عام ٤١ أن قتل رجل يدعى يعقوب بن زبيدى ، فقبض على بطرس ولكنه فر . ثم قتل يعقوب العادل فى عام ٦٢ وبعد اربعة اعوام من ذلك الوقت ثار اليهود على روما ــ وايقن المسيحيون المقيمون فى اورشليم أن (نهاية العالم) قد دنت ، فلم يأبهوا بالشئون السياسية ، وخرجوا من المدينة واقاموا فى بلاد اليونان الضالعة مع روما والقائمة على الضفة البعيدة من نهر الأردن . وافترقت اليهودية والمسيحية من تلك الساعة . فاتهم اليهود المسيحيين بالخيانة وخور العزيمة ، ورحب المسيحيون بتدمير الهيكل على يد نبطس تحقيقا لنبوءة المسيح ، واتقدت نار الحقد فى اتباع كلا الدينين .

واستمر اضطهاد اليهود للمسيحية بعد السيد المسيح بنفس القوة الذى كان عليه الاضطهاد وقت حياته ، وذلك أن اليهود اعتبروا المسيحية شيعة منشقة ومنحرفة عن اليهودية ولم ينظروا إلى المسيح الا على أنه ثائر على بعض تعاليم اليهودية .

وكان بولس يهوديا وشديدا فى اضطهاد المسيحيين الا أنه حدث له تحول جذرى فى نفسه وفى فكره جعله من أئمة المسيحية ، ومن أشد المناصرين لها والمضطهدين لليهود انفسهم ــ واصدر حاكم دمشق ، بايعاز من اليهود الذين ساءهم تغير بولس عليهم ، أمرا بالقبض عليه ، فما كان من اصدقاؤه الجدد الا أن انزلوه فى سلة من فوق اسوار المدينة ــ وظل يدعو للمسيحية فى بلاد كثيرة وبالرغم من ذلك حاول اليهود أن يقتلوه . . . وبجهده التبشيرى مع زميله برنابا هديا كثيرا من الناس للمسيحية ، ولم تلبث انطاكيا أن فاقت غيرها من المدن فى عدد المسيحيين بها ، وفيها اطلق الوثنيون على (المؤمنين) أو (التلاميذ) أو (القديسين) كما كانوا يسمون انفسهم اسم (الكريستانى) أى اتباع المسيح أى الإنسان الممسوح . وهنا ايضا انضمت (الأمم) أى غير اليهود إلى الدين الجديد .

ولقى بولس وزميله برنابا الكثير من النجاح فى ضم الأتباع إلى الدين الجديد وابحر الرجلان إلى قبرص ، ولقيا نجاحا مشجعا بين اليهود الكثيرين المقيمين بتلك الجزيرة . ثم ركبا السفينة من يافوس إلى برجانى ممفيليه واجتازا طرقا جبلية وعرة تعرضا فيها للخطر حتى وصلا إلى انطاكيا فى بسيديا .

واستمع اليهما الكنيس (اليهودى) ورحب بهما فلمابدءايعظان الأمم (أى غير اليهود) كما يعظان اليهود غضب عليهما اليهودالمتمسكـون بدينهم وحملوا مـوظفى البلديه علىَ اخراج المبشرين من المدينة ونشأت هذه الصعاب فى بلاد أخرى مع نفس المبشرين حيث رجم بولس فى لسترا بالحجارة وجر على وجهه إلى خارج المدينة ، وترك فى العراء ظنا من اعدائه أنه مات .

وسافر بولس إلى كثير من البلاد يبشر بـالإنجيل ، حيث لقى التـرحيب آنا والاضطهاد والطرد آنا آخر ، وعندما انتقل إلى سالونيك ، دخل المجمع وظل ثلاثة أسبات يخطب فى اليهود ، فآمن بدعوتـه عدد قليـل منهم ، واسسوا فيهـا كنيسة لهم . . . ولكن أهل سالونيك جاءوا يتهمونه بأنه عدو لليهودية فاقلع منها إلى اثينة على ظهر سفينة وحيدا كسير القلب كاسف البال .

وترامى اليه أن (جماعة المختتنين) قد نقضوا ، على ما يبدو ، اتفاق أورشليم وذهبوا إلى غلاطية وطلبوا إلى جميع المهتدين أن يطيعوا الشريعة اليهـودية اطـاعة كاملة ، فما كان منه الا أن كتب إلى اهل غلاطية رسالة تفيض بالغضب ، انفصل بها نهائيا عن المسيحيين المتهودين ، بل واعلن فيها أن الناس لا ينجون لاستمساكهم بشريعة موسى بل بإيمانهم القوى الفعال بالمسيح المنقذ ابن الله . . . . وكان يرجو أن لا يستريح حتى تسمع كل ولاية من ولايات الأمبراطورية باخبار المسيح الذى قام من بين الموتى وبما وعد به اتباعه المخلصين .

ورآه بعض اليهود فى الهيكل فرفعوا عقيرتهم قائلين انه هو الرجل الذى يعلم الجميع فى كل مكان ضد الشعب والناموس . وقبض عليه نفر من الغوغاء ، وجروه خارج الهيكل ، وكادوا أن يقتلوه لولا أن انقـذته كتيبـه رومانيـة ــ واعتقلوه حتى لا يقتله اليهود .

واتهمه رئيس الكهنة وبعض الشيوخ بانه مفسد مهيج للفتنه بين جميع اليهود الذين بالمسكونة ــ ولكنه اعلن أنه يؤمن بكل ما هو مكتوب فى الناموس .

وهكذا انفصلت المسيحية من قلب اليهودية بعد صراعات دامت عشرات السنين .

ولقد شغلت المسيحية نفسها لعدة قرون بصراعاتها مع الوثنيين ودون أن تنقل هذه الصراعات إلى اليهودية بشكل حاسم .

ولكن لما تم تغلب المسيحية نهائيا على الوثنية ، واصبحت اليهودية جيوبا صغيرة فى محيط المسيحية المتسع ، نشطت الصراعات بين اتباع الدينين .

ونلاحظ أن يهود العصور الوسطى ، كان لهم شريعة ولكن لم تكن لهم دولة ومن ثم كانوا اقلية ضئيلة فى بلدان اوربا وافريقيا وآسيا المسيحية .

لم تكن لليهود دولة فى العصور الوسطى حيث ظلت اورشليم إلى عام ٦١٤ مدينة مسيحية ، وإلى عام ٦٢٩ فارسية ، وإلى عام ٦٣٧ مسيحية مرة أخرى ، ثم ظلت من ذلك الوقت إلى عام ١٠٩٩ حاضرة اسلامية وفى ذلك العام الأخير حاصرها الصليبيون ، وانضم اليهود إلى المسلمين فى الدفاع عنها ، فلما سقطت فى ايدى الصليبيين ، سيق من بقى فيها حيا من اليهود إلى احدى بيعهم وأحرقوا عن آخرهم ، ولما إستولى صلاح الدين على المدينة عام ١١٨٧ اعقب ذلك ازدياد سريع فى عدد اليهود ، واستقبل السلطان العادل أخو صلاح الدين ثلثمائة من أحبارهم الذين فروا من انجلترا وفرنسا عام ١٢١١ استقبالا حسنا .

وكان فى غالة تجار يهود من عهد يوليوس قيصر ، وقبل أن يحل عام ٦٠٠ م وجدت جاليات يهودية فى جميع المدن الكبرى فى غالة ، واضطهدهم الملوك المروفنجيون بوحشية ، وأمرهم كلبريك أن يعتنقوا الدين المسيحى على بكرة ابيهم والا فقأ اعينهم (٥٨١) .

وكان يهود اسبانيا يلقبون انفسهم سفرديم ، ولما اعتنق الملك ريكارد الدين المسيحى ، انضمت حكومة القوط الغربيين إلى رجال الدين الأقوياء اتباع الكنيسة الاسبانية فى مضايقة اليهود وتنغيص حياتهم عليهم ، فحرمت عليهم المناصب العامة ، ومنعوا من الزواج بمسيحيات أو اقتناء ارقاء مسيحيين وأمر الملك سيزبوث

جميع اليهود أن يعتنقوا المسيحية أو أن يخرجوا من البلاد (٦١٣) ، والغى الملك الذى خلفه هذا الأمر ، ولكن مجلس طليطلة الذى عقد عام ٦٣٣ اصدر قرارا ينص **على ان اليهود الذين أرغموا على المسيحية ثم عادوا إلى الدين اليهودى يجب أن يفصلوا عن ابنائهم وأن يباعوا ارقاء** . وحرم الملك اجيكا على اليهود امتلاك الأراضى كما حرم كل عمل مالى أو تجارى بين أى مسيحى ويهودى (٦٩٣) . وكانت النتيجة أن ساعد اليهود العرب حين جاءوا اسبانيا فاتحين فى كل خطوة من خطوات الفتح .

وحدث فى عام ١١٣٠ أن أنقسمت هيئة الكرادلة شيعتين، اختارت احداهما لكرسى البابوية انوسنت الثانى واختارت الثانية انكليتس الثانى ، ولكنه كان له جد يهودى اعتنق الدين المسيحى ، وكان معارضوه يسمونه (الجد اليهودى) وبعث القديس برنار ، وهو رجل كان فى غير هذا الظرف صديقا لليهود برسالة إلى الإمبراطور لوثير الثانى يقول إن (مما يجلل المسيح بالعار أن يجلس رجل من أصل يهودى على كرسى القديس بطرس) ـ وقد نسى قوله هذا اصل بطرس نفسه ـ وايدت كثرة رجال الدين ، وأيد ملوك أوربا كلهم الا واحد منهم ، انوسنت الثانى ، وأخذت الجماهير فى اوربا تسلى نفسها بتوجيه المثالب لانكليتس ، واتهامه بانه يضاجع المحرمات عليه وينهب الكنائس المسيحية ليغنى باموالها اصدقاؤه اليهود .

وفى عام ١٢١٥ قرر مجلس لاتران أن يلبس غير المسحيين فى البلاد المسيحية شارة خاصة تميزهم عن غيرهم .

وكان الغرض من محكمة التفتيش أن ترهب جميع المسيحيين المحدثين والقدامى على السواء ليتمسكوا بالسنة الطاهرة على الأقل ، على أمل أن يقضى على الهرطقة فى مهدها وأن الجيل الثانى أو الثالث من اليهود الذين أرغموا على اعتناق المسيحية سوف ينسون يهودية اسلافهم . ولم تكن هناك نية للسماح لليهود (المكرهين على المسيحية) أن يرحلوا عن اسبانيا فلما حاولوا الهجرة حرمها عليهم فرديناند ومحكمة التفتيش ، ولكن ماذا كان مصير اليهود الذين لم يتنصروا ؟ لقد ظل حوالى مائتين وخمسة وثلاثين الفا منهم فى اسبانيا المسيحية . **فكيف السبيل إلى تحقيق الوحدة الدينية للدولة** ، اذا سمح لهؤلاء أن يمارسوا شعائر عقيدتهم وأن يصرحوا بها ؟ ورأى توركيمادا استحالة ذلك ، واوصى باكراهم على التنصر أو نفيهم . فتردد

فرديناند ، ذلك انه كان يعرف القيمة الاقتصادية لقدرة العبرانيين فى التجارة والمالية . ولكنه أخبر أن اليهود عنفوا المتنصرين منهم ، وحاولوا أن يعيدوهم إلى اليهودية ، بشرط واحد هو أن يكون ذلك سرا . واتهم طبيبه رياس التس ، وهو يهودى تنصر ، بأنه علق فى رقبته كرة ذهبية تحتوى على صورة على هيئة فيها تنجيس للصليب ويبدو أن التهمة كانت غير صحيحة ولكن هذا الطبيب أحرق (١٤٨٨) . وزيفت رسائل نصح فيها زعيم يهودى فى القسطنطينية ، رئيس الجماعة اليهودية فى اسبانيا بأن يدس السم للمسيحيين كلما استطاع إلى ذلك سبيلا وقبض على متنصر بتهمة وجود رقاق مقدسة فى جعبته ، وعذب مرارا فتكرارا حتى وقع على عبارة مفادها أن ستة من المتنصرين ومثلهم من اليهود قتلوا طفلا مسيحيا ، ليستعملوا قلبه فى شعيرة سحرية ، دبرت لتؤدى إلى هلاك جميع المسيحيين والقضاء الكامل على المسيحيين . وكانت اعترافات الرجل المعذب يناقض احدها الآخر ولم يبلغ عن فقد طفل من الأطفال، ومع ذلك احرق اربعة من اليهود ، بعد أن انتزع لحم اثنين منهم بوساطة كلابه متوهجة ، وربما اثرت هذه الاتهامات وامثالها فى نفس فرديناند . ومهما يكن من شىء فقد مهدت لرأى عام يطالب بإجلاء اليهود غير المتنصرين عن إسبانيا .

وفى ٢٠ مارس ١٤٩٢ ــ وقع فرديناند وابزابلا مرسوم نفى اليهود ومؤداه أن جميع اليهود غير المتنصرين ، ايا كانت أعمارهم أو احوالهم ، عليهم أن يتركوا اسبانيا فى موعد غايته ٢١ يولية ، ولا يسمح لهم بالعودة ، ومن يفعل عقوبته الاعدام ، ولهم أن يتخلصوا من متاعهم فى هذه الفترة القصيرة باى ثمن يحصلون عليه ولهم أن يأخذوا معهم المتاع المنقول وصكوك المعاملات دون النقد من ذهب وفضة ــ ولم يقم اتهام على اليهود سوى رغبتهم فى اغراء المتنصرين بالعودة إلى اليهودية . . . وهكذا انتقلت اموال اليهود إلى ايدى المسيحيين بجزء ضئيل من قيمتها فكانت الدار تباع فى مقابل حمار والكرمة فى مقابل قطعة قماش ، واحرق بعض اليهود فى نوبة يأس منازلهم ، وتنازل بعضهم الآخر عنها للمجلس البلدى . ووضع المسيحيون ايديهم على المعابد وحولوها إلى كنائس وتحولت مدافن اليهود إلى مراع . وذاب فى شهور قليلة ، الجانب الأكبر من ثروات اليهود ، وترك اسبانيا اكثر من مائة الف فى موكب خروج طويل كئيب .

وقبل رحيلهم زوجوا اطفالهم فوق الثانية عشرة وساعد الصغار الكبار واعان الأغنياء الفقراء . وسار الحجيج على متون الخيل أو الحمير وفى العربات أو على الأقدام . وناشد المسيحيون الطيبون ــ من رجال دين ودنيا ــ المنفيين عند كل منعطف أن يعتنقوا المسيحية ــ فقابل الربانيون ذلك بأن اكدوا لمشيعيهم . بأن الله سيهديهم إلى أرض الميعاد ، وذلك بأن يفتح لهم معبرا فى البحر كما فعل لآبائهم فى القديم . وانتظر المهاجرون الذين اجتمعوا فى قادس يملؤهم الأمل بأن يتفرق الماء ويسمح لهم بالعبور إلى افريقيا دون أن تبتل اقدامهم . فلما انجاب عنهم الوهم دفعوا الأجور الباهظة للنقل وفرقت العواصف اسطولهم الذى كان يتألف من خمس وعشرين سفينة ، ووردت ست عشرة منها إلى اسبانيا حيث آثر الكثير من اليهود اليائسين اعتناق المسيحية على دوار البحر . وتحطمت السفينة بخمسين من اليهود بالقرب من صقلية ، فسجنوا عامين ثم بيعوا رقيقا .

وفزع جون الثانى ملك البرتغال ، من هذا السيل المتدفق من اليهود الذين بلغوا ثمانين ألفا تقريبا ، فمنحهم ثمانية أشهر ، عليهم أن يرحلوا بعدها . وتفشى بينهم الطاعون . وانتشر منهم إلى المسيحيين ، الذين طالبوا باجلائهم فورا ، فيسّر جون خروج اليهود المهاجرين بأن هيأ لهم سفنا باجور زهيدة ، بيد أن الذين اعتصموا منهم بهذه السفن ، تعرضوا للسرقة والاغتصاب ، وألقى بكثيرين على شواطىء غير مأهولة وتركوا للموت جوعا أو لسبيهم واسترقاقهم .

وهام مائتان وخمسون يهوديا على ظهر سفينة فى البحر اربعة أشهر . فرفض ميناء بعد ميناء نزولهم ، لأن الطاعون لم يزل متفشيا بينهم واعتقل قرصان بسكاى احدى السفن ونهبوا ركابها ثم استاقوا السفينة إلى مالقة ، حيث خير القسس والحكام ، اليهود بين التنصر والموت جوعا ، وبعد أن مات خمسون منهم زودت السلطات الباقين بالخبز والماء وطالبتهم بالابحار إلى افريقيا .

وما أن انتهت مهلة الثمانية اشهر ، حتى باع جون الثانى بيع الرقيق ، اولئك اليهود المهاجرين الذين بقوا فى البرتغال وانتزع الأطفال دون الخامسة عشرة من آبائهم وأرسلوا إلى جزر القديس توماس لينشأوا تنشئة مسيحية ولما ذهبت التوسلات إلى منفذى المرسوم عبثا ، فقد آثرت بعض الأمهات اغراق انفسهن

واطفالهن ، على تحمل آلام فراقهم . ومنحهم خليفة جون واسمه مانويل فرصة جديدة يجمعون فيها انفاسهم ، فقد حرر اولئك الذين استرقهم جون وحرم على القسس أن يثيروا الدهماء على اليهود ، وامر محاكمة أن ترفض جميع المزاعم بأن اليهود قتلوا اطفال المسيحيين باعتبارها حكايات خبيثة . ولكن مانويل خطب ايزابلا فى الوقت نفسه ، وهى ابنة فرديناند وايزابلا ووريثتهما ، حالما أن يوحد العرشين فى فراش واحد ووافق الملكان الكاثوليكيان بشرط أن مانويل ينفى من البرتغال جميع اليهود غير المتنصرين سواء أكانوا مواطنين أم مهاجرين .

وخضع مانويل لهذا الشرط ، مؤثرا الجاه على الشرف ، **وأمر جميع اليهود والمسلمين فى مملكته أن يتنصروا أو يطردوا من البلاد** (١٤٩٦) . ولما وجد أن فئة قليلة منهم آثرت التنصر ، وكره أن تباد المهن والصناعات التى تفوق فيها اليهود ، **أمر جميع الأطفال اليهود دون الخامسة عشرة أن يفصلوا عن آبائهم ويتنصروا بالاكراه** . وعارض رجال الدين الكاثوليك هذا الإجراء ولكنه نفذ . فقد روى احد الاساقفة (لقد رأيت أطفالاً كثيرين يسحبون إلى حوض التعميد من شعورهم) . واحتج بعض اليهود على ذلك بوأد اطفالهم ثم قتل انفسهم **واصبح مانويل شرسا ، فعطل خروج اليهود ثم امرهم بأن يتنصروا** . فسحلوا إلى الكنائس ، **الرجال من لحاهم والنساء من شعورهم ، وقتل كثيرون منهم نفسه فى الطريق** وارسل المتنصرون البرتغاليون رسالة إلى البابا اسكندر يرجون توسطه ولا يعرف رده ، ولعله كان فى مصلحتهم ، لأن مانويل منح اذ ذاك (١٤٩١) جميع المتنصرين كرها اذنا رسميا مدته عشرون سنة لا يقدمون اثناءها إلى أى محكمة بتهمة التشيع لليهودية . ولكن مسيحيو البرتغال رفضوا منافسة اليهود المتنصرين وغير المتنصرين ، فاذا جادل يهودى فى معجزة تنسب إلى كنيسة فى لشبونة فان الغوغاء يمزقونه اربا (١٥٠٦) ، وانتشرت المذابح ثلاثة ايام لا يمنعها احد ، وقتل فيها آلاف من اليهود ودفن مئات منهم أحياء .

الحياة اليهودية فى البلاد المسيحية : ـــ

كانت الدولة تجبى من اليهود (الفردة) أو ضريبة الرؤوس ، وعوائد الأملاك ، وكانت تصل احيانا **إلى ٣٣٪ من قيمتها** ، وضرائب على اللحم

والخمور ، والحلى ، والواردات ، والصادرات ، فضلا عن التبرعات (الاختيارية) للمساعدة على تمويل الحروب ، أو تتويج الملوك ، أو (مقدمهم) أو رحلاتهم . وكان اليهود الإنجليز البالغ عددهم فى القرن الثانى عشر ١/٤ فى المائة من السكان يؤدون للدولة ٨٪ من الضرائب العامة . وقد أدوا هم ربع ما جمع من المال لحرب ريتشارد الأول الصليبية ، وادوا فيما بينهم ٥٠٠٠ مارك ليفتدوه من أسر الألمان وهو ثلاثة امثال ما ادته مدينة لندن وكان الملك فى أى وقت من الأوقات يصادر املاك (يهوده) بعضها أو كلها لسبب أو لغير سبب ، ونقول يهوده لأنهم كانوا جميعا بمقتضى قانون الإقطاع (رجال) الملك . وكان الملك اذا مات ينتهى العهد الذى قطعه لحماية اليهود ، ولم يكن من يخلفه على العرش يرضى أن يجدد العهد الا اذا قدم اليه قدر كبير من المال ، قد يبلغ فى بعض الأحيان ثلث جميع ما يمتلكه اليهود فى الدولة . من ذلك ما فعله البرخت الثالث فى عام ١٤٦٣ **إذ اعلن أن كل ملك المانى جديد ، يجوز له ، عملا بالسنة القديمة ، إما أن يحرق جميع اليهود ، أو يظهر لهم رحمته ، فينقذ حياتهم ، ويأخذ ثلث املاكهم**) ولقد لخص براكن كبير المشرعين اليهودَ فى القرن الثالث عشر هذه النقطة بعبارة موجزة فقال : (**ليس من حق اليهودى أن يكون له ملك خاص لأن ما يحصل عليه ايا كان نوعه لا يحصل عليه لنفسه بل للملك**) .

وكان موقف الكنيسة من هذه الأحداث يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة . فايطاليا تحمى اليهود بوصفهم « حراس الشريعة » الواردة فى العهد القديم وبوصفهم شهود أحياء على صحة الكتاب المقدس من الوجهة التاريخية وعلى « غضب الله » . لكن مجالس الكنيسة كانت من حين إلى حين تعمل على زيادة متاعب الحياة اليهودية ، من ذلك أن قانون ثيودوسيوس (٤٣٩) ، ومجلس كليرمنت (٥٣٥) ، ومجلس طليطلة (٥٨٩) كلها حرمت تعيين اليهود فى المناصب التى من حق شاغلها أن يوقع عقوبة على المسيحيين . وامر مجلس اورليان (٥٣٨) جميع اليهود ألا يخرجوا من بيوتهم طوال الأسبوع المقدس ، ولعل ذلك الامر كان يقصد به حمايتهم ، وحرم استخدامهم فى المناصب العامة . وحرم مجلس لاتران الثالث (١١٧٩) على القابلات أو المرضعات المسيحيات أن يخدمن اليهود ، وندد مجلس بزيير (٢٤٦) باستخدام المسيحيين أطباء من اليهود ، ورد مجلس أفنيون

(١٢٠٩) على قوانين الطهارة اليهودية بتحذير « اليهود والعاهرات » من لمس الخبز أو الفاكهة المعروضة للبيع ، وأعاد القوانين الكنسية الصادرة بتحريم استئجار اليهود لخدم من المسيحيين ، وحذر المؤمنين من تبادل الخدمات مع اليهود وأمر بتجنبهم لنجاستهم . وأعلنت بعض المجالس الغاء كل زواج بين المسيحيين واليهود ، وأحرق شماس فى عام ١٢٢٢ على القائمة الخشبية لأنه اعتنق الدين اليهودى وتزوج بيهودية . وحرمت أرملة يهودية فى عام ١٢٤٣ من بائنتها بحجة أن زوجها اعتنق الدين المسيحى قبل وفاته وأن هذا يلغى زواجها وأصدر مجلس لاتران الرابع فى عام ١٢١٥ قرارا يحتم « على اليهود والمسلمين ذكورا كانوا أو اناثا ـ فى كل ولاية مسيحية وفى جميع الأوقات أن يميزوا أنفسهم عن غيرهم فى أعين الجمهور بلبس أثواب خاصة لأن المسيحيين يخطئون أحيانا فيتصلون بنساء اليهود والمسلمين ، ويتصل اليهود والمسلمون بالنساء المسيحيات ولهذا يجب على اليهود والمسلمين متى جاوزوا الثانية عشرة من العمر أن يميزوا ملابسهم بلون خاص ـ ويكون ذلك بالنسبة للرجال فى غطاء الرأس أو الجبة وبالنسبة للنساء فى أقنعتهن .

وكان نوع الشارة المميزة تعينه محليا حكومات الولايات أو المجالس الإقليمية للكنيسة المسيحية . وكانت فى العادة تتخذ صورة عجلة أو دائرة من النسيج الأصفر طول قطرها نحو ثلاث بوصات تخاط فى مكان ظاهر فوق الملابس : ونفذ هذا القرار فى انجلترا عام ١٢٧٩ ، ثم فى اسبانيا وإيطاليا والمانيا .

وكان من الشعائر المعتادة فى بزيير ايام أسبوع الآلام أن يهاجم الغوغاء الحى اليهودى ، وفى طولون أرغم اليهود على أن يبعثوا بممثل لهم إلى الكنيسة فى يوم الجمعة الحزينة من كل عام ليتلقى صفعة على اذنه لتكون بمثابة تذكرة لهم خفيفة بخطيئتهم الأبدية . وفى عام ١١٧١ أحرق عدد من اليهود فى بلوا بحجة استخدامهم دما مسيحيا فى شعائر عيد الفصح اليهودى . ورأى الملك فيليب أغسطس الفرصة سانحة ليبتز منهم المال محتجا بالدين ، فأمر بأن يسجن جميع من فى مملكته من اليهود لأنهم يسممون آبار المسيحيين ثم أمر باطلاق سراحهم بعد أن افتدوا انفسهم بمال كثير (١١٨٠) ، غير أنه طردهم من البلاد بعد عام واحد وصادر جميع املاكهم الثابتة ، وأهدى معابدهم للمسيحيين . وفى عام ١١٩٠ أمر بقتل ثمانين يهوديا فى أورنج لأن ولاة الأمور فى المدينة شنقوا احد عماله لقتله احد

اليهود . وفى عام ١٢٣٦ دخل الصليبيون الأحياء اليهودية فى انجو وبواتو وغيرها وأمروا بأن يعمد اليهود جميعا ، فلما ابوا داسوا بحوافر خيولهم ثلاثة آلاف منهم حتى قضوا نحبهم . . . ونددالبابا جريجورى التاسع بهذه المذبحة ولكنه لم ينج اليهود من الموت . واشار القديس لويس على رعاياه أن لا يجادلوا اليهود فى أمور الدين ، وقال لجوانفيل إن من واجب كل شخص من غير رجال الدين : (اذا سمع انسانا يذكر الدين المسيحى بما لا يليق أن يدافع عنه بالسيف لا باللفظ ، ينفذه فى بطن الآخر إلى أبعد مدى ينفذ فيه) .

وفى عام ١٢٥٤ نفى اليهود من فرنسا ، وصودرت املاكهم ومعابدهم ، ثم سمح لهم بدخولها ، وردت اليهم معابدهم ، وبينما كانوا يعيدون بناء جماعاتهم إذ أمر فيليب الجميل (١٣٠٦) بسجنهم ، وصادر ما كان لهم من ديون ، وجميع ما كان لهم من متاع ولم يستثن الا ما كان عليهم من الثياب ثم طردهم جميعا من فرنسا وكانوا يبلغون مائة الف ، ولم يسمح لهم بأكثر مما يكفيهم من لطعام ليوم واحد . وقد بلغ ربح الملك من عمله هذا قدرا اغراه بأن يهدى معبدا يهوديا إلى سائق عربته .

وكان اليهود يكثرون ويثرى بعضهم بعد كل مأساة تنزل بهم ؛ غير أن قصصهم كانت تنقل اليها ما كان لهذه الفترات المخزنة من ذكريات مرة وكانت أيام السلام مليئة بخوفهم من خطر المذابح الذى لا ينفك يهددهم وكان على كل يهودى أن يحفظ عن ظهر قلب الدعاء الواجب عليه أن يتلوه فى ساعة الاستشهاد . وكانت حمى السعى إلى جمع المال ترتفع حرارتها بقدر ما كان يحيق بكسبه من أخطار ، وكان لابسو الشارة الصفراء يقابلون فى الطرقات بسخرية الساخرين على الدوام ، كما كان يحيق بهذه الأقلية المنعزلة العديمة الحول والطول تحقير يحز فى نفوسها ويذل من كبرياء أفرادها ويقطع ما بينها وبين العناصر الأخرى من مودة ، ويترك فى أعين يهود الشمال تلك النظرة المعروفة بأحزان اليهود التى تذكرهم بعشرات المئات من الإهانات والاعتداءات) .

ولاقى يهود (الشتات) أقل العناء فى ظل السلاطين الأتراك والبابوات فى فرنسا وإيطاليا ، وعاشت الأقليات اليهودية آمنة فى القسطنطينية وسالونيك وفى ظل الحكم الاسلامى بصفة عامة .

الفصـــل الثـــانى

صراع اتباع اليهودية والإســلام

ذكرنا فى الأوراق السابقة أن هذا الكتاب يتعرض بصفة اساسية لمحاولات طرف فرض عقيدته الدينية على طرف آخر بالقوة أو بالقهر .

وقد تستعمل فى هذه الوسائل اسلحة القتل والتعذيب والحرق والسجن والتحقير والاذلال والحصار الاقتصادى . . . . الخ . . . وذلك بهدف رضوخ الطرف المعتدى عليه لعقيدة الطرف الآخر .

وفى ضوء ذلك ، فاننا نلاحظ من استقرائنا لوقائع التاريخ ، قلة الأحداث التى حاول فيها المسلمون فى صراعاتهم مع أتباع اليهودية (والمسيحية) فرض عقيدتهم الدينية على الآخرين .

وعند استعراضنا لاحوال الصراعات بين أتباع الإسلام الناشىء بقيادة الرسول (عليه الصلاة والسلام) وبين أتباع اليهودية سنرى أن هذه الصراعات ، كما سيبين ذلك من الأوراق التالية ، لم تهدف على وجه الأطلاق ، من جانب الرسول ﷺ ، إلى فتنة اليهود عن دينهم . . . ولكن العكس هو الصحيح ، أى أن هذه الصراعات كان الهدف منها ، من جانب اليهود ، هو فتنة المسلمين عن دينهم ، لا لمصلحة تهويدهم كما هو متوقع منطقياً ، ولكن لمصلحة اعادتهم للشرك .

ولقد سبق أن استعرضنا فى الفصل السابق صوراً من صراعات اليهود والمسيحيين وهى من الكثرة والضراوة والاستمرارية مما لا نجد له مثيلا فى صراعات أتباع الإسلام مع أتباع الاديان الأخرى .

وكانت بداية الصراعات الدينية بين أتباع اليهودية والإسلام بعد استقرار النبى (عليه الصلاة والسلام) فى يثرب (المدينة المنورة) . . . ففى يثرب كان يقيم الكثير من اليهود وكانت لهم علاقات جوار وعلاقات تجارة مع كل من قبيلتى الأوس والخزرج (أهل يثرب الأصليين) والذين فشا فيهم الإسلام .

وكتب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بين المهاجرين والأنصار كتابا واعد فيه اليهود وعاهدهم واقرهم على دينهم واموالهم ، بعد هجرته إلى يثرب . . . . . جاء فى هذا الكتاب . . .

« وان المؤمنين لا يتركون مغرماً (المثقل بالدين والعيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عقل . . . . . . وأن من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة (المساواة فى المعاملة) غير مظلومين ولا متناصر عليهم . . . . . . وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وأن يهود بنى عوف امة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ومواليهم وانفسهم الا من ظلم أو اثم فانه لا يوقع (يهلك) الا نفسه واهل بيته . وأن ليهود بنى النجار ويهود بنى ثعلبة وجفنه ولبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف وأن بطانة اليهود كانفسهم . وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم . . . وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين » .

ويلاحظ أن هذه الوثيقة قررت حرية العقيدة وحرية الرأى وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة . . . . وبذلك اصبحت المدينة وما وراءها حرما لاهلها ، عليهم أن يدفعوا كل عادية عليها . وأن يتكافلوا فيما بينهم لاحترام ما قررته هذه الوثيقة من الحقوق ومن صور الحرية .

ولكن ، خاف اليهود انتشار دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وزيادة قوته رغم رواج تجارتهم فى ظل السلام معه ، خاصة بعد أن اسلم أحد زعمائهم وهو عبد الله بن سلام . . . واليهود لا يؤمنون بنبوة غير موسى . . . . ويعتبرون انفسهم شعب الله المختار . . . غير أن اسلام احد علمائهم غير من موقفهم كثيرا خشية أن يتبعه القلة أو الكثرة . . . فاذاعوا عن عبد الله بن سلام مقالة السوء فى أحياء اليهود كلها ، وأجمعوا امرهم على أن يكيدوا لمحمد (صلى الله عليه وسلم) وينكروا نبوته . . . وما كان اسرع أن اجتمع اليهم من بقى على الشرك من الأوس والخزرج ومن اسلم فيهم نفاقا جريا وراء مغنم أو ارضاء لذى عصبة وبأس .

وهنا بدأ حرب جدل بين الرسول ﷺ واليهود اشد لدا واكبر مكرا من حرب الجدل التى كانت بينه وبين قريش بمكة . وفى هذه الحرب اليثربية تعاونت الدسيسة والنفاق والعلم باخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين . ودس اليهود من أحبارهم من أظهر اسلامه ومن استطاع أن يجلس بين المسلمين يظهر غاية التقوى ، ثم ما لبث بين الحين بعد الحين أن يبدى من الشكوك والريب ويلقى على الرسول ﷺ من الأسئلة ما يحسبه يزعزع فى أنفس المسلمين عقيدتهم به وبرسالته . وانضم إلى اليهود جماعة من الأوس والخزرج الذين اسلموا نفاقا ايضا ليسألوا وليوقعوا بين المسلمين . وبلغ من تعنت اليهود أن سألوا الرسول ﷺ : إن كان الله قد خلق فمن خلق الله ؟ وكان الرسول ﷺ يجيبهم بقوله تعالى (قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ، ولم يولد ولم يكن له كفوا احد) .

وحاولوا الوقيعة بين المسلمين من (الأوس والخزرج) وذلك حين مر أحدهم (شماس بن قيس) على نفر من الاوس والخزرج فى مجلس جمعهم ، فغاظه صلاح ذات بينهم وقال فى نفسه : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد وما لنا اذا اجتمع ملؤهم بها من قرار . وأمر فتى شابا من اليهود كان معهم أن ينتهز الفرصة ويذكر فيها يوم بعاث وما كان من انتصار الاوس فيه على الخزرج . وتكلم الغلام ، وذكر القوم ذلك اليوم وتنازعوا وتفاخروا واختصموا وقال بعضهم لبعض إن شئتم عدنا إلى مثلها . وبلغ الرسول ﷺ الأمر ، فخرج اليهم فيمن معه من اصحابه ، فذكرهم بما الف الإسلام بين قلوبهم وجعلهم اخوانا متحابين . وما زال بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضها واستغفروا الله جميعا .

وبلغ الجدال بين الرسول ﷺ واليهود مبلغا من الشدة يشهد به ما نـزل من القرآن فيه ـ فقد نزل صدر سوره البقرة إلى الآية ٨١ ، ونزل قسم عظيم من سورة النساء ، وكله يذكر هؤلاء الكتابيين وانكارهم ما فى كتابهم ويلعنهم لكفرهم وانكارهم أشد اللعنة . . . .

وبلغ الجدال بين اليهود والمسلمين حدا كان يصل احيانا مع ما كان بينهم من عهد . . . إلى الاعتداء بالأيدى .

وكان أبو بكر فى حديث مع فتى يدعى فنحاص يدعوه فيه إلى الإسلام ، فرد فنحاص بقوله : والله يا ابا بكر ما بنا إلى الله من فقر وانه الينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع الينا . وانا عنه اغنياء وما هو عنا بغنى ، ولو كان غنيا عنا ما استقرضنا اموالنا كما يزعم صاحبكم . . . وينهاكم عن الربا ويعطينا فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربا شديدا . . . وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عَدو الله . . . .

ولم يكتف اليهود بالوقيعة بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج ، ولم يكفهم فتنة المسلمين عن دينهم ومحاولة ردهم إلى الشرك دون محاولة تهويدهم . بل زادوا على ذلك أن حاولوا فتنة النبى ﷺ نفسه . . . وحاولوا اقناعه بالجلاء عن المدينة كما اجلاه اذى قريش هو واصحابه عن مكة ، فذكروا له أن من سبقه من الرسل ذهبوا جميعا إلى بيت المقدس وكان به مقامهم . وأنه إن يكن رسولا حقا فجدير به أن يصنع صنيعهم . . . . . الخ .

وانكر اليهود تحول القبلة إلى المسجد الحرام (بيت إبراهيم واسماعيل) بدلا من بيت المقدس . . . وحاولوا فتنته مرة أخرى بقولهم انهم يتبعونه اذا هو رجع إلى قبلته .

واجتمع ممثلو الديانتين (اليهودية والمسيحية) عند الرسول ﷺ فى يثرب حيث مثل المسيحية وفد نجران الذين جاؤ وا يثرب حين علموا بالخلاف بين النبى واليهود

وثار جدل بين أتباع هذه الأديان ، فأما اليهود فكانوا ينكرون رسالة عيسى والرسول ﷺ انكارا تاما ، ويزعمون أن عزيرا ابن الله . وأما النصارى فكانوا

يقولون بالتثليث وألوهية عيسى ، وأما الرسول ﷺ فكان يدعو إلى توحيد الله وإلى الوحدة الروحية تنتظم العالم من ازله إلى ابده .

كان اليهود والنصارى يسألونه عمن يؤمن بهم من الرسل فيقول : (قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزلَ إلى إبراهيمَ واسماعيلَ واسحٰقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتِيَ موسى وعيسى وما أُوتيَ النبيونَ من ربهِم لا نفرقُ بين أحدٍ منهُم ونحنُ لهُ مُسْلِمُونَ) البقرة ١٣٦ .

واكد لهم أن ما جاء به عيسى وموسى ومن تبعهم لا يختلف فى شىء عما جاء هو به ، . . . . هذه الحقيقة التى تتكشف لمن نظر إلى الكون على أنه وحده متصلة نظرة سامية فوق اهواء الساعة ومطامع العاجلة وشهوات المادة .

(قُلْ يا أهلَ الكتابِ تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم الا نعبدُ الا الله ولا نُشْرِكَ به شيئًا ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً ارباباً من دونِ الله فان تولَّوا فقولوا اشهدوا بإنا مُسلمون) .

آل عمران : ٦٤

وادلى ابوحارثة ، اكثر نصارى نجران علما ومعرفه إلى رفيق له باقتناعه بما يقول النبى ﷺ ، فلما سأله رفيقه عما يمنعه منه وهو يعلم هذا . . . كان جوابه يمنعنى ما صنع بنا هؤلاء القوم ، شرفونا واكرمونا وقد ابوا الا خلافه ، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى .

دعا الرسول ﷺ اليهود والنصارى إلى هذه الدعوة أو يلاعن النصارى ، فاما اليهود فكان بينهم وبينه عهد الموادعة . اذ ذاك تشاور النصارى ثم اعلنوا اليه أنهم رأوا أن لا يلاعنوه وأن يتركوه على دينه ويرجعوا على دينهم . ولكنهم رأوا حرص الرسول ﷺ على العدل حرصا احتذى اصحابه فيه مثاله ، فطلبوا اليه أن يبعث معهم رجلا يحكم بينهم فى اشياء اختلفوا عليها ــ وبعث الرسول ﷺ معهم ابا عبيدة بن الجراح ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه .

وفطن المسلمون لدس اليهود ــ وبلغ من ذلك أن حشروهم فى زمرة المنافقين بل اعتبروهم شرا منهم ، فاخرجوهم من المسجد اخراجا عنيفا ــ وابوا عليهم أن يجلسوا اليهم أو أن يتحدثوا معهم ، وانتهى النبى عليه السلام إلى الاعراض عنهم

بعد أن حاول اقناعهم بالحجة والدليل . . . . . وكان لابد من اشعارهم بقوة المسلمين ومن ثم كانت السرايا التى لم تنتهى بقتل . . . . (سرايا استعراض) . . .

وعندما انتصر المسلمون فى واقعة بدر ، ارسل الرسول ﷺ زيد بن حارثة ليبشر بالنصر اهل المدينة . . . وكان على ناقة النبى القصواء ، وسر المسلمون بالنصر ، اما الذين بقوا على الشرك ، واما اليهود ، فقد كبتوا لهذا النبأ ، وحاولوا أن يقنعوا انفسهم وان يقنعوا الذين اقاموا بالمدينة من المسلمين بعدم صحته ، فصاحوا ، إن محمدا قتل واصحابه هزموا وهذه ناقته نعرفها جميعا ، لو أنه انتصر لبقيت عنده ، وانما يقول زيد ما يقول هذيانا من الفزع والرعب . . . ولكن الخبر ما لبث أن تأكد وعم السرور بين المسلمين . . . ورأى المشركون والمنافقون أن موقفهم اصبح موقف هوان ومذلة حتى قال احد زعماء اليهود : بطن الأرض اليوم خير من ظهرها بعد أن أصيب اشراف الناس وساداتهم وملوك العرب واهل الحرم والأمن (من قبيلة قريش) .

وبعد هذا النصر ، بدأت طوائف اليهود والمشركين تتآمر ضد الإسلام ، وبدأت تغرى بهم وترسل الأشعار فى التحريض على المسلمين . وبذلك انتقل ميدان الثورة من مكة إلى المدينة ، وانتقل من الدين إلى السياسة . . . وبدءوا يفكرون فى اغتيال النبى ﷺ وجعل كل من الفريقين يتربص بالآخر .

وكان المسلمون الى حين نصرهم ببدر يخشون مواطنيهم من أهل المدينة فلا تبلغ منهم الجرأة إلى الاعتداء على من يعتدى على مسلم منهم . فلما عادوا منتصرين أخذ سالم بن عمير نفسه بالقضاء على ابى عفك لأنه كان يرسل الأشعار يطعن بها على النبى ﷺ ، وعلى المسلمين ، ويحرض بها قومه على الخروج عليهم ، وظل كذلك بعد بدر يغرى الناس ، وانتهى الامر بقيام سالم بن عمير بقتل ابن عفك .

كما تم قتل عصماء ، بنت مروان لأنها كانت تعيب الإسلام وتؤذى النبى ﷺ وتحرض عليه وظلت كذلك إلى ما بعد واقعة بدر .

كما تم تدبير مؤامرة تم فيها قتل كعب بن الأشرف وهو الذى قال حينما علم بمقتل سادات مكة : (هؤلاء اشراف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد اصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها) وهو الذى ذهب إلى مكة لما تيقن

الخبر يحرض على محمد وينشد الأشعار ويبكى اصحاب القليب . وهو الذى رجع بعد ذلك إلى المدينة فجعل يشبب بنساء المسلمين .

وقدمت امرأة من العرب إلى سوق اليهود من بنى قينقاع ومعها حلية جلست إلى صائغ منهم بها . فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهى تأبى ، فجاء يهودى من خلفها فى سهو منها فاثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ وكان يهوديا ، فقتله وشددت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ اهل المسلم بالمسلمين على اليهود . فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع وطلب محمد ﷺ إلى هؤلاء أن يكفوا عن اذى المسلمين وأن يحفظوا عهد الموادعة أو ينزل بهم ما نزل بقريش فاستخفوا بوعده واجابوه : (لا يغرنك يا محمد انك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فاصبت منهم فرصة . انا والله لئن حاربناك لتعلمن انا نحن الناس) .

وحاصر المسلمون بنى قينقاع وانتهى الأمر بجلائهم عن المدينة ، تاركين وراءهم السلاح وادوات الذهب الذى كانوا يصوغون ، وذلك وفقا لشروط النبى ﷺ .

وفزع من بقى من يهود المدينة فلزموا دورهم مخافة أن يتم اغتيالهم مثلما حدث مع كعب بن الأشرف ، وزاد فى فزعهم أن أهدر النبى دماءهم بعد الذى كان من أمر بنى قينقاع وحصارهم . فجاءوا إلى النبى يشكون اليه امرهم ويذكرون له مقتل كعب غيلة بلا جرم ولا حدث علموه . فكان جوابه لهم : أنه اذانا وهجانا بالشعر ولو قر كما قر غيره ممن هو على مثل رأيه ما اصابه شر وبعد حديث طال بينهم دعاهم إلى أن يكتب معهم كتابا يحترمونه . وخافت اليهود وذلت وان بقى فى نفسها من محمد ﷺ مابدأ من بُعد اثره .

ونقض يهود بنى النضير العهد ، وهموا بالغدر بالرسول فامهلهم عشرة ايام للجلاء والا ضربت منهم الاعناق . . . . فرفضوا الجلاء . . . . وحوصرت بنو النضير ، ثم استسلمت على شرط الجلاء . . . ورحلوا .

واختمرت فكرة تأليب العرب على المسلمين عند اليهود من بنى النضير بعد واقعة احد ، وطلب زعماؤ هم معونة قريش فى حربهم ضد محمد ﷺ كما اكدوا أن يهود بنى قريظة مقيمون بالمدينة مكرا بمحمد إلى حين قيام قريش بقتله فيميلون معها .

وقالت قريش لليهود : ايا معشر يهود ، انكم اهل الكتاب الأول واهل العلم بما اصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، افديننا خير أم دينه ؟ فقالت اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وانتم اولى بالحق منه ؟ .

وذهب وفد اليهود إلى كثير من القبائل لتحريضهم على المسلمين ويذكرونهم بثأرهم عندهم ، ويحمدون لهم وثنيتهم ويعدونهم النصر لا محالة . وخرجت الاحزاب التي جمع اليهود لحرب محمد واصحابه : من قريش ومن غيرها وكان أن قام المسلمون بحفر الخندق ــ الذى حاصره المشركون بمعونة اليهود .

ولما طال الحصار دون جدوى ، خشى حيى بن أخطب زعيم اليهود وقائد فكرة تأليب العرب على محمد ، خشى انصراف قريش والاحزاب ــ فيصلى اليهود وحدهم نار المسلمين ــ وكان بنو قريظة متمسكين بموادعتهم للنبى ﷺ ولو نقضوا هذا العهد لانقطع المدد والميرة عن محمد من ناحية ، وفتح الطريق لدخول يثرب من ناحية اخرى . . . وبذل حيى بن اخطب جهده لاقناع زعيم بنى قريظة بالتخلى عن محمد حتى وافق وخرج عن حياده عِلانية وقطعت بنو قريظة المدد والميرة عن محمد ﷺ واصحابه .

واستعمل الرسول ﷺ الحيلة ، وبهذه الحيلة تفرقت الأحزاب . . . كما كان لهبوب الرياح والزوابع اثر فى نكوصها .

وبعد رحيل الأحزاب . . . جاء الدور على بنى قريظة ، وانتهى الامر ، بعد حصارهم ، بقتل الرجال وسبى النساء والولدان وقسمة اموال بنى قريظة على المسلمين .

وبعد هذه العداوات بين اليهود والمسلمين ، كان لابد من القضاء على آخر موقع لليهود فى جزيرة العرب وهو خيبر . . . اذ اصبح لا امان لهم بعد ما حدث منهم من نقض العهود .

وانهزم اليهود ، وأُبقى من بقى منهم على ارضهم على أن يقتسم ناتج الأرض معهم وكان رسول النبى ﷺ فى هذا العمل عبد الله بن أبى رواحة . . . . واعاد النبى نُسخ التوراة إلى اليهود والتى كانت من نصيب غزاته .

كما استسلم يهود فدك دون قتال بعد ما رأوه من طلب يهود خيبر الصلح واستسلم يهود وادى القرى بعد قتال بسيط ، اما يهود تيماء فقبلوا الجزية من غير حرب ولا قتال .

وبانيهار سلطان اليهود خفت بغضاء المسلمين ، والأنصار منهم خاصة ، لهم ، وتغاضوا عن رجوع بعضهم إلى يثرب ، ووقف النبى ﷺ مع اليهود الذين بكوا عبد الله بن أبى وعزى ابنه ، وأوصى معاذ بن جبل بالا يفتن اليهود عن يهوديتهم ، ولم يفرض الجزية على يهود البحرين وان ظلوا متمسكين بدين آبائهم ، وصالح بنى غازية وبنى عريض على أن لهم الذمة وعليهم الجزية .

على أن اذعان اهل خيبر من سائر اليهود لمصيرهم لم يقع مرة واحدة بعد هزيمتهم ، بل كانت نفوسهم ملأى بالغل والغضب . واهدت امرأة منهم الى النبى ﷺ شاة مسمومة ــ وزادت هذه الفعلة من عوامل عدم الثقة بين المسلمين واليهود(٩) .

هذا عن صراعات أتباع اليهودية مع أتباع الإسلام الناشىء . . . .

اما عن صراعات أتباع اليهودية مع أتباع الإسلام ، بعد ذلك . . . فانها صراعات غير علنية من جانب اليهود . . . فكان من ضمن صراعاتهم وحروبهم ضد الإسلام ما فعله عبد الله بن سبأ اليهودى والمتظاهر بالإسلام ، من بدع فى الدين سيأتى ذكرها . . . ثم قيادة هذا المتظاهر بالإسلام للفتنة التى اودت بحياة عثمان بن عفان . . . . ثم قام اليهود بعد ذلك بدس احاديث غير صحيحة عن النبى ﷺ وهو ما اصطلح علماء الحديث على تسميتها بالاسرائيليات .

اما الصراعات التى حدثت بعد ذلك ، أى بعد عهد الخلفاء الراشدين واصاب فيها اليهود بصفتهم الدينية ، بعض الاضطهاد من المسلمين فسوف نجدها على قلتها ، فى الفصل التالى حيث اشترك اليهود مع المسيحيين بصفتهم اهل الذمة فى الاضطهادات التى اوقعها عليهم بعض الحكام المسلمين .

الفصــــل الثــــالـث

صراع اتباع المسيحية والإسلام

لم أعثر على أى شكل من أشكال الصراع الدينى بـين أتباع المسيحيـة وأتباع الإسلام فترة حياة النبى محمد عليه الصلاة والسلام .

بـل إن ما لـدينا من وثـائق فى القرآن الكـريم يؤكد مؤازرة الإسـلام ونبيه للمسيحيـين فى حروبهم ضد الفرس الوثنيين. . . وذلك أن الإسلام ، كما هو معلوم من القرآن الكريم ، يرى النصارى أقرب الناس مودة إلى الذين آمنوا ، وأن القرآن جاء مؤيدا ، للإنجيل والتوراة ، وكان ضلع المسلمين فى صدر الإسلام هو مـع النصارى بالتخصيص ، بدليل أنه لما وقعت الحرب بين الروم والفرس . وتغلب الفرس على الروم ، حزن الصحابة يومئذ حزنا شديدا ، فنزلت الآية (غلبت الروم فى أدنى الأرض وهـم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) فلما صدق قوله تعالى بتغلب الروم على الفرس فى بضع سنين ، فرح الصحابة فرحا شديدًا ولم يكن ذلك لأن الروم أقرب هم جنسا من الفرس ، بل الروم والفرس بالنسبـة للعرب عـلى السواء ، بل لكون الروم أهل كتاب والفرس يومئذ عبدة النـار لم يكن الله شرح صدرهم للإسـلام . ولما غـزا العرب الشـام ، أوصى الخليفة أبـو بكر الصـديق بالنصارى ورهبانهم خيرا فى خطبته المشهورة . ولما حضر الخليفة عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس كان من حسن معاملته للنصارى ما هو مشهور أيضا فى التاريخ

ثم نلاحظ ، بعد ذلك ، رسالات النبى ﷺ لقيادات الفرس والمسيحيين وكلها تدعو إلى الدخول فى دين الإسلام بالكلمة المكتوبة المهذبة التى لا تحمل أى تهديد أو وعيد بالحرب أو تغيير العقيدة الدينية بالقوة . . .

ويجىء وفد عن مسيحيى نجران ، ويقابل النبى ﷺ ويجادله فى الدين ، ثم لينتهى هذا المؤتمر بثبات كل طرف على عقيدته الدينية مع احترام عقائد الآخرين.

وقبل ذلك رحب ملك الحبشة المسيحى بمهاجرى المسلمين ، ترحيبا أدى بالبعض إلى الاعتقاد أن هذا الملك قد اعتنق الإسلام .

واذا طالعنا الأشتباكات الحربية بين النبى ﷺ وبين أتباع المسيحية المتمثلة فى الروم والذين كانت بلادهم تشمل ، فى ذلك الوقت أوربا وشمال افريقيا وشرقى آسيا . . . نقول اذا طالعنا هذه الأشتباكات سوف نلاحظ أن أسبابها كانت خارجة تماما عن مجال الصراعات الدينية .

فغزوة مؤتة ، يرجع السبب فيها إلى احتمالين ، اما أنها بسبب قتل رسول النبى ﷺ إلى عامل بصرى بالشام ، واما إلى مقتل رجاله الخمسة عشر فى ذات الطلح . . .

وهذه ليست أسباب دينية بأية حال . . . .

وعلى كل حال فقد انتهت هذه الغزوة بانسحاب مشرف لجيش المسلمين حيث حشدت الروم فى جيشها ما بين مائة الف ومائتين بينما جيش المسلمين لا يزيد عن ثلاثة آلاف .

وترجع غزوة تبوك إلى ما اتصل بالرسول ﷺ من بلاد الروم أنهم يجهزون جيشا لغزو حدود العرب الشمالية غزوا ينسى الناس انسحاب العرب فى مؤتة ، وينسى الناس ذكر العرب وسلطان المسلمين الزاحف فى كل ناحية ليتاخم سلطان الروم فى الشام وسلطان فارس فى الحيرة .

واتصلت هذه الأنباء بالرسول ﷺ مجسمة أيما تجسيم ، فلم يتردد هنيهة فى تقرير مواجهة هذه القوى بنفسه ، والقضاء عليها قضاء يقضى فى نفوس سادتها على كل أمل فى غزو العرب أو فى التعرض لهم .

وانت ترى من هذا العرض أن الرسول ﷺ وامته كانوا فى جانب الدفاع عن النفس وعن العقيدة ــ ولم يكن عنده او عند اصحابه هدف لفتنة الروم عن ديانتهم فى هذه الحرب .

وعلى كل حال فلم يحدث قتال فى هذه المعركة ، لانسحاب الروم .

وارجو ملاحظة أن النبى ﷺ كان يجمع فى شخصه ، منذ هاجر إلى يثرب ، صفته كحاكم سياسى لدويلة لم تلبث أن شملت جزيرة العرب كلها ، وصفته كرسول يبلغ النظام الإسلامى للبشر من لدن الله سبحانه وتعالى ــ ومن واقع مسئوليته كرئيس كانت تقع عليه مسئولية الحفاظ على بيضته . . . أى على دولته وعلى حدودها وعلى شعبها وعلى مصالحة العقائدية والاقتصادية من أى سوء .

ومن هذا المنطلق تكون كل من غزوتى ، مؤتة وتبوك من الغزوات ذات الابعاد السياسية .

وتوفى النبى ﷺ ــ وتولى أبو بكر ، وفى حياته لم نعثر أيضا على صراعات دينية بالمعنى المتقدم رغم غزواته العسكرية الناجحة فى بلاد الروم والفرس .

ثم يجىء عهد عمر بن الخطاب وقد اتسعت الدولة الإسلامية الناشئة لتبتلع نصف الامبراطورية الرومانية وكل الإمبراطورية الفارسية .

وهنا اصبح الحاكم فى هذه البلاد يعتنق الديانة الإسلامية بينما غالبية أهل هذه البلاد يعتنقون المسيحية ، او الزرادشتية (الفارسية) أو اليهودية وغيرها .

ونلاحظ أن عمر بن الخطاب قد حسم موضوع المعاملة الدينية بين المسلمين والمسيحيين اتباعا لما لاحظناه فى سنة النبى ﷺ . .

واليك ما قاله المقريزى عن هذا الموضوع :

يذكر علماء الأخبار من النصارى أن امير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما فتح مدينة القدس كتب للنصارى امانا عن انفسهم واولادهم ونسائهم واموالهم وجميع كنائسهم لا تهدم ولا تسكن وأنه جلس وسط صحن كنيسة القيامة فلما حان وقت الصلاة خرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التى على بابها بمفرده ثم جلس وقال للبطرك لو صليت داخل الكنيسة لاخذها المسلمون من بعدى وقالوا هاهنا صلى عمر .

وكتب كتابا يتضمن انه لا يصلى أحد من المسلمين على الدرجة الا واحدا واحدا ولا يجتمع المسلمون بها للصلاة فيها ولا يؤذنون فيها . . . واشار البطرك باتخاذ موضع الصخرة مسجدا وكان فوقها تراب كثير فتناول عمر رضى الله عنه من التراب فى ثوبه فبادر المسلمون لرفعه حتى لم يبق منه شىء وعمر المسجد الأقصى امام الصخرة . . .

ثم إن عمرا أتى بيت لحم وصلى فى كنيسة عند الخشبة التى ولد فيها السيد المسيح وكتب سجلا بايدى النصارى أن لا يصلى فى هذا الموضع أحد من المسلمين الا رجل بعد رجل ولا يجتمعون فيه للصلاة ولا يؤذنوا عليه . .

ويتكلم بعض المستشرفين عن قيام بعض خلفاء بنى أمية باكراه البربر فى شمال افريقيا على الإسلام .

وهذه لا شك صورة نادرة لا تؤثر على المسار العادى للتاريخ ، كما لا تقوى على تغيير أى نص من نصوص الشريعة الإسلامية .

وعلى كل حال فان الأمر كان قاصرا على هذه الواقعة بالذات .

وذلك أن صورة التسامح الدينى ، فى العهد الأموى ، فى شمال أفريقيا قد اختفت ، فهناك ابدت قبائل البربر مقاومة شديدة .

وعندما نجح العرب نهائيا فى فتح ولايات شمال افريقية ، هاجر الكثير من سكان البلاد الأصليين إلى إيطاليا وغالة . اما كنيسة افريقية التى كانت ذات صيت فى الأخبار التاريخية المسيحية فقد قاست صدمة شديدة . ويعقب شارل دبل قائلا : (ولمدة قرنين من الزمان رفعت الإمبراطورية البيزنطية من هذا الجزء من الشمال الأفريقى تقاليد الحضارة القديمة ، وحولت البربر إلى حضارة امدت بالدعاية الدينية ، وفى خمسين سنة افسد الغزو العربى كل هذه الأعمال العظيمة) .

وكان السبب فى ذلك المقاومة العنيفة التى أبداها البربر فى مقاومة الفتح الإسلامى ولمدة خمسين عاما ، مما ادى إلى رد العنف بالعنف . . . ولكن ، فى النهاية ، وبعد أن اصبحت شمال افريقيا عربية طبق العرب سياسة التسامح الدينى ، ولم يتعمدوا أن يصيبوا كنيسة افريقية . .

كما حدثت بعض الثورات فى مصر لاسباب اهمها ظلم بعض الولاة وتحميلهم للناس فوق ما يطيقون فى اموالهم وقمعت هذه الثورات فى عنف .

وتنقسم الصراعات بين أتباع الإسلام وأتباع المسيحية إلى أربع مراحل حسب القوة المؤثرة فى الصراع فى كل مرحلة ، وهى : ـ

١ ـ مرحلة استيلاء المسلمين على ولايات الامبراطورية البيزنطية فى شمال افريقيا ومصر والشام .

٢ ـ مرحلة الحروب الصليبية .

٣ ـ مرحلة فتح القسطنطينية وقوة (الخلافة الإسلامية التركية) .

٤ ـ مرحلة انهيار الخلافة الإسلامية التركية وسيطرة الغرب المسيحى .

وسيتم الكلام عن المرحلة الأخيرة فى الباب التالى .

١ـ الصراعات بين أتباع الإسلام وأتباع المسيحية حتى الحروب الصليبية

ـ مظاهر الصراع فى الشرق الإسلامى :

كان ظهور الإسلام فى القرن السابع حدثا قدر له أن يغير الخريطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية للعالم المعروف وقتذاك . وحين اندفع العرب فى اول الأمر من الصحراء صوب اطراف الشام ردوا على أعقابهم دون أن يلفت ذلك الحادث الأنظار كثيرا ، كانت غلطة عدم الاكتراث للحادث عالية الثمن . وبعد أن إستطاع العرب اقتطاع الشام وفلسطين ومصر وشمال افريقية من الإمبراطورية البيزنطية ، ظلت بيزنطة تنظر إلى الإسلام كنوع من الهرطقات الدينية أو كمذهب من مذاهب المسيحية الأخرى . ولقد تناول الأدب البيزنطى الإسلام بالهجوم بنفس الطريقة التى فعل بها مع المونفيوزية وكل ما هو تابع للهرطقات الأخرى التى اثارت الجدل والكثير من النقاش فى بيزنطة وفى المجامع الدينية التى عقدت من أجلها . وحتى أشهر اقطاب الجدل المسيحى البيزنطى وهو يوحنا الدمشقى لم ينظر إلى الإسلام على أنه دين جديد ، بل اعتبره انشقاقا عن العقيدة المسيحية الحقة . فقد

ذكر في مؤلفه الضخم (خلاصة الهرطقات) أن الإسلام واللايقونية من الهرطقات الخارجة عن الديانة المسيحية .

ولم يعط المؤرخون البيزنطيون اهتماما كبيرا لظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) والحركة السياسية التى بدأها . فقد نظر البيزنطيون إلى الإسلام والرسول عليه السلام نظرة حقد وتعصب وكراهية . فقد قال ثيو فانيس عن محمد صلى الله عليه وسلم (. . . انه حاكم المسلمين والرسول الكاذب) .

كذلك نظر الغرب الأوربى إلى محمد نفس النظرة البيزنطية ، أى لم ينظروا إلى الإسلام كدين جديد متميز بل كمذهب مسيحى شبيه فى تعاليمه بالاريوسية ــ وحتى فى اخريات العصور الوسطى ، اعتبر الشاعر الفلورنسى دانتى اليجيرى ، فى ملحمته الشعرية الكوميديا الإلهية ، محمدا(صلى الله عليه وسلم) هرطوقيا ــ واطلق عليه ظلما عبارة (زارع الافتراء والانشقاق) .

ولم تدرك الدولة البيزنطية ابعاد رسالة الإسلام التى حمل العرب لواءها ، حتى بعد أن سقطت اقاليم الشام وفلسطين ومصر فى ايديهم . وربما ليس غريبا أن تشعر بيزنطة وحتى نهاية القرن السابع ، أن هذه الأقاليم لم تضع نهائيا ، واعتبرتها تحت احتلال مؤقت . ويبدو أن التناقض الدينى بين الدولة البيزنطية والدولة العربية لم يأخذ شكلا حادا فى الفترة الأولى من قيام الدولة العربية ، ويرى بعض العلماء أن الضغينة الدينية بين المسيحيين والمسلمين لم تكن شديدة خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين (الأول والثانى الهجريين) مثلما اصبحت فيما بعد .

وإن نظرة بيزنطة إلى الإسلام ، وكذلك نظرة الغرب الأوربى إليه ، كانت وراء تلك الكلمات التى نقابلها فى المصادر اليونانية واللاتينية القديمة التى تصف العرب المسلمين بالكفرة وغير المؤمنين . ولكن هل ادى هذا التناقض الدينى بين الدولة البيزنطية والدولة العربية ووصل إلى حد التعصب الدينى ؟ . . . . يرى فنلاى أن الفاظ الشتائم التى تقاذفها جستنيان الثانى والوليد بن عبد الملك كل إلى الاخر بخصوص الديانة ، كانت نتيجة للعجرفة الشخصية والاستبداد اكثر منها نتيجة لأى تعصب دينى ــ وربما كان هذا امرا واردا لأن الإمبراطور جستنيان الثانى وكذلك

الخليفة الوليد تميزا بالاستبداد والاعتداد بالنفس ، وكان الامبراطور متهورا مندفعا ـ ومن امثلة تهور واندفاع الإمبراطور جستنيان الثانى تهديده بوضع نقش مهين للإسلام على عملته الذهبية ، حين أمر عبد الملك بن مروان بوضع صيغة دينية اسلامية على البردى وطراز الثياب المخصصة للتصدير .

ولعله من هنا يمكن القول **إن الحروب بين البيزنطيين والأمويين لم تكن حروبا دينية فقط بقدر ما كانت حروبا سياسية من أجل السيادة** . ولكن رغم تلك الحقيقة فقد حاولت الإمبراطورية البيزنطية منع قيام علاقات بين الرعايا البيزنطيين والمسلمين ونظرت إلى اية علاقة على أنها خيانة وعمل لا يغتفر .

ورغم أن الحروب التى نشبت بين المسلمين والبيزنطيين لم تكن حروبا دينية فى المقام الأول ، الا أنها فى بعض الأحيان كانت تأخذ سمة الحرب المقدسة أما النتائج فلم تكن مقنعة سواء بالنسبة للبيزنطيين أو المسلمين فالبيزنطيون فشلوا فى الحصول على بيت المقدس كما فشل العرب فى الاستيلاء على القسطنطينية ، رغم محاولاتهم المتكررة ، وحين كانت الحرب تأخذ سمة الحرب المقدسة نجد روح الجهاد الإسلامى قوية لدى المسلمين ، خاصة فى حصارهم العنيف للقسطنطينية سنة ٩٨/٧١٧ هـ ، وكانت تلك الروح والحماسة التى صاحبتها تدفع الفرد إلى ان يلقى بنفسه فى احضان الموت طلبا للجنة .

واذا كانت هذه نظرة بيزنطية للإسلام ، فان العرب المسلمين نظروا إلى الديانة المسيحية نظرة واقعية كدين من اديان السماء ، واعتبروا رعاياهم المسيحيين من أهل الكتاب ونظروا نظرة تختلف عن نظرتهم إلى الكفرة المشركين . وتميز العرب المسلمون فى معاملتهم لرعاياهم المسيحيين بالتسامح الدينى فتركوا لهم الكنائس ، وسمحوا لهم باداء شعائرهم الدينية ، ولم يطلبوا سوى دفع الجزية المحددة فضلا عن الولاء السياسى الثابت للحكم العربى ، وظل بيت المقدس مفتوحا للحجاج المسيحيين الذين حضروا إلى فلسطين من اماكن نائية فى الغرب الأوربى للعبادة .

وكان الرعايا المسيحيون يعرفون فى الدولة العربية بأهل الذمة هم واليهود ذلك أن الإسلام شملهم بالامان ، وصانعهم بالعهود والمواثيق . ولقد اتاح ذلك لأهل

الذمة أن يتمتعوا بقسط وافر من الحرية مقابل دفع الجزية . ولكن يجب أن يلاحظ انهم لم يكونوا من صميم المجتمع الديني دى السيادة في البلاد بل كانوا في منزلة اجتماعية وسياحية ثانوية . وظل مرجعهم في الأمور المدنية والقضائية إلى رؤسائهم الدينيين الا في القضايا التي مست المسلمين . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز حريصا على العدل في معاملته للرعايا غير المسلمين وحمى للنصارى ملكيتهم لكنائسهم القديمة التي ضمنها لهم الصلح .

واليك بياناً بأهم الصراعات التي تسبب فيها بعض الحكام المسلمين في مصر على سبيل المثال ، وعلى عكس ما حاء في احكام الدين الإسلامي .

١ ـ بعد غزو العرب لمصر بسبعين عاما تقريبا ، بدأ الأقباط يقاسون السلب والاضطهاد بالرغم من الرعاية والمزايا التي منحت لهم أول الأمر ، إلى درجة ان كثيرا منهم لجأوا إلى السلاح محاولين الدفاع عن حقوقهم ، غير أنهم هزموا بعد مذبحة كبيرة . وفرض على كل راهب ، لأول مرة ، دينارا جرية سنوية وكان جامع الضريبة يسم يد كل راهب يقابله بختم من الحديد ، وبعد دلك يقطع يد كل شخص من هذه الطبقة يكتشفه غير موسوم ، ويأخذ عشرة دنانير من كل مسيحي آخر ليس معه ايصال من الحكومة يثبت دفعه للجزية وقد وجد كثير من الرهبان فيها بعد بدون وسم ، فضرب عنق البعض ، وضرب الآخرون حتى الموت ، وهدمت كنائسهم واتلفت صلبانهم وصورهم . وقد حدث ذلك عام ١٠٤ هـ (٧٢٢ ـ ٧٢٣ م) في اخر حكم الخليفة يزيد بن عبد الملك

٢ ـ بعد ذلك بسنوات قليلة ، في عهد خليفة هذا الأمير (هشام) عمل حنظلة بن صفوان ، حاكم مصر ، على وسم يد كل قبطي بختم حديدى يحمل صورة أسد وعلى زيادة بؤسهم زيادة شديدة ، ولذلك ثار كثير من سكان الريف مرة أخرى ولجأوا إلى السلاح ، ولكن بدون جدى ، وتبع ذلك اضطهاد فظيع .

٣ ـ في عهد هذا الخليفة (هشام بن عبد الملك) كان يتم التلاعب في ملكية كنائس مصر كلها ، فمرة يتم تمليكها لليعاقبة (غالبية مسيحيى مصر) ومرة يأمر الخليفة بتمليكها لاتباع العقيدة الملكية (المسيحية) تبعا للهدايا التي تصل اليه من أي طرف من الأطراف .

٤ ـ فى عام ٥٣٥ هـ (٨٤٩ ـ ٨٥٠ م) أمر المتوكل أن تتخذ ملابس الأقباط مميزات مذلة . فألزم الرجال بلبس عباءه وقلنسوة (عسلية اللون) وانواع خاصة أخرى من الملابس ، كما الزم النساء بارتداء ثوب من اللون نفسه ـ وكان الأقباط يجبرون على وضع تماثيل خشبية تمثل الشيطان عند ابواب منازلهم أو عليها .

٥ ـ فى سنة ٣١٣ هـ قدم الوزير على بن عيسى بن الجراح مصر فكشف البلد والزم الأساقفة والرهبان وضعفاء النصارى باداء الجزية فادوها ومضى طائفة إلى بغداد واستغاثوا بالمقتدر بالله فكتب إلى مصر أن لا يؤخذ من الأساقفة والرهبان وضعفاء النصارى جزية وأن يجرى على العهد الذى بايديهم .

٦ ـ وعانى الجميع من الاضطهاد فى ايام الحاكم بامر الله ـ ومن أعماله ، وقد رأى بعض النصارى قد تملكوا من أعمال الدولة ، حتى صاروا كالوزراء وتعاظموا لاتساع احوالهم وكثرة اموالهم فاشتد بأسهم وتزايد ضررهم ومكايدتهم للمسلمين فاغضب الحاكم بامر الله ذلك ، وكان لا يملك نفسه اذا غضب . فقبض على عيسى ابن نسطورس النصرانى وهو اذ ذاك فى رتبة تضاهى رتبة الوزراء وضرب عنقه ثم قبض على فهد بن ابراهيم النصرانى كاتب الأستاذ برجوان وضرب عنقه وتشدد على النصارى والزمهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار فى اوساطهم ومنعهم من عمل الشعانين وعيد الصليب والتظاهر بما كانت عادتهم فعله فى اعيادهم من الاجتماع واللهو وقبض على جميع ما هو مجسم على الكنائس والديارات وادخله فى الديوان وكتب إلى عماله بذلك . . . الخ .

واخيرا انتهت اعمال الحاكم بأمر الله الجنونية إلى الزام اليهود والنصارى بالخروج من مصر الى أرض الروم ، فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر من القاهرة واستغاثوا ولاذوا بعفو امير المؤمنين حتى أعفوا من النفى ـ وفى هذه الحوادث أسلم كثير من النصارى .

ولعلك لاحظت أنه عقب كل اضطهاد من هذه الاضطهادات المتفرقة . . . كان الحاكم يأمر بالرجوع إلى العهد الذى بأيدى النصارى . . . عهد التسامح الذى تعهد به عمر بن الخطاب . . .

وهنا كان ينتهى الاضطهاد . . . لتعود الأحوال إلى حالتها الطبيعية . .

بل انه عندما دمر الحاكم بامر الله ، الخليفة المجنون ، كنيسة الضريح المقدس عام ١٠١٠ قام المسلمون بانفسهم بتقديم المال الكثير لاعادة بنائها .

مظاهر الصراع فى الغرب المسيحى : —

تروى المصادر الإسلامية ، روايات لها أهميتها عن احوال المسلمين الأسرى الذين وقعوا فى قبضة البيزنطين وعاشوا هناك بعيدا عن الوطن ، تحرقهم نار الشوق إلى الأهل وديار الإسلام ، فيقول سبط الجوزى : (حكى ابو القاسم الدمشقى عن اسماعيل بن ابى حكيم المدنى كاتب عمر رضى الله عنه (ت ١٣٠ هـ) قال : بعثنى عمر (بن عبد العزيز) حين ولى الخلافة فى فداء الأسرى فبينما انا بالقسطنطينية ادور سمعت قائلا يترنم : ارقد وغاب عنى من يلوم ولكن لم انم وانا والهموم كأنى من تذكر ما ألاقى اذا أظلم الليل البهيم ، سليم مل اقربوه وودعه المداوى والحميم . . . قال اسماعيل : فوقفت عليه وقلت له : من أنت ؟ قال : أنا الوايفى أسرت فعذبت فدخلت فى دينهم كرها . . . فقال اسماعيل للمتنصر إن أمير المؤمنين بعثنى فى الفداء وأنت أحب من افتديه ، انشدك الله ارجع إلى الإسلام ، فقال : ابعد ما بطنت فى الكفر) .

وهذه الرواية لها اهميتها لأنها مأخوذة عن كاتب من موظفى الخليفة عمر بن عبد العزيز ، عاصر تلك الأحداث ، كما انها تعكس حقيقتين هامتين ، الأولى هى اهتمام عمر بن عبد العزيز بأمر المسلمين لدى البيزنطيين وحرصه على فدائهم والثانية **وجود عدد من المسلمين الأسرى فى القسطنطينية وقد تنصر بعضهم بعد تعذيبٍ والبعض لا يدرى اين هو يعيش بلا حاضر ولا مستقبل .**

وقال ابن ابى الدنيا — ارسل عمر (بن عبد العزيز) رضى الله عنه ، رسولا إلى القسطنطينية ، فخرج يمشى فى أزقتها فسمع قارئا يقرأ القرآن ، فوقف عليه فاذا بأعمى يقرأ القرآن ويطحن فى مدار ، فسلم عليه فقال : أنّى بالسلام فى هذه الأرض ؟ فاخبره أنه رسول عمر ، وقال له : ما الذى اوقعك ها هنا ؟ قال أخذنا **من بعض الطرق فعرض على طاغية الروم النصرانية فابيت فسمل عينى وسيرنى إلى**

هذا الموضع ويبعث إلى فى كل يوم بحنطة أطحنها له ، فلما عد الرسول إلى عمر (رضى الله عنه) فاخبره ، فبكى حتى ابكى الأرض من دموعه ، وقال له عد إلى حالك وقل للطاغية والله لئن لم يبعث إلى بالطحان لأبعثن إليك جنودا أولها عندك وآخرها عندى ، فلما بلغته الرسالة ، قال : ما كنا لنحوج الرجل الصالح لهذا وأقام الرسول عنده اياما) .

ويمضى ابن الجوزى (. . . فدخل عليه يوما ، وهو قاعد على الأرض يبكى فقال له مالك ، فقال اخبرنا سيدنا المسيح أن الرجل الصالح اذا كان بين قوم السوء لم يلبث فيهم الا قليلا يسيرا ثم يخرجه الله من بينهم ، فقال له : وما الخبر ؟ ، قال : مات العبد الصالح ، قال : فقمت وقد ايست من خلاص الطحان ، فقال : اذهب فخذ الطحان ، ما كنت لاخافه حيا واخالفه ميتا .

ولعل القارىء قد لاحظ استحالة تفكير أى مسلم فى السفر إلى البلاد المسيحية فهو يعلم انهم لن يرحموه من التنصير بالاكراه . . . ولذلك فان ما لدينا من وقائع صراعات الحاكم المسيحى ضد المحكوم المسلم الثابت على اسلامه قليل . . . . قليل . . . قليل . . . فى هذه المرحلة .

٢ ـ الصراعات بين أتباع الأسلام وأتباع المسيحية ـ مرحلة الحروب الصليبية

ـ كان بيت المقدس فى أيدى المسلمين منذ الفتح العربى (٦٣٧ م) وكان الخليفة عمر بن الخطاب يرعى حرمة الأماكن المقدسة أيما رعاية ، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره ، فلا ضيقوا على النصارى ولا نالوا بمساءة طوائف الحجاج الوافدين كل عام إلى بيت المقدس من كل فج من أنحاء العالم النصرانى بيد أن الترك السلاجقة بعد فتحهم البلاد (واستيلائهم على بيت المقدس عام ١٠٧٦) لم يجروا على مثل ما جرى عليه العرب من قبلهم ، فالترك كانوا لا يرون لذة فى غير السلب وكره غير المسلمين ، أخذوا يستلبون الأماكن المقدسة ، ويمتهنون حرمة النصارى ، ويحولون دون الحج ، فبات الحج مستحيلا . وفى نفس الوقت كان الترك قد اجتازوا

الحدود البيزنطية ودوخوا آسيا الصغرى تدويخا ، وأخذوا يهددون القسطنطنية وهى الحصن الشرقى الحريز للنصرانية وذلك بعد أنتصارهم فى معركة (منزيكرت) سنة ١٠٧١ .

ـ كل هذا نزل نزول الصاعقة على النصرانية ، فقامت لهذا الخطب وقعدت ، وطفقت أوربة تميد من أقصاها إلى أقصاها مشتعلة بغضا دينيا ومحتدمة غضبا وحنقا وقام ألوف مؤلفة مثل بطرس الناسك يلهبون الصدور نارا دينية ويحضون على حماية بيت المقدس وقبر المسيح ، حتى جن الغرب النصرانى جنونه الكبير ، والتهبت الغيرة الدينية فى كل جارحة من جوارحه وعرق من عروقه ، وغشى التعصب على أبصاره ، فهب يبعث البعوث الصليبية والجحافل الجرارة ، لقتال الشرق الإسلامى فى سبيل الصليب .

ومن ذلك الحين بدأ العراك يشتد وناره تتقد بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى وفى ذروة هذا الحماس الدينى قال البابا أربان الثانى فى أقوى خطبة يحرض الأوربيين (المسيحيين) على محاربة المسلمين ـ

« ياشعب الفرنجة ، ياشعب الله المحبوب المختار . . لقد جاءت من تخوم فلسطين ، ومن مدينة القسطنطينية ، أنباء محزنة تعلن أن جنسا لعينا ابعد ما يكون عن الله ، لقد طغى وبغى فى تلك البلاد ، بلاد المسيحيين ، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب والحرائق ، ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع التعذيب ، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان ، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين كاملين » .

. . . على من إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم ، واستعادة تلك الأصقاع إذا لم يكن عليكم أنتم . . . فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا ، الضريح الذى تمتلكه الآن أمم نجسة ، وغيره من الأماكن المقدسة التى لوثت ودنست .

ـ لا تدعوا شيئا يقعد بكم من أملاككم وأسركم ، ذلك بأن هذه الأرض التى تسكنونها الآن ، والتى تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقلل الجبال ضيقة لا تتسع لسكناها الكثيرين ، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام ومن أجل هذا

يدبح بعضكم بعضا ، ويلتهم بعضكم بعضا ، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم فى الحروب الداخلية».

وأنهى البابا خطبته واعداً المستعمين بنيل مجدا لا يفنى فى ملكوت السموات - ووهب الناس أنفسهم وأموالهم لهذا الجهاد المقدس ، ومن أجل رفع أى قيود على دخول الجميع فى هذه الحرب وبكل ما تحتدهم من امكانات ، حرر رقيق الأرض ، وحرر التابع لاقطاعى طوال مدة الحرب مما عليه من ولاء لسيده ، ومنح جميع الصليبيين ميزة المحاكمة أمام المحاكم الكنسية لا أمام المحاكم الإقطاعية وضمن لهم مدة غيابهم حماية الكنيسة لأملاكهم وأمر بوقف جميع الحروب القائمة بين المسيحيين .

وكان العالم القديم قد كيف نفسه على قبول سيطرة المسلمين على بلاد الشرق الأدنى وكان الفاطميون قد حكموا مصر وفلسطين حكما سمحا رحيما استمتعت فيه الطوائف المسيحية بحرية واسعة فى ممارسة شعائرهم إذا استثنينا بعض الفترات القصيرة مثل فترة الحاكم بأمر الله الذى أله نفسه فكرهه المسلمون والمسيحيون على السواء . . . . ولكن الأمر اختلف بعد ذلك .

- وقال البابا وهو يحرض على الحروب الصليبية (إن تعريض حياتى للخطر فى سبيل تخليص الأماكن المقدسة لهو أفضل عندى من حكم العالم كله) .

- كما كانت مدن بيزا ، وجنوى ، والبندقية وغيرها بايطاليا ترغب فى إكمال سيطرتها على تجارة شعوب البحر الأبيض المتوسط ، ومنها إلى شعوب الشرق الأقصى وأوربا ، ولم يكن يحول دون إكمال هذه السيطرة إلا وجود المسلمين فى شرق وجنوب هذا البحر ، وفى القضاء على الاسلام واتباعه أو السيطرة عليهم فيه تحقيق لمآربهم ومن ثم تعاونوا بالتحريض وبالمعدات وبالمال فى تمويل الحروب الصليبية .

- كما كان من أهداف الحروب الصليبية لدى بابا روما إعادة الكنيسة الشرقية إلى حظيرة الحكم البابوى ، ويرى بعين الخيال عالما مسيحيا عظيم القوة متحدا تحت حكم البابوات الدينى - وروما تعود حاضرة العالم .
(وكل هذا التفكير املته رغبة فى الحكم لا تعلو عليها رغبة) .

ـ وعدا الأهداف الدينية والسياسية . كانت هناك أهـداف لدى البعض فى الاجتماع مع نساء الشرق السمراوات ، وفى تحقيق الثروة وتكـوين الاقطاعيـات وحب المغامرة .

ـ وصدق الأوربيون الأنباء المبالغ فيها عن اضطهاد المسيحيين فى فلسطين وعن المعاملة الوحشية التى يلقونها على أيدى المسلمين .

ـ كما صدقوا أكاذيب عن العقيدة الإسلاميـة وما فيهـا من (زيف وضلال) كعبادتهم تمثالا للنبى محمد . . . وأنه (عليه الصلاة والسلام) قد أصابته نوبة صرع التهمته فى أثنائها الخنازير البرية (؟)

ـ ولما كان الجيش الصليبى سيصل إلى فلسطين عن طريق القسطنطينية والدولة البيزنطية ، وكانت هذه الدولـة تدين بـالمذهب الأرثـوذكسى المخالف للمـذهب الكاثوليكى الذى تدين به أوربا وعلى رأسه البابا فان الجيش الصليبى ، عندما وصل إلى القسطنطينية وهو فى طريقه إلى الشرق ، استحل القتل والسرقة من أعدائه فى (الدين) .

ـ كما كان فرسان الغرب الاشداء نصف الهمج يحتقرون سادة الدولة البينزنطية المثقفين المخادعين ، ويرون أنهم مارقون عن الـدين ، مخنثون متـرفون . وكـانوا ينظرون بعين الدهشة والحسد إلى الكنوز المخزونة فى كنائس العاصمة البيزنطية ، وقصورها وأسواقها ، ويـرون أن هذا الثـراء العظيم يجب أن يكـون من نصيب الشجعان البواسـل . . . ومن ثم بدءوا الحرب الصليبية ضـد مسيحيى الدولـة البيزنطية وخربوا القسطنطينية ونهبوها وقتلوا الرجال وسبوا النساء ودنسوا الكنائس ونهبوها . . . إلخ .

ـ وأراد قسيس أن يشعل الحماسة فادعى أن حربة معه هى التى طعن بها السيد المسيح ونجح فى إشعال الحماسة بقيادة الحربة ولكن ثبت كذبه .

ـ ورغم أن الخليفة الفاطمى عرض على الصليبيـين أن يعقد معهم صلحـا مشترطا على نفسه أن يؤمن الحجاج المسيحيين القادمين إلى أورشليم والذين يأتونها للعبادة ولكنهم رفضوا إلا التسليم بدون قيد أو شرط .

ـ ونجح الصليبيون فى هزيمة المسلمين المحاصرين فى أورشليم ـ وفى هذا يقول القس ريموند الأجيلى شاهد عيان :

« وشاهدنا أشياء عجيبة ، إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رميا بالرصاص ، أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج ، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام ، ثم أحرقوا فى النار . وكنت ترى فى الشوارع أكوام الرؤوس والأيدى والأقدام ، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل » .

ويروى غيره من المعاصرين تفاصيل أدق من هذه وأوفى ، يقولون إن النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحراب ، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأسوار ، أو تهشم الرؤوس بدفنها بالعمد ، وذبح السبعون الفا من المسلمين الذين بقوا فى المدينة ، أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيسة لهم ، وأشعلت فيهم النار وهم أحياء .

واحتشد المنتصرون فى كنيسة الضريح المقدس ، وكانوا يعتقدون أن مغارة فيها احتوت فى يوم ما المسيح المصلوب . وفيها أخذ كل منهم يعانق الآخر ابتهاجا بالنصر .

وعندما استولى الصليبيون على بيت المقدس ، وكان كل مسيحييه (تقريبا) يعتنقون المذهب الأرثوذكسى الشرقى ، تم تحريم هذا المذهب ، وفر البطريق اليونانى إلى قبرص ، وقبلت أبرشيات المملكة الجديدة الشعائر اللاتينية ، والمطران الايطالى والحكم البابوى .

ـ وبمجرد تشكيل الإمارات الصليبية ، دبت عوامل الحسد والكراهية بين أمرائها فشبت بينهم الحروب والصراعات ـ وحصلت المدن التجارية الايطالية على بعض المدن الساحلية نظير ما تقدمه من إعانات مادية للصليبيين .

واتحد المسلمون عندما بدأ الصليبيون فى الهجوم وخاصة عندما أعلن كبيرهم عن عزمه على غزو بلاد العرب ، **وهدم قبر النبى (ﷺ) ، وهدم الكعبة** .

ونقض ريجنلد الهدنة المعقودة لمدة أربع سنوات مع صلاح الدين عام ١١٨٥ فاعترض عام ١١٨٦ قافلة للمسلمين ونهب كثيرا من متاعها وأسر عددا من أفرادها ، ومنهم أخت صلاح الدين ، وقال ريجنلد (إذا كانوا يثقون بمحمد فليأت محمد لينقذهم » . . . . وأقسم صلاح الدين أن يقتل ريجنلد بيده وعندما قبض عليه

صلاح الدين بعد ذلك وأسره ، أنبه فعاب فى الدين فخيره بين الموت أو الإسلام فرفض فأمر بقتله

- . ونظم ريمند ديوبى هيئة دينية تكرس نفسها للعفة ، والفقر ، والطاعة وحماية المسيحيين فى فلسطين والدفاع عنهم دفاعاً عسكرياً . وأمرهم القديس برنارد (الا يغتسلوا إلا نادراً وأن يقصوا شعر رؤ وسهم وأن على المسيحى الذى يقتل غير المؤمن فى الحرب المقدسة ، أن يثق بما سينال من ثواب ، وعليه أن يكون أشد وثوقاً من هذا الثواب إذا قُتل هو نفسه ، وأن المسيحى يبتهج بموت الكافر لأن المسيح يبتهج بهذا الموت) .

ومن الواجب على الناس أن يقتلوا وهم مرتاحو الضمير إذا كانوا يريدون النصر فى الحروب .

- واستولى صلاح الدين على الصليب الذى كان يستعمله الصليبيون كعلم فى معاركهم وأرسله إلى الخليفة فى بغداد .

- وعندما هُزمت اورشليم من صلاح الدين ، لم يعمل فيها قتلاً أو تذبيحاً . . . بل أفرج عن الآلاف بدون فداء . . . ووزع من ماله الخاص الكثير على المغلوبين خاصة النساء والبنات اللاتى قتل أزواجهن وآباؤهن مما أطلق السنتهم بحمد الله ، وبالثناء على ما عاملهم به صلاح الدين من معاملة رحيمة نبيلة .

- ولما تباطأ زعماء عكا المحاصرة من المسيحيين فى تنفيذ شروط ريتشارد ، أمر ريتشارد أن تضرب رؤوس ٢٥٠٠ من الأسرى المسلمين أمام أسوار المدينة ، ورد صلاح الدين بأن أمر بأن يعدم كل من يقع بعدئذ فى الأسر أثناء المعارك مع الملك الانجليزى .

- وعندما رأى صلاح الدين أن ريتشارد يحارب راجلاً ، قال إن من العار أن يقاتل الرجل الشهم راجلاً ، وأرسل إليه حصاناً ليحاربه عليه .

- ولم يذبح أحد من المسيحيين الذين حاصرهم فى يافا ، وكان أن حاربوه بعد ذلك .

ولما اشتدت الحمى على ريتشارد ، طلب فاكهة وشراباً بارداً ، فما كان من صلاح الدين إلا أن بعث إليه بالكمثرى والخوخ والثلج ، وبطبيبه الخاص .

ـ وشجع البنادقة ريتشارد على توقيع الصلح مع المسلمين وترك بيت المقدس لهم مادام تم الاتفاق على حرية العبادة ، إذ كان يهمهم أن تبقى المدن الساحلية لهم للتجارة .

ـ ويقول المؤرخ الاخباري المسيحي لحملة رتشارد الصليبية إن المسيحيين المنتصرين بعد هذا الحصار الطويل ، استسلموا للخمول والترف ، وأبوا أن يغادروا المدينة المليئة بأسباب النعيم ، أحسن أنواع الخمور ، وأجمل الغانيات وأطلق الكثير منهم لشهواتهم العنان فانحلت أخلاقهم ودنسوا المدينة بترفهم حتى أصبح العقلاء يتوارون خجلا من طيشهم وترفهم .

ـ ووصف الحالة ابن جبير الذى طاف بسوريا المسيحية عام ١١٨٣ ـ وكان مما ساءه أن يرى عكا غاصة بالخنازير والصلبان ، تفوح منها رائحة الأوربيين الكريهة وكان يأمل أن يتحضر المسيحيون بالحضارة التى وفدوا إليها والتى هى أرقى من حضارتهم .

ـ وكان سبب انتصار الاسلام هو وحدة واخلاص الزعماء مع اعتدال صلاح الدين وصبره وعدله . . . غلبوا رتشارد وشجاعته ومهارته الحربية لانقسام الزعماء الإقطاعيين على أنفسهم .

ـ وكان صلاح الدين مستمسكا بدينه إلى أبعد حد ، . . . شفيقا على الضعفاء رحيما بالمغلوبين ، يسمو على أعدائه فى وفائه بوعده سموا جعل المؤرخين المسيحيين يعجبون كيف يخلق الدين الإسلامى (الخاطىء) فى ظنهم رجلا يصل فى العظمة إلى هذا الحد . وكان يعامل خدمه أرق معاملة ، ويستمع بنفسه إلى مطالب الشعب جميعها ، وكانت قيمة المال عنده لا تزيد على قيمة التراب . ولم يترك فى خزانته الخاصة بعد موته إلا دينارا واحدا ، وترك لابنه الظاهر قبل موته بزمن قليل وصية لا تسمو فوقها أية فلسفة :

« أوصيك بتقوى الله فأنها رأس كل خير ، وأمرك بما أمر الله به فانه سبب نجاتك وأحذرك من الدماء والدخول بها فأن الدم لا ينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر . فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس ، ولا تحقد على أحد ، فإن الموت لا يبقى على أحد ، واحذر ما بينك وبين الناس فانه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم » .

وكان عدم تمكن أوربـا المسيحية من الاستيـلاء على بيت المقـدس من أيدى المسلمين سببا فى الدعوة الدينية لقيام حروب صليبية أخرى .

ـ وهنا كانت الأهداف الاستعمارية والنهب الاقتصادى للبلاد الأسلامية هى الهدف الأساسى رغم استمرار العمل بالغلاف الدينى .

ـ ففى الحرب الصليبية الرابعة وافقت البندقية على تمويل الحملة فى مقابـل مادى + اختصاصها بنصف الغنائم الحربية ، ولم يكن فى عزم البنادقة مهاجمة مصر لأنهم يكسبون الكثير من معاملاتهم التجارية معها ـ لذلك عقدوا مع سلطان مصر حلفا سريا يضمنون بمقتضاه سلامة بلاده من الغزو ـ ولكن البندقية حصلت على رشوة كبيرة لقاء تحويل الحملة عن فلسطين .

ـ وكان من مصلحة البندقية الماليةُ القضاء على مدِينة زارا المنافسة لها تجاريا وخضبت الحملة يدها بدماء المسيحيين واستولت على أموالهم بعد القضاء على مدينة زارا ، واحتج البابا ، وقرر حرمان المهاجمين من رحمة الكنيسة ، ثم غفر على أن يردوا الاسلاب ، فلم يردوها .

ـ وكانت فكرة الاستيلاء على أغنى مدينة فى أوربا (القسطنطينية) قد أغرت الحملة الصليبية الرابعة على الاستيلاء عليها رغم احتجاجات البابا وتهديده بالحرمان ونكوص الكثير من القيادات عن هذا العمل .

وأتيحت لهم فرصة هذا الاستيلاء عندما استنجد ابن امبراطور بيزنطة بأوربا وبالبابا ، وذلك أن عمه استولى على العرش وسجن أخيه (الإمبراطـور) ثم فقأ عينيه .

ووافق ابن الإمبراطور الشـرعى المسجون عـلى دفع مـائتى ألف مارك فضى للصليبيـين وأن يجهزهم جيشـا عدتـه عشرة آلاف رجـل ، وأن يُخضع الكنيسـة الأرثوذكسية اليونانية لبابا روما وذلك لقاء اعادة والده إلى العرش بعد تحريره من السجن .

ـ وكانت فكرة الأستيلاء على أغنى مدينة فى أوربا (القسطنطينية) قد أغرت الحملة الصليبية الرابعة على الأستيلاء عليها رغم احتجاجات البابا وتهديده بالحرمان ونكوص الكثير من القيادات عن هذا العمل .

وأتيحت لهم فرصة هذا الاستيلاء عندما استنجد ابن امبراطور بيزنطة بأوربا وبالبابا ، وذلك أن عمه أستولى على العرش وسجن أخيه (الأمبراطـور) ثم فقأ عينيه .

ووافق ابن الأمبراطور الشـرعي المسجون عـلى دفع مـائتى ألف مارك فضى للصليبيـين وأن يجهزهم جيشـا عدتـه عشرة آلاف رجـل ، وأن يخضع الكنيسـة الأرثوذكسية اليونانية لبابا روما وذلك لقاء اعادة والده إلى العرش بعد تحريره من السجن .

- وتم تنفيذ الأتفاق وأُفرج عن الإمبراطور المسجون وأُجلس على العرش وذلك بقوة الجيش الصليبي ، إلا أن الامبراطور ماطل في اعداد جيش صليبى وفى دفع المال المتفق عليه وفى تغيير ملهبه الديني .

- ولما يئس الجيش الصليبى من الاستجابة لمطالبه المادية ومطالبه في إعداد الجيش وتغيير المذهب الديني ، انقض على المدينة الغنية في أسبوع عيد الفصح وأتوا فيها من ضروب السلب والنهب ما لم تشهده روما على أيدى الونـدال أو القوط ، صحيح أن عدد القتلى لم يتجاوز ألفين - أما السلب والنهب فلم يقفا عند حد - ووزع الأشراف القصور فيما بينهم ، واستولوا على ما فيها من كنوز ، واقتحم الجنود البيوت والكنائس والحوانيت ، واستولوا على كل مـا راقهم فيها ، وجـردوا الكنائس من الذهب والفضة والجواهر والمخلفات المقدسة التى بيعت بعد ذلك في أوربا بأغلى الأثمان - وعانت كنيسة أيا صوفيا لقد قطع مذبحها العظيم لتوزع فضته وذهبه .

وبذلت محاولات كثيرة للحد من اغتصـاب النساء ، وقنـع كثير من الجنـود بالعاهرات وأخذ أنوسنت الثالث يشكو من أن شهوات اللاتين المكبوتة لم ينج منها الكبار أو الصغار ، ولا الذكور أو الإناث ، ولا أهل الـدنيا أو الـدين ، وأرغمت الراهبات اليونانيات على احتضان الفلاحين أو السائسين البنادقة والفرنسيين وبددت فى أثناء هذا السلب والنهب ، محتويات دور الكتب وأتلفت المخطوطات الثمينـة أو فقدت ، وأندلعت ألسنة النيران مرتين لتأتى على دور الكتب والمتاحف والكنائس والمنازل .

- واقتسم الأمراء الصليبيون الإمبراطوريـة البيزنـطية فيـما بينهم ، وفرضـوا العقيدة اللاتينية ورجالها .

- وحاز البنادقة نصيب الأسد .

وعندما اكتشفوا أن للمسلمين مسجدا يؤدون فيه شعائرهم بالقسطنطينية ثارت ثائرتهم وحرقوا المسجد وقتلوا المصلين - وظلت النار مشتعلة ثلاثة أيام وامتدت إلى مسافة ثلاثة أميال . وأحالت جزءا كبيرا من المدينة رمادا وأنقاضا .

- ثم انتهت الحملة الصليبية الرابعة عند هذا الحد .

- وقامت بين أهل البندقية وجنوى عامى ١٢٥٦ ، ١٢٦٠ حرب داخلية فى ثغور الشام ، وانضمت الأحزاب المتنافرة إلى هذا الجانب أو ذاك . . . وانتهز بيبرس أحد سلاطين مصر هذه الفرصة واستولى على جميع المدن المسيحية . . . . وقُتل من وقع فى الأسر من المسيحيين أو استرقوا . . .

- ولما قام بعض المسيحيين بمهاجمة قافلة للمسلمين فى الشام وشنق تسعة عشر تاجرا منهم ، طلب السلطان ترضية ، فلما رفض الصليبيون حاصر السلطان عكا وفتحها وسمح لرجاله أن يقتلوا أو يسترقوا ستين ألفا من الأسرى . . وسرعان ما وقعت باقى المدن فى أيدى المسلمين .(١٩)

٣ - الصراعات بين أتباع الإسلام وأتباع المسيحية ، مرحلة فتح القسطنطينية وقوة الخلافة العثمانية .

صمد العالم الاسلامى من ١٠٩٥ إلى ١٢٩١ أمام سلسلة من الحملات الدينية العنيفة ، ودفعت سبع حملات صليبية حث عليها اثنا عشر من البابوات أوربا وجيوشها ورعاعها ضد قلاع المسلمين فى آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وتونس .

- وعلى الرغم من إخفاق هذه الحملات (عسكريا) إلا أنها أضعفت المسلمين وأضرت مواردهم ، وخرج المسلمون من إسبانيا ، ومن صقلية ، ثم تعرضوا لغزو المغول الوحشى المدمر (١٢١٩ - ١٢٥٨) فى بلاد ما وراء النهر وفارس والعراق ، وتعرضت مراكز إشعاع الحضارة الإسلامية تلو الأخرى للسلب والنهب والمذابح والحريق . . . . . وأهملت الزراعة ، وأغلقت المدارس ، وتشتت رجال العلم أو ذبحوا ، وتحطمت روح الأسلام نحو قرن من الزمان ، ثم أنبعثت من جديد ، وشق الأتراك العثمانيوّن طريقهم عبر أسيا الصغرى إلى البسفور .

والحريق . . . . . وأهملت الزراعة ، وأغلقت المدارس ، وتشتت رجال العلم أو ذبحوا ، وتحطمت روح الإسلام نحو قرن من الزمان ، ثم انبعثت من جديد ، وشق الأتراك العثمانيون طريقهم عبر اسيا الصغرى إلى البسفور . .

ـ ولم تعرف حضارة أخرى فى التاريخ مثل هذه الكوارث عددا وانتشارا .

ـ ورغم ذلك كله فقد نجح الأتراك العثمانيون فى فتح القسطنطينية والحلول محل الامبراطورية البيزنطية فى ديارها .

ـ وجذب السلطان العثمانى من يشترك فى إخضاع مدينة القياصرة ، فجذب عددا ضخما من المتطوعين لاقوا شرف الاستشهاد . واعتقد المسيحيون أنهم رأوا مريم العذراء فى ثوب بنفسجى تسير فوق الحصن لتلهب شجاعة الجنود .

ـ واخترع البارود ، وأحسن استعماله وتطويره بسرعة مدهشة . . . وكان له أثره فى فتح القسطنطينية .

ـ وحاول الأمبراطور الاستنجاد بالغرب لمواجهة الزحف الإسلامى ، وبعث للبابا بندكت الثانى عشر برسالة يؤكد فيها استعداده لتوحيد العقيدتين بالأقناع ومع الوقت حيث ثبت فشل القوة ، ولاجل تحقيق ذلك لابد أولا من تحرير المسيحين من تحت (النير) الإسلامى .

ـ وهذا لا يتأتى إلا بمساعدة الغرب للشرق فى محنته أولا .

ـ ولكن الغرب قابل كل ذلك بالفتور ، بل وبسخرية واستولى المسلمون على الامبراطورية البيزنطية .

ـ وتطلع المسيحيون الكاثوليك بمزيد من الرضا والاستحسان والفزع إلى السلطان وهو جالس على عرشه ، يضع فى يد حنا ديوس صولجان البطريق (الأرثوذكس) أى عصا الرسل ، وهو رمز المنصب الكنسى ، ويسير بجواره إلى باب السراى ويقدم له جوادا جهز بابهى زينة وأغلاها ويطلب إلى وزرائه وباشاواته أن يكونوا فى معيته إلى قصره الذى خصص لسكناه .

ـ وقد أشار بعضهم إلى أنه يفضل أن يرى فى المدينة عمامة مسلم على أن يرى قبعة كاردينال (رومانى)

ـ ولقد طال أمد الصراع الدينى العسكرى بين المسيحية والاسلام نحو ٩٠٠ سنة فقد بدأ حين انتزع العرب المسلمون سوريا من الأمبراطورية البيزنطية (٦٣٤) . واستمر سنة بعد سنة ، غزا فيها العرب المسلمون هذه

الإمبراطورية . . . وغزا العرب المسلمون إسبانيا . وتأثر العالم المسيحى لهذا الغزو . وحدثت الحروب الصليبية ، وانتقم المسلمون بالاستيلاء على القسطنطينية والبلقان وطردت إسبانيا المسلمين . ودعا البابوات واحدا تلو الاخر لشن حروب صليبية ضد الأتراك ، وأقسم سليم الأول أن يشيد مسجدا فى قلب رومة . وأقترح فرانسوا الأول على الدول الغربية أن تقضى على دولة الأتراك قضاء مبرما وتقتسم ممتلكاتها فيما بينها باعتبارها غنائم من الكفار .

واحبط هذه الخطة انقسام المانيا فى الحروب الدينية ، وثورة إسبانيا ضد شارل الخامس ، ونكوص فرانسوا الأول نفسه عن اقتراحه وتفكيره من جديد فى التماس العون من سليمان ضد شارل .

ـ وحارب القراصنة المسيحيون المسلمين وأغاروا على شواطئهم وعلى تجارتهم فى اخر طرفى البحر المتوسط ، وفعل القراصنة المسلمون نفس الشىء فى الطرف الاخر .

ـ وكان مصير المسلمين الذبح إذا أسرهم فرسان المسيحية فى حملاتهم .

ـ واستولى السلطان على رودس وطرد منها الفرسان المسيحيين .

ـ واستنجد فرانسوا الأول (ملك فرنسا) بالسلطان لمهاجمة المجر ، ولم يستمع أحد لنداءات البابا بالاتحاد لمواجهة الأتراك . . . . ورفض اللوثريون فى ألمانيا المقاومة (باعتبار أن الأتراك زوار من عند الله ، ومقاومتهم هى بمثابة مقاومة الله) .

ـ وحصل السلطان على المجر . . . . وابتهج بذلك الأتراك واللوثريون .

ـ وذاعت الأنباء فى أوربا أن السلطان سليمان أقسم أن يخضع كل أوربا للعقيدة الوحيدة الصحيحة وهى الإسلام ، ولم يتمكن السلطان من فتح فيينا . . . وذلك حيث اتحدت أوربا بما فيهم اللوثريون ضده . . . خشية ابتلاعه لها .

ـ وفى عام ١٥٤٧ ، حين كان السلطان مشغولا بالفرس ، منح الغرب هدنة لمدة خمس سنوات ، ولكن الطرفين نقضاها ، **حيث توسل البابا بول الرابع إلى الأتراك أن يشنوا الهجوم على فيليب الثانى الذى كان بابويا أكثر من البابوات . . .** وفى صلح براج ١٥٩٢ ، اعترف فرديناند بحكم سليمان فى المجر وملدافيا ، وتعهد بدفع جزية ومبالغ كبيرة من المال .

وبسط سليمان سلطانه على مصر وشمال أفريقية وآسيا الصغرى وفلسطين وسوريا والبلقان ، والمجر وسيطرت البحرية التركية على البحر المتوسط ، وأثبت

الجيش التركى شجاعته الفائقة شرقا وغربا وأثبتت الحكومة التركية جدارتها وقدرتها فى فن الحكم والدبلوماسية ، قدر ما كان لمنافسيها .

وفقد المسيحيون رودس وبحرايجه والمجر ، وعقدوا صلحا ذليلا مهينا ، وبات العثمانيون آنذاك أكبر دولة فى أوربا وأفريقية . . . إن لم يكن فى العالم كله .

ـ وتوسع العثمانيون فى الاستيلاء على بعض الممالك الأوربية ، وسقطت مدينة صوفيا حاضرة الصرب فى أيديهم ، واقتحموا بلغاريا حتى بلغوا بحدود دولتهم منطقة الدانوب عام ١٣٨٨ م .

ـ وفى عام ١٣٨٩ قامت دعوة صليبية جديدة فى أوربا لطرد العثمانيين من أملاكهم الأوربية فتقاطر إلى بلاد المجر جموع كثيفة من الجند الألمانى والبافارى والفرنسى والروسى ، وقادهم سيجسموند ملك المجر لحرب العثمانيين الذين خاضوا معهم عدة معارك ضارية ردوهم فيها على أعقابهم بعد أن أنزلوا بهم خسائر فادحة هائلة ، حتى لتقول الرواية بأن السلطان العثمانى جلس من الفحر إلى الساعة الرابعة بعد الظهر أمام فسطاطه حتى تم إعدام أسراه جميعا . هذا إلى جانب أشراف الأوربيين الذين افتدوا أنفسهم بأموال طائلة .

ـ وقطع سليم (العثمانى) على نفسه عهداً بأن يشيد ٣ مساجد ضخمة فى القدس وبودا ، وروما ، إذا من الله عليه بالنصر على الفرس ـ وأشعل نار الحمية الدينية عند شعبه ـ وأنتصر السلطان على المسلمين حتى استولى على الشام ومصر وأستولى على الخليفة العباسى ، وأصبح سلاطين العثمانيين بعد ذلك مثل هنرى الثامن أصحاب السلطة الدينية والدنيوية (سادة الدين والدولة) .

وجهز سليم ، وهو فى أوج مجده ، أعظم قواته لغزو رودس والعالم المسيحى فلما تمت الاستعدادات، أصيب بالطاعون وقضى عليه (١٥٢٠) .

وأمر ليو العاشر الذى كان قد ارتعد فرقا لتقدم سليم أكثر مما ارتعد لظهور مارتن لوثر ـ أمر الكنائس المسيحية باقامة الصلوات شكرا لله .)

ـ وعين السلطان سليم ، وسليمان ـ خير الدين بربروسا حاكما على طرابلس وتونس والجزائر من قبل السلطان فى مقابل تزويده باسطول وتهيأ له بهذا الأسطول نقل سبعين ألفا من المسلمين للعبور إلى أفريقيا من إسبانيا التى فرضت عليهم التنصر أو الطرد ، وأغار على شواطىء إيطاليا ، وأسر آلافا من المسيحيين بيعوا بيع الرقيق .

ـ ثم تمكن الإمبراطور شارل من هزيمة بربروسا ووقف تقدمه ولاذ بالفرار ، وحطم الأرقاء المسيحيون أغلالهم وفتحوا الأبواب . . . وأباح شارل لجنوده السلب والنهب لمدة يومين ، حتى لا يتمردوا . فلقى آلاف من المسلمين حتفهم ودمرت حصيلة قرون من الفنون فى يوم أو يومين ، وحرر الأرقاء المسيحيون ووقع فى العبودية من بقى من السكان المسلمين .

ـ ثم عاد بربروسه لدخول الحرب من جديد وانتصر ، وأصبح سيد البحار وعاد لاغاراته على سواحل أوربا .

ـ ولم يستمع بربروسه إلى اغراءات الإمبراطور ، وأثر جانب الاسلام .

ـ ويقول ول ديورانت :

«وفضلت الأقاليم التى وقعت تحت الحكم الاسلامى ـ رودس ـ اليونان ، البلقان ، فضلت هذا الحكم على أحوالها السابقة فى ظل حكم الفرسان أو البيزنطيين أو البنادقة ، حتى بلاد المجر نفسها ارتأت أن الأحوال فيها صارت تحت حكم سليمان إلى أحسن مما كانت عليه أيام آل هبسرج »

ـ ويمكن أن نعترف بديمقراطية غير مباشرة فى الحكومة العثمانية ، ذلك أن الطريق إلى الرفعة والمكانة العالية ، فيما عدا السلطنة ، كان مفتوحا أمام جميع المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام .

ـ ولكن . . . أى جيش مسيحى جرؤ على الاقتراب من القسطنطينية ؟ لقد كان سليمان سيد البحر المتوسط ، وبدا لبعض الوقت أن رومة ظلت مسيحية لأنه هو وبربروسا سمحا بذلك .

إن السلطان حكم إمبراطورية حكما صالحا يتسم بعدم التحيز ، ولكن كان نجاحه أكبر بكثير من شارل المسكين الذى كان يناضل ضد التمزيق بين الأمراء ، وكان سليمان حاكما مطلقا مستبدا ، يحكم بالشريعة الاسلامية وبالعرف الذى لا نزاع فيه وبرضا شعبه فهل حظى استبداد هنرى الثامن فى انجلترا أو شارل فى إسبانيا بمثل هذا الحب والثقة من الشعب ؟

وكان شارل لا يكاد يكون قادرا على إصدار حكم الاعدام على ابنه لمجرد الارتياب فى خيانته ، ولكن شارل فى شيخوخته كان يرسل الصيحات مطالبا بدم الهراطقة واستطاع هنرى أن يبعث بالزوجات وبالكاثوليك وبالبروتستانت إلى المشنقة أو المحرقة ، دون أن يتخلف وجبة واحدة عن طعامه أما التسامح الدينى عند

سليمان ، ولو كان محدودا ، فإنه بالمقارنة يصم مثل هذا الإعدام بوصمة الهمجية والوحشية)[٢٣]

- وقيل إن السلطان سليمان القانونى قد فكر فى سوء المغبة من بقاء الملايين من الأروام والبلغار والأرمن وغيرهم فى الممالك العثمانية وأحب إخراجهم وقيل بل السلطان سليم ، وكان كل مرة يعترض فى ذلك شيح الاسلام ويقول : ليس لنا عليهم إلا الجزية .

(وفى مدة السلطان ابراهيم العثمانى استولى الترك سنة ١٦٤٥ على خانية عاصمة جزيرة كريد . وكان نصارى كريد يساعدون البنادقة على الأتراك فأراد السلطان أن يقتل نصارى كريد فى مقابلة ذلك لكن المفتى أسعد زاده عارضه فى هذا الأمر معارضة شديدة قائلا إنه مخالف للشرع الإسلامى . فلم يقع سلطان العثمانيين فى الشناعة التى وقع فيها ملوك الاسبان أمام الله والتاريخ) .

- ولكن كان فى الجانب الآخر صراعات دينية مسيحية شرسة ضد المسلمين فى إسبانيا . . .

- ولقد استقر المسلمون فى إسبانيا فى دولة مستقلة لما ينيف على ثمانية قرون ، وكان فيها أغلبية أسلامية ، كما كان للمسيحيين دويلات مستقلة مجاورة للدولة الاسلامية ولكن حدث التفكك والانقسام فى الدولة الاسلامية فانقض عليها مسيحيو إسبانيا الذين لا تقبل مبادؤهم التعايش مع الأديان الأخرى .

- ومن ثم بدأت حرب الإبادة للمسلمين .

(وقال وشنطن ارقين فى تاريخه المشهور لفتح غرناطة ما ملخصه :

(انه بعد دخول هذه البلدة فى حوزة الاسبانيول يقف الحال غير مستتب تماما مدة سنوات إلى أن وقع من اجتهاد رؤساء المذهب الكاثوليكى فى حمل المسلمين هناك على النصرانية ما ايأس مغاربة الجبال المتشددين فى دينهم فثاروا برؤساء الدين الكاثوليكى وقبضوا على اثنين منهم وعرضوا عليهما الإسلام فامتنعا فقتلوهما . وقيل إن النساء والأولاد قتلوهما فعصا بالعصى وشدخا بالحجارة وأحرقوا جثتيهما فانتقم النصارى من هذه الفعلة بأن اجتمع منهم نحو من ثمانمائة فارس وساروا إلى قرى المغاربة يخربون ويعيثون فاعتصم المغاربة بالجبال وانتشرت الفتنه فى الجبال كلها لكن وسطها كان فى جبل (برميجه) المصاقب للبحر - فلما اتصل الخبر بالملك فرديناند أصدر أوامره بنقل المسلمين الساكنين فى جهات الثورة إلى قشتالة وأعطى الأمر سرا

بأن من يدخل منهم فى النصرانية يبقى فى وطنه ثم رمى تلك الأمة بالقائد المشهور (الونزو دواغيلار) ومعه جيش وهو الذى قضى معظم شبابه فى قتال المغاربة ، فلما اقترب من بلادهم حتى هرع جملة وافرة منهم إلى رنده للدخول فى النصرانية وتجمع الباقون منهم تحت قيادة فارس منهم اسمه الفهرى إلى حيث يتعذر السلوك من تلك الأوعار رابطين شعاب الجبال دون مرور عساكر الاسبانيول فتلاقى الجمعان أمام بلدة (مونارده) وانتشب القتال حيث أظهر الفريقان شجاعة نادرة وكان النصر للمسلمين .

وعند وصول هذه الفاجعة إلى الملك زحف بالجيش إلى جبال رنده فسكنت بحضوره الثائرة واشترى بعض المغاربة أرواحهم فجازوا إلى أفريقية واحتمى آخرون بالنصرانية . وأما أهل البلد الذى قتل فيه فرسان الاسبانيول فسلكوا فى سلسلة العبودية).

وذكر المؤرخ الشهير الفرنسى فكتور دروى فى تاريخه ما يأتى ملخصا :

(إن اسبانيا تخلصت من العرب لكنها بقيت حافظة عليهم إحنة شديدة ربتها فى قلوبهم ثمانية قرون قضتها معهم فى الحرب . وكان لذلك سكان الجزيرة اخلاطا من مسلمين ونصارى ويهود فعول فردينند على توحيد الهيئة بوحدة الاعتقاد تعزيزا للدولة فانشأ ديوانا جديدا للتفتيش وكان الملك هو الذى يعين الرئيس والمفتش الكبير ويضع يده على أملاك المحكوم عليهم . وكان هؤلاء فى البداية من النصارى المتهودين والمسلمين المتنصرين ظاهرا والباقين على إسلامهم باطنا . وسنة ١٤٩٢ قرر ديوان التفتيش المذكور طرد اليهود من إسبانيا بعد أن سلبوهم أموالهم . وقد قدر بعض المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة عدد من خرج منهم بثمانمائة ألف . . . وقد هرب جماعة وافرة منهم إلى أزمير والأستانة وسلانيك . . . وقد احتفلوا بعيد مضى أربعمائة سنة على دخولهم بلاد الدولة العثمانية وأكثروا فيه من الدعاء لسلطنة آل عثمان التى هى كهف المطرودين .

وسنة ١٤٩٩ صدر الأمر بسلب المسلمين حريتهم الدينية التى تقررت لهم بموجب عهد غرناطة فجلا منهم جم غفير ، ولم يتم خروجهم جميعا حتى القرن التالى سنة ١٦٠٩ . وهكذا فازت إسبانيا بوحدتها الدينية لكنها خسرت صناعتها وتجارتها اللتين كان العرب واليهود أهم عمادها) .

ـ وذكر مرة عند الكلام على شرلكان أنه أكمل مقصد فردينند فاكره مسلمى بلنسبة على التنصر وأهل غرناطة على ترك زيهم والتكلم بغير لغتهم وقال فى معرض الكلام على فيليب الثانى إنه اضطهد المغاربة وضيق عليهم حتى اضطروا للثورة عليه سنة ١٥٩٦ . . . وانتهى الأمر بهزيمتهم وأصبحوا جميعا أرقاء .

قال المقرى : (ثم إن النصارى نكثوا العهود ونقضوا الشروط عروة عروة إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهرا إلى النصرانية ففعلوا ذلك وتكلم الناس ولا قوة لهم . ثم تعدوا إلى أمر آخر وهو أن يقولوا للمسلم إن جدك كان نصرانيا فأسلم فلترجع أنت نصرانيا . ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم وهذا كان السبب للتنصر : قالوا إن الحكم خرج من السلطان إن من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا أن ينتصر . وبالجملة فأنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة . وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك وأمتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن أخرهم قتلا وسبيا إلا ما كان من جبل فان الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر . ثم بعد هذا كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله فى خفية ويصلى فشدد عليهم النصارى فى البحث حتى إنهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلا عن غيرها من الحديد.وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مرارا ولم يقيض الله تعالى لهم نصرا إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب عام سبعة عشر وألف فخرجت ألوف الناس بفاس وألوف أخر يتلمسان من وهران وجمهورهم خرج بتونس فتسلط عليهم الاعراب ومن لا يخشى الله تعالى فى الطرقات ونهبوا أموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المضرة .

يقول ول ديورانت :

ـ (وبعد خروج اليهود من إسبانيا ، بقى المسلمون يتمتعون بالحرية الدينية وحاولوا تنصيرهم بالطرق السلمية ولما لم يفلحوا أصدروا أمرا يخير المسلمين بين الدخول فى المسيحية وبين مغادرة إسبانيا ، وأغلقت المساجد ، ونصبت المحارق

العامة التى التهمت جميع الكتب والمخطوطات العربية ، وأشرف الملك على التنصير الإجبارى بالجملة .

ـ ولما أحتج المسلمون بأن أسلافهم عندما حكموا إسبانيا سمحوا بالحرية الدينية للمسيحيين إلا فى القليل النادر ، لم يتم التأثر بهذا الكلام .

ـ وحرم على الأطفال المسلمين دون الرابعة عشرة والإناث دون الثانية عشرة أن يغادروا إسبانيا مع ابائهم وسمح للأمراء الإقطاعيين بأن يحتفظوا بارقائهم المسلمين على أن يوضعوا فى الأغلال .

ـ وتعرض الكثيرون لأهوال محكمة التفتيش باعتبارهم متنصرين عادوا إلى ديانتهم السابقة ـ وغادر إسبانيا ثلاثة ملايين مسلم من المتظاهرين بالمسيحية .

ـ وفى عام ١٥٧٠ أنضم الأسبان إلى الحلف الأوربى فى حرب صليبية ضد الإسلام وتنهى سيادة الترك على البحر المتوسط . . . وأنهزم الترك وقضى على تفوقهم فى البحر .

ـ وأعتقد الإسبان أن الكوارث التى نزلت بهم كتحطيم أسطولهم (الأرمادا) إنما نزلت بسبب ايوائهم للكفار (المسلمين) فصدر أمر بطردهم خلال ثلاثة أيام غير حاملين معهم من المتاع أكثر مما تطيقه ظهورهم . وتكررت نفس المناظر التى رافقت طرد اليهود قبل ١١٧ عاما . وأُكرهت الأسر البائسة على بيع أملاكهم بخسائر فادحة . . . وسرق الكثيرون منهم ، وقتل البعض ، وخسرت إسبانيا جهدهم ونشاطهم وكسبت الكثير من ممتلكاتهم .

الباب الثالث

الصراعات الداخلية

بين أتباع الأديان الثلاثة

الفصل الأول

الصراعات اليهودية الداخلية

ـ تصارع أتباع الأديان الثلاثة مع أتباع العقائد الأولى ، ثم مع بعضهم وهاهم يتصارعون مع أنفسهم .

ـ وليس هذا يعنى أن لكل صراع مرحلة تاريخية محددة ، فالصراع بجميع أطرافه قد يقع فى وقت واحد ، وعلى سبيل المثال ، فقد يتصارع أتباع كل من الأديان الثلاثة مع بعضهم ويتصارعون فى نفس الوقت مع أتباع العقائد الأولى .

ـ وفى العصر الحديث ، نجد صراعا بين أتباع الأديان الثلاثة ، ففى الفلبين وفى لبنان صراع بين المسلمين والمسيحيين ، وفى إسرائيل صراع بين المسلمين والمسيحيين فى جانب وبين اليهود فى جانب آخر ، ثم يتصارع المسلمون داخليا فى مصر وفى لبنان وفى غيرهما ، ويتصارع المسيحيون مع بعضهم فى لبنان وفى كافة أنحاء العالم تبعا لاختلاف المذهب الدينى ـ هذا الصراع الذى وان غابت عنه الدماء والحروب فى بعض الأحيان إلا أن وجوده واضح فى مظاهر الجفوة والتباعد بين أتباع المذاهب ، ولنبدأ بنماذج من الصراع الداخلى بين اليهود .

ـ كان من أثر النهضة الصناعية التى قادها الملك سليمان أن وجدت فى أورشليم طبقة من العمال المتعطلين كانوا من عوامل الشقاق السياسى والاجتماعى فى فلسطين . . . وأصبح استغلال الشعب والربا عادة مألوفة بين أصحاب الضياع

الكبرى والتجار والمرابين الذين أحاطوا بالهيكل حتى قال عامون إن الملاك (باعوا البار بالفضة والبائس لأجل نعلين) .

وكانت الثغرة آخذه فى الاتساع بين ذوى الحاجة وذوى اليسار ، وكان النزاع الشديد بين المدن والريف وهو النزاع الذى يصحب على الدوام المدنيات الصناعية من العوامل التى أدت إلى انقسام فلسطين بعد موت سليمان إلى مملكتين متعاديتين مملكة أفرايم الشمالية ومملكة يهوذا الجنوبية وعاصمتها أورشليم ـ وأخذ الضعف من ذلك الحين يدب بين اليهود لما سرى فى قلوبهم من أحقاد ، وما قام بينهم من نزاع كانت تشتعل بينهم بسببه نيران الحرب العوان . ولم يمضى على موت سليمان إلا زمن قليل حتى أستولى شيشنق ملك مصر على أورشليم ، وحتى سلمت له كل ما جمعه سليمان من ذهب بالضرائب التى فرضها على الشعب فى أثناء حكمه الطويل .

ـ وكان هذا الجو المشحون بعوامل التفكك السياسى ، والحرب الاقتصادية والانحلال الدينى ، هو الذى ظهر فيه الأنبياء . . . وكان منهم الحكماء والخطباء والناصحون باتباع سواء السبيل ـ وكان منهم من هم أشد الناس معارضة للكهنة . . . كانوا ثائرين على الأستغلال الصناعى والخداع الكهنوتى ، خرجوا من أحضان الريف الساذج يصبون لعناتهم على ثراء الحواضر الفاسدة .

ـ قال هوشع : « إن عجل السامرة يصير كالسراب ، أنهم يزرعون الريح ويحصدون الزوبعة ، وفى عام ٧٣٣ ق . م هددت أفرايم وحليفتها سوريا ، مملكة يهوذا الناشئة ، فاستغاثت هذه باشور . فاغاثتها واستولت على دمشق ، وعرفت ما يبذله اليهود من جهود للحصول على معونة مصر ، فغزت البلاد يهوذا وعجزت عن الأستيلاء على أورشليم ، ثم عادت جيوشها إلى نينوى مثقلة بالغنائم ومعها ٢٠٠ر٠٠٠ من أسرى اليهود ليكونوا عبيدا للاشوريين .

وتكلم أشعيا وغيره فى مواعظهم عن الأستغلال الأقتصادى والشراهة :
« ويل للذين يقضون أقضية الباطل ، وللكتبة الذين يسجلون زورا ليصدوا الضعفاء عن الحكم ويسلبوا حق بائس شعبى لتكون الأرامل غنيمتهم ، وينهبوا الأيتام .

ـ وهو يزدرى أشد الازدراء من يتظاهرون فى العالم بالتقوى وهم يبتزون أموال الفقراء .

ـ ويختم مواعظه بترديد أمل اليهود فى ظهور من يقضى على ما بينهم من انقسام سياسى ، وخضوع للأجنبى ، وما هم فيه من بؤس وشقاء ، ومن يعيد إلى الأرض الإخاء والسلام .

« ها ، العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانوئيل ، لأنه يولد لنا ولد وتعطى ابنا ، وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيبا مثيرا ، الها قديرا ، أبا أبديا ، رئيس السلام ، ويخرج قضيب من جزع يسى ، ويحل عليه روح الرب ، يقضى بالعدل للمساكين ، ويحكم بالأنصاف لبائسى الأرض ، ويضرب الأرض بقضيب فى فمه ، ويميت المنافق بنفخة شفتيه ، زيكون البر والأمانة منطقه ، ويسكن الذئب مع الخروف ، ويربض النمر مع الجندى والشبل والمسمن معا ، وصبى صغير يسوقها ، فيطبقون سيوفهم سككا ، ورماحهم مناجل لا ترفع أمة على أمة سيفا ، ولا يتعلمون الحرب فيها بعد » .

ـ كان أشعيا وعاموس هما اللذان بدآ فى عصر الحروب يمجدان فضائل البساطة والرحمة والتعاون بين الناس والإخاء ، وهى الفضائل التى جعلها السيد المسيح أساسا جوهريا لدينه ، وكانت فلسفتهم الأخلاقية تقوم على نظرية أن الطيب سوف ينجح ويوفق ، وأن الخبيث سوف يصرع ، كانوا يحبون العدالة ويدعون إلى القضاء بما كان يضعه الأسباط .

ويقول المقريزى عن الفرق الدينية اليهودية وصراعاتها :

اعلم أن اليهود . . . أربع فرق كل فرقة تخطىء الطوائف الأخرى وهى طائفة الربانيين وطائفة القرائين وطائفة العانانية وطائفة السمرة وهذا الاختلاف حدث لهم بعد تخريب بخت نصر بيت المقدس وعودهم من أرض بابل بعد الجلاية إلى القدس وعمارة البيت ثانيا وذلك أنهم فى إقامتهم بالقدس أيام العمارة الثانية افترقوا فى دينهم وصاروا شيعا فلما ملكهم اليونان بعد الاسكندر ، وقام بأمرهم فى القدس هورفانوس بن شمعون وأستقام أمره وسمى ملكا . . . . واجتمع له منزلة الملك ومنزلة الكهونية واطمأن اليهود فى أيامه . . . ولكنهم اختلفوا فى دينهم وتعادوا بسبب الاختلاف وكان

من جملة فرقهم إذ ذاك طائفة يقال لها الفروشيم ومعناه المعتزلة . ومن مذهبهم القول بما فى التوراة على معنى ما فسره الحكماء من أسلافهم .

وطائفة يقال لها الصدوفية نسبوا إلى كبير لهم يقال له صدوف ومذهبهم القول بنص التوراة وما دل عليه القول الالهى فيها دون ما عداه من الأقوال ، وطائفة يقال لهم الجسديم ومعناه الصلحاء ومعناه الاشتغال بالنسك وعبادة الله سبحانه والأخذ بالأفضل والأسلم فى الدين .

وكانت الصدوفية تعادى المعتزلة (الفروشيم) عداء شديدا ، وكان الملك هورفانوس أولا على رأس المعتزلة وهو مذهب آبائه ، ثم أنه رجع إلى مذهب الصدوفية وباين المعتزلة وعاداهم ونادى فى سائر مملكته بمنع الناس جملة من تعلم رأى المعتزلة والأخذ عنهم وتتبعهم وقتل منهم كثيرا ، وكانت العامة بأسرها مع المعتزلة فثارت الشرور بين اليهود واتصلت الحروب بينهم وقتل بعضهم بعضا إلى أن خرب البيت على يد طيطش الخراب الثانى بعد رفع السيد المسيح وتفرق اليهود من حينئذ فى أقطار الدنيا وصاروا ذمة والنصارى تقتلهم حيثما ظفرت بهم إلى أن جاء الإسلام وهم فى تفرقهم ثلاث فرق الربانيون والقراء والسمرة .

الربانية ـ يقال لهم بنومشنو ومعنى مشنو الثانى وقيل لهم ذلك لأنهم يعتبرون أمر البيت الذى بنى ثانيا بعد عودهم من الجلاية وخربه طيطش وينزلونه فى الإحترام والإكرام والتعظيم منزلة البيت الأول الذى ابتدأ عمارته داود وأتمه ابنه سليمان عليهما السلام وخربه بخت نصر فصار كأنه يقال لهم أصحاب الدعوة الثانية .

وهذه الفرقة هى التى كانت تعمل بما فى المشنا الذى كتب بطبرية بعد تخريب طيطش القدس ـ وتعول فى أحكام الشريعة على ما فى التلمود إلى هذا الوقت الذى (نحن) فيه وهى بعيدة عن العمل بالنصوص الإلهية متبعة لآراء من تقدمها من الأحبار ومن إطلع على حقيقة دينها تبين له أن الذى ذمهم الله به فى القرآن حق لا مرية فيه وأنه لا يصح لهم من إسم اليهودية إلا مجرد الإنتماء فقط فهم بعيدون عن أصول دينهم .

القراء ـ هم بنوا مقرا ومعنى مقرا الدعوة وهم لا يعولون على البيت الثانى جملة ودعوتهم إنما هى لما كان عليه العمل مدة البيت الأول وكان يقال لهم أصحاب الدعوة الأولى وهم يحكمون نصوص التوراة ولا يلتفتون إلى قول من خالفها ويتفقون مع

النص دون تقليد من سلف وهم مع الربانيين من العداوة بحيث لا يتناكحون ولا يتجاورون ولا يدخل بعضهم كنيسة بعض ، ويقال للقرائين أيضا المبادية لأنهم كانوا يعملون مبادىء الشهور من الاجتماع الكائن بين الشمس والقمر ويقال لهم أيضا الأسمعية لأنهم يراعون العمل بنصوص التوراة دون العمل بالقياس والتقليد .

العانانية ـ ينسبون إلى عانان رأس الجالوث الذى قدم من المشرق فى أيام الخليفة أبى جعفر المنصور ومعه نسخ المشنا الذى كتب من الخط الذى كتب من خط النبى موسى وأنه رأى ما عليه اليهود من الربانيين والقرائين يخالف ما معه فتجرد لخلافهم وطعن عليهم فى دينهم وازدرى بهم . . . . وكان مما خالف فيه اليهود استعمال الشهور برؤية الأهلة على مثل ما شرع فى الملة الإسلامية وأجمل القول فى المسيح وأثبت نبوة محمد وقال هو نبى أرسل إلى العرب إلا أن التوراة لم تنسخ (والحق أنه أرسل للناس كافة) .

السمرة ـ اعلم أن طائفة السمرة ليسوا من بنى إسرائيل البتة وإنما هم قوم قدموا من بلاد المشرق وسكنوا بلاد الشام وتهودوا ـ ولهم عبادات تخالف ما عليه اليهود ولهم كنائس فى كل بلد تخصهم . . . والسمرة ينكرون نبوة داود ومن تلاه من الأنبياء وابوا أن يكون بعد موسى نبى وجعلوا رؤساؤهم من ولد هارون ويذكر أنهم الذين يقولون لا مساس ويزعمون أن نابلس هى بيت المقدس وهى مدينة يعقوب عليه السلام وهناك مراعيه . وذكر المسعودى أن السمرة صنفان متباينان أحدهما يقال له الكوشان والآخر الروشان أحد الصنفين يقول بقدم العالم والبسامرة تزعم أن التوراة التى فى أيدى اليهود ليست التوراة التى أوردها موسى ويقولون توراة موسى حرفت وغيرت وبدلت وأن التوراة هى بأيديهم دون غيرهم . وذكر أبو الريحان البيرونى أن السامرة تعرف بالأساسية قال : وهم الأبدال الذين بدلهم بخت نصر بالشام حين أسر اليهود وأجلاها وكانت السامرة أعانوه ودلوه على عورات بنى اسرائيل فلم يحاربهم ولم يقتلهم وأنزلهم فلسطين من تحت يده ومذاهبهم ممتزجة من اليهودية والمجوسية وعامتهم يكونون بموضع من فلسطين يسمى نابلس وبها كنائسهم ولا يدخلون بيت المقدس منذ أيام داود النبى عليه السلام لأنهم يدعون أنه ظلم واعتدى وحول الهيكل المقدس من نابلس إلى آيليا وهو بيت المقدس ولا يمسون

الناس وإذا مسوهم اغتسلوا ولا يقرون بنبوة من كان بعد موسى من أنبياء بنى اسرائيل

سعديا بن يوسف

ـ يؤمن سعديا بالوحى والتواتر معا ، أى بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة ولكنه يؤمن أيضا بالعقل ، ويطالب بأن يثبت استنادا إلى العقل صدق الوحى والتواتر . فاذا ما تعارضت نصوص الكتاب المقدس تعارضا صريحا مع حكم العقل ، فلنا أن نفترض أن النص المتعارض لا يقصد به أن تأخذه العقول الناضجة بحرفيته ، ذلك أن الله ليس إنسانا يتصف بما يتصف به البشر ويدل نظام العالم وقوانينه على وجود خالق عاقل مدبر .

وقد تأثر سعديا إلى حد ما بفقهاء الإسلام وسار على نهجهم فى الشرح والإيضاح بل إنه استعار منهم فى بعض الأحيان أساليب الجدل والنقاش . وقد انتشرت آراؤه فى جميع أنحاء العالم اليهودى .

عنن بن داود

ـ لما توفى الأجزيلارك (رئيس اليهود فى المهجر) سليمان ، طالب ابن أخيه عنن بن داود بحقه فى أن يخلفه فى منصبه ، ولكن الزعماء طرحوا مبدأ الوراثة وراءهم ونصبوا حنانيا أخا عنن الأصغر أجزلاركا فى مكانه ، فما كان من عنن إلا أن طعن فى الجاؤنين (رئيس المعهد الدينى اليهودى) وفر إلى فلسطين وأنشأ فيها كنيسا خاصا به ، وطالب اليهود أينما كانوا أن ينبذوا التلمود وألا يطيعوا إلا قوانين أسفار موسى الخمسة . وكان هذا العمل من جانبه عودة إلى الوضع الذى كان عليه الصدوقيون ، وكان شبيها بما ينادى به بعض الشيعة فى الإسلام من نبذ (السنة) النبوية وأتباع القرآن وحده*

وما ينادى به البروتستانت من نبذ التقاليد الكاثوليكية والعودة إلى الأناجيل على أن عنن لم يكتف بهذا بل أخذ يعيد النظر فى أسفار موسى الخمسة ويشرحها شرحا مما يعد خطوة جريئة فى سبيل الدراسة النقدية لنصوص الكتاب المقدس

---

* يقصد فرق الخوارج

واحتج على ما أدخله علماء التلمود من تبديل فى الشريعة الموسوية وما يحاولونه فى تفسيرهم وشرحهم من توفيق بينها وبين الظروف القائمة فى أيامهم وأصر على أتباع ما جاء فى الأسفار الخمسة من أوامر وتنفيذها بنصها ، ولهذا سمى أتباعه بالقرائين (هى من اللفظ الأرامى قرأ أى النص وهذا اللفظ نفسه مشتق من قرأ ، ومنه أيضا القران) ، أى المتمسكين بالنصوص وامتدح عنن عيسى وقال إنه رجل صالح لم يرغب فى نبذ شريعة موسى المدونة ، بل كان كل ما كان يطلبه أن ينبذ الناس قوانين الكتبه والفريسيين الشفوية .

ويرى عنن أن عيسى لم يكن يرغب فى وضع دين جديد ، بل كان يرغب فى تطهير الدين اليهودى وتدعيمه .

وأخيرا نبذ القراءون ما كان ينادي به عنن من تفسير حرفى لنصوص الشريعة وقالوا إن بعث الأجسام وما جاء فى الكتاب المقدس من أوصاف جسمانية لله يجب أن يؤخذ على سبيل المجاز ، ولعلهم فى قولهم هذا كانوا متأثرين بآراء المعتزلة من المسلمين ، فلما فعلوا هذا عاد اليهود الربانيون إلى القول بأخذ عبارات التلمود بنصها وقالوا إن ما ورد فى الكتاب المقدس من عبارات أمثال (يد الله) و (جلوس الله) يجب أن تؤخذ بمعناها الحقيقى ، بل إن بعضهم قد تغالى فى هذا فقدر بالدقة مقاييس جسم الله ، وطول أطرافه ، ولحيته ويقول دون اسحاق ابرابانل المولود فى لشبونة سنة ١٤٣٧ (إن الأحداث والأفكار التى وردت فى الكتب المقدسة يجب تفسيرها على ضوء الحياة الاجتماعية والسياسية فى عصرها .

الفصل الثانى

الصراعات المسيحة الداخلية

- قبل اعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحية كان المسيحيون يكثفون كل قواهم الروحية والجسدية والفكرية للدفاع عن أنفسهم ضد الوثنية ويعملون على القضاء على أتباعها .

- وكانت الإمبراطورية الرومانية تشمل بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط بما فيها مصر والشام .

- فكان اعتناق الإمبراطور قسطنطين للنصرانية نصراً لها لم يتح لها من قبل ، إذ أصبح معها امبراطور أكبر دولة وأقوى دولة فى العالم فى ذلك الوقت .

- وانتهت ، بالنسبة للمسيحية ، قصص الاستشهاد ضد الوثنيين ، لتبدأ قصص الخلافات بين أتباع السيد المسيح عليه السلام .

- ولقد أجمع المؤرخون أن ضحايا المسيحية فى صراعاتها الداخلية يفوق أضعاف وأضعاف ضحاياها فى صراعاتها ضد الوثنية وأتباعها .

- وبمجرد اعتناق قسطنطين للمسيحية ، ظهرت الصراعات الداخلية العنيفة بين المسيحيين .

- وتنقسم الصراعات الداخلية فى المسيحية إلى ثلاث مراحل حسب نوع الصراع ، فالمرحلة الأولى من الصراع تميزت بالصراعات حول شخصية السيد المسيح وتميزت المرحلة الثانية ، وهى تبدأ من أوائل حكم بنى أمية حتى ما قبل

الحروب الصليبية بالصراع حول وسائل التقرب من السيد المسيح فيما يتعلق بالأيقونات والصور والتماثيل لتأثر المسيحية فى هذه المرحلة ببغض المسلمين للشرك المتمثل فى التقرب بالصور ورفات القديسين ، أما المرحلة الثالثة والتى تبدأ من الحروب الصليبية حتى الإصلاح الدينى فقد تميزت بتشكيل الأحزاب الدينية وصراعها فيما بينها حيث أخذت هذه الأحزاب الكثير من الفكر الإسلامى العقائدى والفلسفى مما كان له أثره المباشر فى قلب الفكر الأوروبى رأسا على عقب .

ــ وقام (رجال الدين) بقيادة هذه الصراعات بما لهم من سلطات دينية ودنيوية .

١ ــ الصراعات الدينية من بدء انتشار المسيحية حتى ظهور الإسلام فى الشام وأفريقيا

الخلاف على شخصية السيد المسيح عليه السلام

إذا تجرد الإنسان من معارفه السابقة عن شخصية السيد المسيح . . . فإن شخصيته يمكن أن تقص على الوجه التالى . . .

من بين السكان اليهود الذين كانوا يقيمون فى فلسطين التابعة للدولة الرومانية فى ذلك الوقت ، حملت فتاة اسمها مريَم بحمل استكمل مدته إلى أن ولدته بدون زواج . وبعد سنوات كبر الطفل وظهر فى صورة الرجولة الكاملة لتجول بين يهود فلسطين وبين هياكلهم ومعابدهم منتقدا الكثير من تصرفاتهم غير المتفقة مع التوراة أو مع ما أتى هو به من نظام (انجيل) . . .

وآمن به كالعادة ، الكثير من الفقراء فاتبعوه بينما اعتبره ثراة اليهود ورجال دينهم ثائراً وهرطيقاً ضد الديانة اليهودية وأنه يعمل على أن يكون ملكا على اليهود .

ولكن السيد المسيح لم يأبه لعداوة اليهود ، بل استمر على ابداء رأيه وابلاغ نظامه (الإنجيل) باصرار وبقوة دون خوف أو ضعف ، وفى نفس الوقت خشى أعداؤ ه من اليهود أن تعتقد الدولة الرومانية أن (المسيح) يمثل اليهود فى الثورة ضد الرومان للتخلص من احتلالهم . . . فعملوا على ايغار صدر بيلاطس الحاكم الرومانى لفلسطين المحتلة ضد السيد (المسيح) حيث انتهى الأمر بالحكم عليه بالموت صلبا .

وفى أثناء حياة السيد المسيح حدثت معجزات ، كما حدثت محاورات معه ثم إثباتها فى (الإنجيل) وانتهى الأمر بالاعتقاد بألوهية السيد المسيح .

ومن هنا يبدأ الخلاف على شخصية السيد المسيح بين أتباعه

فهل المسيح هو الإله نفسه ولكن تجسد فى المسيح ؟

هل المسيح فيه جزء بشرى (ناسوتى) وجزء إلهى (لاهوتى) . .

هل المسيح هو ابن الله باللاهوت دون الناسوت (الجسد) .

هل مريم أم الله . . . .

هل الابن (المسيح) مساو للأب (الإله) فى الجوهر ؟

ولأجل أن نتبع مسار أكبر خلافات فى المسيحية فى هذه المرحلة ، فإنه من الضرورى أن نبدأ بعرض قانون العقيدة المسيحية الذى أتفقت عليه المسيحية بجميع ممثليها ورجال الدين فيها فى جميع أنحاء العالم المسيحى فى ذلك الوقت . « نؤمن بإله واحد ، الله الأب ، ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، ما يرى وما لايرى ، ونؤمن برب واحد ، يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد ، المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور ، اله حق، من الله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للأب فى الجوهر ، والذى به كان كل شىء نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء ، اتخذ شكله الأنس من أجل البشر وخلاص البشر . فتألم وصلب فى عهد بيلاطس النبطى ، ودفن وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث كما جاء فى الكتب وصعد إلى السماء » .

هذا هو ما اتفقوا عليه بالاجماع وبدون أى خلافات ، ولو استمروا على ما اتفقوا عليه حتى (الآن) لما ظهرت أى خلافات دينية عن شخصية السيد المسيح .

ولكن قبل أن يمضى عام على اعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحية بدأ بعض (رجال الدين) يبدون الآراء عن شخصية السيد المسيح تخالف ما اتفقوا عليه فى قانون العقيدة المسيحية .

وقاد أول ثورة دينية ضد قانون العقيدة المسيحية القس المصرى آريوس حيث أعلن فيها أن المسيح لم يكن هو والخالق شيئا واحدا ، بل كان هو الكلمة أول الكائنات التى خلقها الله وأسماها .

واستند فى ذلك إلى

- إذا كان الابن من نسل الأب ، فلا بد أن تكون ولادته حدثت فى زمن ، وعلى هذا لا يمكن أن يكون الابن متفقا مع وجود الأب فى الزمن .

- إذا كان المسيح قد خلق فلابد أن يكون خلقه من لا شىء ، أى من غير مادة الأب ، لأن المسيح والأب ليسا من مادة واحدة ، وقد ولد الروح القدس من الكلمة ، وهو أقل ألوهية من المادة نفسها .

- وفى هذا يقول المقريزى :

- وعمل قسطنطين مجمعاً دينياً بنيقية - وسببه أن الاسكندروس بطرك الإسكندرية منع آريوس من دخول الكنيسة وحرمه ، لمقالته ، ونقل عن بطرس الشهيد بطرك الاسكندرية أنه قال عن اريوس إن إيمانه فاسد وكتب بذلك إلى جميع البطاركة فمضى آريوس إلى الملك قسطنطين ومعه أسقفان فاستغاثا به وشكوا الإسكندروس فأمر باحضاره من الإسكندرية فحضر هو وآريوس وجمع له الأعيان من النصارى ليناظروه فقال آريوس كان الأب إذ لم يكن الأبن ثم أحدث الابن فصار كلمة له فهو محدث مخلوق فوض إليه الأب كل شىء فخلق الآبن المسمى بالكلمة كل شىء من السموات والأرض وما فيهما فكان هو الخالق بما أعطاه الأب ثم إن تلك الكلمة تجسدت من مريم وروح القدس فصار ذلك مسيحا فاذا : المسيح معنيان ، كلمة وجسد ، وهما جميعا مخلوقان . فقال الاسكندروس :أيهما أوجب عبادة من خلقنا أو عبادة من لم يخلقنا ، فقال آريوس بل عبادة من خلقنا أوجب . فقال الإسكندروس : فان كان الابن خلقنا كما وصفت وهو مخلوق فعبادته أوجب من عبادة الأب الذى ليس بمخلوق بل تكون عبادة الخالق كفرا وعبادة المخلوق ايمانا ، وهذا أقبح القبيح . فاستحسن الملك قسطنطين كلام اسكندروس وأمره أن يحرم آريوس فحرمه وسأل اسكندروس الملك أن يحضر الأساقفة فحضروا فأمر بهم فأتوه من جميع ممالكه وأجتمعوا بعد ستة أشهر بمدينة نيقية وعدتهم الفان وثلثمائه وأربعون أسقفا مختلفون فى المسيح فمنهم من يقول الابن من الأب بمنزلة شعلة نار تعلقت من شعلة أخرى فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية عنها وهذه مقالة سيليوس الصعيدى ومن تبعه ومنهم من قال إن مريم لم تحمل بالمسيح تسعة أشهر بل مر باحشائها كمرور الماء بالميزاب وهذا قول البان ومن تبعه ومنهم من قال المسيح بشر مخلوق وأن ابتداء الابن من مريم ثم إنه اصطفى فصحبته النعمة الالهية بالمحبة والمشيئة ولذلك سمى

ابن الله تعالى عن ذلك ومع ذلك فالله واحد قيوم،وأنكر هؤلاء الكلمة والروح فلم يؤمنوابها وهذا قول بولص السيمساطى بطرك أنطاكية وأصحابه ومنهم من قال الآلهة ثلاثة صالح وطالح وعدل بينهما وهذا قول مرقيون وأتباعه ومنهم من قال المسيح وأمه إلهان من دون الله وهذا قول المرايمة من فرق النصارى ومنهم من قال بل الله خلق الابن وهو الكلمة فى الأزل كما خلق الملائكة روحا طاهرة مقدسة بسيطة مجردة عن المادة ثم خلق المسيح فى آخر الزمان من أحشاء مريم البتول الطاهرة فاتحد الابن المخلوق فى الأزل بإنسان المسيح فصاروا واحدا ومنهم من قال الابن مولود من الأب قبل كل الدهور غير مخلوق وهو جوهر من جوهرة ونور من نوره وأن الابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصارا واحدا وهو المسيح وهذا قول الثلثمائة وثمانية عشر فتحير قسطنطين فى أخلافهم وكثر تعجبه من ذلك وأمر بهم فأنزلوا فى أماكن وأجرى لهم الأرزاق وأمرهم أن يتناظروا حتى يتبين له صوابهم من خطئهم فثبت الثلثمائة وثمانية عشر على قولهم المذكور واختلف باقيهم فمال قسطنطين إلى قول الأكثر وأعرض عما سواه وأقبل على الثلثمائة والثمانية عشر وأمر لهم بكراس وأجلسهم عليها ودفع إليهم سيفه وخاتمه وبسط أيديهم فى جميع مملكته فباركوا عليه ووضعوا له كتاب قوانين الملوك وقوانين الكنيسة وفيما يتعلق بالمحاكمات والمعاملات . . . . إلخ . . . .

وظهرت بعد ذلك مشكلة نسطورس فاجتمع المجمع الثالث من مجامع النصارى بسبب نسطورس بطرك قسطنطين فانه منع أن تكون مريم أم عيسى وقال إنما ولدت مريم انسانا اتحد بمشيئة الإله يعنى عيسى فصار الاتحاد بالمشيئة خاصة لا بالذات . وأن إطلاق الإله على عيسى ليس هو بالحقيقة بل بالموهبة والكرامة وقال إن المسيح حل فيه الابن الأزلى ، وانى أعبده ، لأن الإله حل فيه ، وانه جوهران ، وأقنومان ، ومشيئة واحدة - وقال فى خطبته يوم الميلاد - إن مريم ولدت إنسانا وأنا لا أعتقد فى ابن شهرين وثلاثة الالهية - ولا أسجد له سجودى للاله - وكان هذا هو اعتقاد تادروس وديوادارس الاسقفين - وكان من قولهما إن المولود من مريم وهو المسيح والمولود من الأب هو الابن الأزلى وأنه حل فى المسيح فسمى ابن الله بالموهبة والكرامة وأن الاتحاد بالمشيئة والارادة وأثبتوا لله تعالى عن قولهم ولدين أحدهما بالجوهر والآخر بالنعمة - فلما بلغ كيرلص بطرك الاسكندرية فعالة نسطورس كتب

إليه يرجعه عنها فلم يرجع فكتب إلى أكليس بطرك رومية وإلى يوحنا بطرك أنطاكية وامتنع نسطورس من المجيء إليهم بعد ما كرروا الإرسال فى طلبه غير مرة فنظروا فى مقالته وحرموه ونفوه فحضر بعد ذلك يوحنا فعز عليه فصل الأمر قبل قدومه وانتصر لنسطورس وقال قد حرموه بغير حق ـ وتفرقوا من أفسس على شر . ثم اصطلحوا ، وكتب المشرقيون صحيفة باماناتهم وبحرمان نسطورس وبعثوا بها إلى كيرلس فقبلها وكتب إليهم بأمانته على ما كتبوا فكان بين المجمع الثانى وبين هذا المجمع خمسون وقيل خمس وخمسون سنة ، وأما نسطورس فإنه نفى إلى صعيد مصر ، فنزل مدينة أخميم وأقام بها سبع سنين ، ومات ودفن بها . . . ودان بعقيدته الكثيرون .

ثم ظهر أوطاخى بالقسطنطينية وزعم أن جسد المسيح لطيف غير مساو لأجسادنا وأن الابن لم يأخذ من مريم شيئا فاجتمع عليه ١٣٠ أسقفا وحرموه .

وكان المجمع الرابع من مجامع النصارى بمدينة مقدونية وسببه أن ديسقورس بطرك الاسكندرية قال ان المسيح جوهر من جوهرين وقنوم من قنومين وطبيعة من طبيعتين ومشيئة من مشيئتين ـ وكان رأى الملك مرقيانوس ملك الروم ، وأهل مملكته ، أنه جسد وجوهران وطبيعتان ومشيئتان وقنوم واحد فلما رأى الأساقفة أن هذا رأى الملك خافوه فوافقوه على رأيه ما عدا ديسقورس وستة أساقفة فانهم لم يوافقوا الملك وكتب من عداهم من الأساقفة خطوطهم بما اتفقوا عليه ، فبعث ديسقورس يطلب منهم الكتاب ليكتب فيه فلما وصل إليه كتابهم كتب فيه أمانته هو ، وحرمهم وكل من يخرج عنها فغضب الملك مرقيانوس وهم بقتله ، فأشير عليه باحضاره ومناظرته فأمر به فحضر وحضر ٦٣٤ أسقفا فأشار الأساقفة والبطاركة على ديسقورس بموافقة رأى الملك واستمراره على رياسته فدعا للملك وقال لهم : الملك لا يلزمه البحث فى هذه الأمور الدقيقة ، بل ينبغى له أن يشتغل بأمور مملكته وتدبيرها ويدع الكهنة يبحثون عن الأمانة المستقيمة فانهم يعرفون الكتب ولا يكون له هوى مع أحد ويتبع الحق ، فقالت بلخارية زوجة الملك مرقيانوس وكانت جالسة بازائه يا ديسقورس ، قد كان فى زمان أمى إنسان قوى الرأس مثلك وحرموه ، ونفوه عن كرسيه ـ تعنى يوحنا فم الذهب بطرك القسطنطينية فقال لها : علمت ما جرى لأمك وكيف ابتليت بالمرض الذى تعرفينه ، إلى أن مضت إلى جسد يوحنا

فم الذهب واستغفرت فعوفيت ـ فحنقت من قوله ولكمته فانقلع له ضرسان وتناولته أيدى الرجال فنتفوا أكثر لحيته ـ وأمر الملك بحرمانه ونفيه عن كرسيه ـ فاجتمعوا عليه وحرموه ونفوه وأقيم عوضه برطاوس .

ومن هذا المجتمع افترق النصارى وصاروا ملكية على مذهب مرقيانوس الملك ويعقوبية على رأى ديسقورس وذلك فى سنة ١٩٣ لدقلطيانوس ـ وكتب مرقيانوس إلى جميع مملكته أن كل من لا يقول بقوله يقتل ـ فكان بين المجمع الثالث وبين هذا المجمع إحدى وعشرون سنة ـ وأما ديسقورس فانه أخذ ضرسيه وشعر لحيته وأرسلها إلى الإسكندرية ـ وقال ـ هذه ثمرة تعبى على الأمانة . فتبعه أهل الإسكندرية ومصر وتوجه فى نفيه فعبر على القدس وفلسطين وعرفهم مقالته فتبعوه وقالوا بقوله . ولما مات مرقيانوس وثب أهل الإسكندرية على برطاوس البطرك وقتلوه فى الكنيسة وحملوا جسده إلى الملعب الذى بناه بطليموس وأحرقوه بالنار من أجل أنه ملكى الاعتقاد فكانت مدة بطركيته ست سنين وأقاموا عوضه طيمانوس وكان يعقوبيا . . . .

ـ وأقيم أبوليناريوس بطركا على مصر ، وكان ملكيا ، فجد فى رجوع النصارى بأجمعهم إلى رأى الملكية وبذل جهده فى ذلك والزم نصارى مصر بقبول الأمانة المحدثة فوافقوه ووافقه البعض ، هذا ويعقوب البراذعى يدور فى كل موضع ويثبت أصحابه على الأمانة التى (أكد) أنها مستقيمة ـ وأمر الملك جميع الأساقفة بعمل الميلاد فى خامس عشرى كانون الأول وبعمل الغطاس لست تخلو من كانون الثانى وكان كثير منهم يعمل الميلاد والغطاس فى يوم واحد وهو سادس كانون الثانى وعلى هذا الرأى الأرمن ـ وفى هذه الأيام ظهر يوحنا النحوى بالإسكندرية وزعم أن الأب والابن وروح القدس ثلاثة آلهة وثلاث طبائع وجوهر واحد ، وظهر يوليان وزعم أن جسد المسيح نزل من السماء وأنه لطيف روحانى لا يقبل الآلام إلا عند مقارفة الخطيئة ، والمسيح لم يقارف خطيئة فلذلك لم يصلب حقيقة ولم يتألم ولم يمت وإنما ذلك كله خيال فأمر الملك طيماناوس أن يرجع إلى مذهب الملكية فلم يفعل فأمر بقتله ثم شفع فيه ونفى وأقيم بدله بولس وكان ملكيا فأقام سنتين فلم يرضه اليعاقبة وقيل إنهم قتلوه وصيروا عوضه بطركا ديلوس وكان ملكيا فأقام خمس سنين فى شدة من التعب وأرادوا قتله فهرب وأقام فى هربه خمس سنين ومات ، وبلغ ملك الروم يوسطيانوس

أن اليعقوبية قد غلبوا على الاسكندرية ومصر وأنهم لا يقبلون بطاركته فبعث أتوليناريوس أحد قواده وضم إليه عسكرا كبيرا إلى الاسكندرية فلما قدمها ودخل الكنيسة نزع عنه ثياب الجند ولبس ثياب البطاركة ، وقدس ، فهم ذلك الجمع برجمه فانصرف وجمع عساكره وأظهر أنه قد اتاه كتاب الملك ليقرأه على الناس وضرب الجرس فى الاسكندرية يوم الأحد فاجتمع الناس إلى الكنيسة حتى لم يبق أحد فطلع المنبر وقال يا أهل الاسكندرية ان تركتم فعالة اليعقوبية وألا أخاف أن يرسل الملك فيقتلكم ويستبيح أموالكم وحريمكم فهموا برجمه ، فأشار إلى الجند ، فوضعوا السيوف فيهم فقتل من الناس ما لايحصى عدده حتى خاض الجند فى الدماء وقيل إن الذى قتل يومئذ مائتا ألف انسان وفر منهم خلق إلى الديارات بوادى هبيب وأخذ الملكية كنائس اليعاقبة .

وكان المجمع الخامس من مجامع النصارى وسببه أن اريحانس أسقف مدينة منبج قال بتناسخ الأرواح وقال كل من أسقف انقره وأسقف المصيصة وأسقف الرها إن جسد المسيح خيال لا حقيقى ، فحملوا إلى القسطنطينية وجمع بينهم وبين بطركها أوطس وناظرهم وأوقع عليهم الحرمان فأمر الملك أن يجمع مجمع وأمر باحضار البطاركة والأساقفة فأجتمع مائة وأربعون أسقفاً وحرموا هؤلاء الأساقفةومن يقول بقولهم فكان بين المجمع الرابع الخلقدونى وبين هذا المجمع ١٦٣ سنة .

- وفى أيام الملك موريق قيصر زعم راهب اسمه مارون أن للمسيح عليه السلام طبيعتين ومشيئة واحدةوأقنوماًواحداًفتبعه على رأيه الكثير فى الشام وجماعة من الروم وهذا هو أصل مذهب المارونية .

- ثم قدم هرقل فقتل الفرس وأقام قيرش بطرك الاسكندرية وكان منانيا وطلب بنيامين ليقتله فلم يقدر عليه لفراره منه وكان هرقل مارونيا فظفر يمينا أخى بنيامين فأحرقه بالنار عداوة لليعاقبة وعاد إلى القسطنطينية . . . . حتى ظهر الاسلام أ . هـ .

- والكاثوليك مع ايمانهم بالطبيعتين ، يعتقدون بأن العذراء هى أم الرب ، فيرد عليهم أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة قائلين (ان اعتقادكم بأن العذراء أم الاله تسليم بطبيعة واحدة للمسيح : فهل ولدت مريم إلها أم انسانا ؟ إن قلتم إلها

ضللتم لأن الإله لا يولد ، وان قلتم إنسانا كانت العذراء أم انسان لا أم اله وذلك تنكرونه ، وان قلتم ولدت إلها وانسانا ، كانت أم اله وأم انسان ، فلها ابنـان ، أحدهما إله والآخر انسان ، وهذا القول ينقضه العقل ويزيفه ، فاذا لا يصح إلا أن الإلـه والانسان صـارا واحدا ، ولـذلك ولـدت مريم واحـدا ، لا هو بـإله عـلى الاطلاق ، ولا هو إنسان على الإطلاق ، ولا هو إله وانسان في وقت واحد ، بل هو إله متأنس ، وهذا هو الحق .

ويقول البطريـرك الاسكندري الكبـير كيرلس الأول ، في كتـاب إلى القيصر تيودوسيوس (إننا لا نعرى الناسوت من الـلاهوت ، ولا نعـرى كلمة الـرب من الناسوت ، بعد ذلك الاتحاد الغامض ، الـذى لا يمكن تفسيره ، بـل نعترف أن المسيح الواحد هو من شيئين قد اجتمعا إلى واحـد مؤلـف من كليهما ، لا بهـدم الطبيعتين ولا باختلاطهما ، بل باتحاد شريف فى الغاية ، ثم بوجه عجيب) .

- وعلى هذا المنوال سارت الخلافات والصراعات الدموية على شخصية السيد المسيح مما أدى إلى انقسام المسيحيين عـلى أنفسهم وتكفير بعضهم بعضـا ومقاتلة بعضهم لبعض .

وانتهى الأمر بانفصال اليعاقبة ، في مصر والشرق عن الكنيسة الملكانية .

(يا أيُها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبارِ والرُهبانِ ليأُكُلونَ أموالَ الناسِ بالباطِلِ ويصُدُونَ عن سبيلِ اللهِ)

التوبة : ٣٤

٢ - الصراعات الداخلية فى المسيحية من ظهور الاسلام حتى الحروب الصليبية :

الخلاف على وسائل التقرب من السيد المسيح :

- من المنطقي أن تكون هناك وسائل للتقرب من الله سبحانه وتعالى تهدف إلى مرضاته والحصول على عونه في الدنيا وفي الآخرة . . . فالصلاة والدعاء والعمـل

بنظام الله سبحانه وتعالى بقلب سليم . ومساعدة الضعيف والمحتاج . . . . إلخ هذه وغيرها وسائل قربى من الله جل شأنه

ـ وكان (المفترض) أن لا تتغير هذه الوسائل فى المسيحية ، إلا أنه حدث أن اتخذ الإنسان وسائل أخرى لعلها تضاعف من تقربه إلى المسيح للاستجابة إلى دعواته وآماله .

ـ وكانت أهم هذه الوسائل (الأخرى) هى التقرب إلى المسيح بالأيقونات والصور والتماثيل ورفات القديسين والشهداء

ـ وذلك أنه بمرور الزمن ، وبحكم الانتصار على الوثنيين ارتفع الإجلال للشهداء . . . ففى العهد الذى تلا تحول قسطنطين إلى المسيحية ، كان الأباطرة والقناصل وقواد الجيوش يزورون فى خشوع أضرحة صناع الخيام وصائدى الأسماك الذين دفنت عظامهم المبجلة تحت هياكل المسيح . . . ونقلت رفات (القديسين) إلى كنائس القسطنطينية وروما .

واستقبل الإمبراطور والشعب والقساوسة الموكب الحامل لرفات صمويل نبى اسرائيل الذى اتوا به من فلسطين إلى القسطنطينية .

وتوطدت أمجاد القديسين والشهداء فى كل مكان ، وفى عصر أمبروز وجيروم كانت قدسية أية كنيسة مسيحية تعتبر مفتقرة إلى ما يكملها ، حتى تقدسها قطعة من رفات مقدسة تدعم ولاء المؤمنين وتلهمه . .

ـ ودلت التجربة على أن بقايا القديسين كانت أكثر قيمة من الذهب أو الاحجار الكريمة وأغرت هذه التجربة رجال الدين على مضاعفة أموال الكنيسة ، وابتدعوا للأسماء أعمالا ، ولوثوا شهرة الرسل وأتقياء الرجال . . ومارس الناس الخرافة التى ضاعفها الغش والتصديق . . . وأخمد ، دون أن يشعر أحد ، نور التاريخ والعقل فى العالم المسيحى .

ـ وتكلم الأساقفة وكبار رجال الدين كثيرا عن الكرامات وعن المعجزات .

ـ وكانت قبور الشهداء هى المسرح الدائم للمعجزات التى تفوق الحصر .

واتجه الناس بتضرعاتهم وبآمالهم وبطلباتهم الدنيوية والروحية إلى القديسين .

وهكذا ترى أن الديانة المسيحية قد حققت فى أقل من قرن واحد ، انتصارا كاملا

نهائيا على الإمبراطورية الرومانية ، غير أن الغزاة أنفسهم خضعوا دون أن يحسوا إلى فنون منافسيهم المقهورين (الوثنيين) .

- وكان الميسحيون الأولون يمقتون أشد المقت استخدام التماثيل والصور الدينية واساءة استخدامها ، وقد ترجع هذه الكراهية إلى أنهم كانوا من نسل اليهود وإلى عداوتهم لليونان . وكانت الشريعة الموسوية قد حرمت كل ما يمثل الله .

- ومن الجائز أن بعض الغنوصيين ، وكانوا قد تحولوا حديثا إلى المسيحية والذين لم يكن ايمانهم كاملا ، كانوا يتوجون تماثيل المسيح والقديس بولس بالكرامات الدنيوية التي أضفوها على تماثيل أرسطو وفيثاغورس .

- وتمثلت أول عبادة للرموز فى تمجيد الصليب وبقايا القديسين ، وتصور الناس أن القديسين والشهداء الذين يطلبون شفاعتهم كانوا يجلسون إلى يمين الله ، غير أن الكرامات والأفعال الخيرة ، الخارقة للطبيعة فى كثير من الأحيان ، والتى كانوا يعتقدون أنها تنهمر حول الأضرحة ، كانت تبرر بصورة أكيدة مسلك الحجاج الأتقياء الذين كانوا يزورون تلك الاثار الخالية من الحياة ، ويلمسونها ويقبلونها ، على أنها اثار لفضائلهم وآلامهم . غير أن الأثر التذكارى الأهم من جمجمة الراحل صاحب الكرامات هو وجود صورة صادقة لشخصه وملامحه من خلق فن الرسم أو النحت .

- .... وفى بادىء الأمر جرت تجربة عبادة الصور والتماثيل فى حرص وتورع ، واتجه استخدام الصور المقدسة فى شىء من الحكمة إلى تهذيب الجهلة ، وأيقاظ ذوى الأيمان الفاتر واشباع تحيز المهتدين الوثنيين . ثم تطور الأمر تطورا بطيئا ، وان يكن حتميا ، فأنتقلت أمجاد الأصل إلى الصورة ، وأخذ أتقياء المسيحيين يقيمون الصلاة أمام القديس ، وتسربت إلى الكنيسة الكاثوليكية شعائر الوثنية المتمثلة فى الركوع ، وايقاد الشموع ، وحرق البخور . وصمت صوت العقل أو التقوى أمام دليل قوى جاءت به الرؤ ى والمعجزات ، وسرى الاعتقاد بأن الصور التى تتكلم ، وتتحرك ، وتنزف الدم ، لابد أن تكون وهبت قوى الهية ، ويمكن اعتبارها موضعا صحيحا للعبادة الدينية .

- ورسموا صوراً للمسيح ،والملائكة والحواريين والقديسين والشهداء ... اخترع ملامحها بعض رجال الدين ، واخترعوا وصف الصورة التى نتجت من مسح

المسيح وجهه على قطعة من القماش . . . وعبدت وعملت عنها أبيات شعر دينى . وقصص عن الصورة المنقذة للمدن من الغزوات والهزيمة .

ـ وفى بدء القرن الثامن ، حين كان سوء استخدام تلك الصور والتماثيل قد بلغ ذروته ، أيقظ اليونان الأكثر تهيبا خوفهم من أنهم ، تحت ستار المسيحية ، قد أعادوا ديانة أبائهم وأجدادهم وسمعوا فى حزن وملل وصمهم بالوثنيين ـ وهى تهمة وجهها اليهم بصورة مستمرة اليهودوالمسلملونالذين استمدوا من شريعة موسى ومن القرآن كراهية دائمة للتماثيل المنحوتة ولكل عبادة لغير الله . ومن الجائز أن عبودية اليهود كبحت حماسهم وأضعفت سلطاتهم ، غير أن المسلمين الظافرين ، الذين حكموا دمشق وهددوا القسطنطينية ، القوا فى نيران التقريع والتأنيب وزنا ثقيلا متراكما ، هو وزن الحق والنصر . . .

وكانت مَدن سوريا وفلسطين ومصر محصنة بصور وتماثيل المسيح وأمه ، وقديسيه وعللت كل مدينة نفسها بالأمل فى دفاع معجز أو أنها وعدت بذلك الدفاع وفى غضون سنوات استغرقتها فتوحات العرب السريعة ، أخضعوا تلك المدن وتغلبوا على تلك التماثيل ، وأصبحت صورة المسيح الالهية ، بعد تغلب الاسلام على مدينة اذاسا ، أسيرة فى أيدى الذين لا يؤمنون (بألوهيته) وشاهدا على انتصارهم .

. . . . واستخدم الرهبان فصاحتهم لمقاومة تحطيم التماثيل التى لم تنجح فى صد الغزو الإسلامى بسبب خطيئة الجزء الأكبر من الشرقيين والشقاق الذى حدث بينهم .

ـ وواجه هؤلاء الرهبان آراء معارضة مستمرة من النصوص والحقائق وما كان يجرى فى عصور المسيحية الأولى .

ـ وبحكم اتصال الأب ليو بالعرب ، كل أولئك بعث فى الفلاح العسكرى الكراهية للتماثيل . ونجح فى القضاء على هذه العادة بمساعدة الإمبراطور ورجال الدين واشتبك الشرق المسيحى والغرب المسيحى فى صراع صاخب دام ١٢٠ سنة .

ـ وحدث اجتماع لرجال الدين ـ وجاء فى قرار تحريم الصور (كل الرموز المرتبة ، إلا فى القربان المقدس ، تعتبر الحادا أو هرطقة ، وأن عبادة الصور هى

افساد للمسيحية وتجديد للوثنية ، وأن الذين يرفضون تسليم الأشياء التى تعبدها خرافاتهم الخاصة ، إنما يقترفون جريرة عصيان سلطان الكنيسة وسلطة الإمبراطور .

ـ وقد وجه أول هجماته العدائية الى تمثال للمسيح فى مدخل القصر وفوق بابه ، وأعد سلما للقيام بهذا الهجوم ، غير أن جمهورا من المتحمسين والنساء طوحوا بالجند فى عنف وقسوة ، وشاهد هؤلاء الناس فى نشوة دينية زبانية التدنيس وهم يسقطون من ذلك الارتفاع ويرتطمون بالأرض .

. . . وقام الناس بالهياج والثورة فى القسطنطينية وفى الولايات لمقاومة تنفيذ القرارات الامبراطورية ، وتعرض شخص الإمبراطور للخطر وذبح ضباطه . . . وقامت الحروب الداخلية الشعبية بقيادة الرهبان (ذوى المصالح المادية فى الصور والتماثيل والكرامات) .

ـ واستولى أسقف اخر على كرسى الدين ، وأعاد الصور إلى مكانتها ـ ثم عاد الإمبراطور المهزوم ليعيد محاربة الصور .

ـ واشتعلت نار العداء بين الامبراطور والرهبان بسبب الصور . . . وأنزلت على رأسه اللعنات الدينية والشعبية .

ـ وقتل الكثيرون .

ـ وانتقل الإمبراطور من معاقبة الأفراد إلى معاقبة الجماعات ، فألغى طائفة الرهبان (مثيرى الفتن) .

ـ وكان الاسم المخيف (التنين) الذى أطلق على رجل يتولى مهمة التفتيش العام ، مصدر فزع وكراهية للرهبان ، وقد حُلت الجماعات الدينية ، وحُولت مبانيهم إلى مخازن وثكنات ، وأمر ملك الروم بمحو الصور من الكنائس وأن لا تبقى صورة فى كنيسة وسبب ذلك أنه بلغه عن قيم كنيسة أنه عمل فى صورة مريم عليها السلام شبه ثدى يخرج منه لبن ينقطر فى يوم عيدها فكشف عن ذلك فاذا هو مصنوع ليأخذ به القيم المال فضرب عنقه وأبطل الصور من الكنائس .(٣)

ولما نبذ الشرق الصابر صوره وتماثيله مرغما كارها ، فقد حرص الايطاليون المستقلون على تقبل هذه العبادة بشغف .

وقامت الحرب بين الإمبراطور فى القسطنطينية وبين شعبه فى ايطاليا بقيادة البابا .

وأرسل الإمبراطور الجيوش إلى ايطاليا التى تجمعت قواها الشعبية ضده .

وُقتل الرجال والنساء . . . وهدمت البيوت وأحرقت وسائل الانتاج .

وتلوثت مياه نهر البو بالدماء إلى درجة أن الناس امتنعوا عن أكل سمك النهر طوال ستة أشهر .

وانتصر البابا الكاثوليكى على جيوش امبراطوره وجمع مجلسا من اساقفته أصدر حرمانا عاما ضد هراطقة محطمى التماثيل الدينية وتماثيل القديسيين سواء بالكلام أو الأعمال، وإنطبق هذا الحكم بصورة ضمنية على الإمبراطور .

وأخيرا قادت الإمبراطورة أيرين فى الإمبراطورية البيزنطية حملة القضاء على أعداء التماثيل الدينية بصورة أكثر جدية وخطورة .

أصدرت مرسوما عاما يقضى بحرية الضمير .

وعاد الرهبان إلى مراكز القوة مع صورهم وتماثيلهم التى اخترعت لها آلاف القصص عن آلامها ومعجزاتها .

ودانت لها الكنيسة الشرقية وأصبحت هى التى تعين الأسقف . . . أى خضعت السلطة الدينية للسلطة الدنيوية .

وكان لابد من عمل مجمع لاصدار قرار بإلغاء القرار السابق بمقاومة الصور والأيقونات .

وكان أعداء التماثيل الدينية الذين جمعتهم يتسمون بالجرأة فى الدفاع عن آرائهم ويكرهون المناقشة . ومع أن صوت الأساقفة كان ضعيفا إلا أن جنود القسطنطينية وشعبها رددوا ذلك الصوت فى صخب أعظم قوة وأشد بأسا . . . . غير أن المماطلة والدسائس وعزل القوات المتمردة أزال العقبات وأصبح ضمير الأساقفة مرة أخرى فى يد الحاكم . وجاء أعداء التماثيل والصور الدينية لا كقضاة بل كمجرمين تائبين ، وأعلنوا بالاجماع أن عبادة الصور والتماثيل الدينية تتفق مع الكتاب المقدس ، ويرتاح لها آباء الكنيسة ومجالسها .

وجاء راهب كان قد عقد هدنة مع شيطان الزنا ، شريطة أن يعترض الشيطان صلواته اليومية التى كان يقدمها لصورة معلقة فى صومعته . غير أن شكوكه دفعته إلى استشارة الكاهن ، فأجاب المفتى قائلا (من الأفضل لك أن ترتاد كل ما خور فى المدينة ، وتزور كل عاهرة ، على أن تتخلى عن عبادة المسيح وأمه فى صورهما المقدسة) .

وكان ثانى هذين الاجتماعين قد عقد ونفذت قراراته تنفيذا صارما بموافقة الملكة أيرين وبحكم سلطانها المطلق ، وأبت هى على خصومها ذلك التسامح الذى منحته فى بادىء الأمر لا صدقائها . وخلال العهود الخمسة التالية - التى استغرقت ثمانية وثلاثين عاما ، ظل النزاع محتدما على أشده ، وكان النجاح حليف أنصار عبادة الصور الدينية مرة ، ومحطمى تلك الصور مرة أخرى

فى انقسام كنيسة القسطنطينية (اليونان) عن كنيسة روما (اللاتينية)

قبل نهاية القرن الثامن ألف كاتب رسولى ، قصة الأحكام التى أصدرها قسطنطين والهبة التى منحها ، وهى العمودان السحريان اللذان ترتكز عليهما مملكة البابوات الروحية والدنيوية .

وتقول القصة ان قسطنطين ، أول الأباطرة المسيحيين شفى من مرض الجذام وتطهر بماء المعمودية ، على يد الأسقف الرومانى القديس سلفستر . فكافأه بأن أنسحب من مقر القديس بطرس فى روما ومن أرضه الموروثة وأعلن عزمه على تأسيس عاصمة جديدة فى الشرق ، وترك للبابوات السيادة المطلقة الدائمة على روما وايطاليا ، وولايات الغرب .

ولقد أثمرت هذه الرواية أنفع الثمار ، فاتهم ملوك اليونان فى القسطنطنية بجريمة الاغتصاب لحكمهم أوربا بدون وجه حق وأصبحت ثورة جريجورى - بابا روما - حقا يطلب بمقتضاه ميراثه الشرعى على روما وايطاليا وولايات الغرب .

ومن أسباب الخلافات الدينية بين كنيسة بيزنطة وكنيسة روما مما أدى إلى استمرار العداء بين أتباع كل منهما واستحلال أتباع كنيسة روما فى أوروبا استباحة

غزو امبراطورية بيزنطة ونهبها وتدنيس مقدساتها وهتك أعراض نسائها وقتل مئات الألوف من النساء والأطفال وغيرهم وبطريقة وحشية .

هذه الخلافات ترجع إلى عدم الاتفاق على الموضوعات التالية :

١ ـ استخدام الخبز بدون خميرة فى تقديم قربان جسد المسيح (فى العشاء الربانى) .

٢ ــ طبيعة المطهر .

٣ ــ سيادة البابا (على جميع الشعوب المسيحية فى أوروبا وامبراطورية بيزنطة أيضا) .

٤ ـ انبثاق الروح القدس الوحيد أو المزدوج .

وكان لكل طرف حججه . . وأيا كان الحال ، فانه رغم المحاولات المتكررة لتحقيق الوفاق بين الكنيستين ، فانهم لم يتفقوا ، ولم يتحدوا لصد الهجوم الناجح للمسلمين الأتراك على الامبراطورية البيزنطية .

وساء الناس فى القسطنطينية ما لرجال الدين فى الكنيسة اللاتينية من سلطة زمنية ، وما تتسم به حياتهم من روح حربية ، وأذكت الحملات الثلاث الأولى إلى الأرض المقدسة والتى عبرت أراضى الامبراطورية البيزنطية روح الكراهية بين اليونانيين واللاتين ، فغدت البغضاء سافرة واضحة ، وتآمر الأباطرة على القضاء على أعظم أمراء الفرنجة بمعاونة المسلمين وقد عاونهم فى سياستهم كل فئات رعاياهم فى طاعة جادة راضية . ويمكن أرجاع جزء كبير من هذا المزاج العدائى إلى الاختلاف فى اللغة واللباس والعادات ، وهى التى نفرق بين أمم العالم وتباعد بين بعضها بعضا .

وأصاب كبرياء الملك جرح عميق لاقتحام جيوش أجنبية مملكته أثناء اتجاههم إلى الشام وبيت المقدس وادعائهم حق المرور فى ممتلكاته وعبور أسوار عاصمته . وقد أهين رعاياه ونهبوا ، وسلبهم الأجانب المتوحشون القادمون من الغرب . وزاد من شدة الكراهية التى أضمرها اليونانيون حسدهم الدفين لمشروعات الفرنجة الورعة . ولكن هذه الأسباب الدنيوية للعداء القوى دعمها والهمها مظاهر الحماس الدينى عند اللاتين. وبدلا من أن يستقبلهم إخوانهم المسيحيون فى الشرق بمظاهر المودة والعطف والكرم ، درب كل لسان على أن يردد اسم المنشق والهرطيق ، وهى

كلمات أقسى على أذن المؤمن صحيح الايمان من لفظى الوثنى والكافر . وبدلا من الشعور بالمحبة نحوهم ، لاتفاقهم فى الدين والعبادة بصفة عامة . أظهروا لهم البغضاء لاختلافهم فى بعض القواعد التنظيمية أو المسائل اللاهوتية ، مما يمكن أن يختلفوا فيه هم أو معلموهم عن الكنيسة الشرقية . ففى الحرب الصليبية التى قام بها لويس السابع ، غسل رجال الكنيسة اليونانية مذابحهم وطهروها لأن قسا فرنسيا دنسها بتقديم قربان عليها . وقد شكا رفاق فردريك مما احتملوا من اساءات على أيدى اليونانيين والسنتهم بسبب الحقد الغريب الذى أظهره الأساقفة والرهبان اليونان الذين أثارت دعواتهم وعظاتهم الأهالى ضد المتبربرين الملحدين (اللاتين) . وقد اتهم البطريرك البينزنطى بأنه أعلن أن المؤمنين يستطيعون أن يحظوا بغفران جميع ذنوبهم بالقضاء على المنشقين قضاء مبرما .

وتعرض اللاتين بالقسطنطينية للقذف كأجانب وهراطقة . . . وقام الأهالى بثورة مسلحة ولم تؤد مقاومة الأجانب اليائسة إلا إلى اثارة جنون السفاحين وشحذ خناجرهم . ولم يكن فى استطاعة السن أو الجنس أو صلات القرابة أن تنقذ ضحايا الكراهية والقومية والحماس الدينى . فذُبح اللاتين فى بيوتهم وفى الطرقات وتحول حيهم إلى رماد ، وأُحرق رجال الدين منهم فى كنائسهم ، والمرضى فى مستشفياتهم ويمكن تقدير عدد القتلى إذا عرفنا عدد من شملتهم الرأفة فبيعوا إلى الأتراك كرقيق ، وكان عددهم يقرب من أربعة آلاف ، وكان القساوسة والرهبان أكثر الناس صخبا ونشاطا فى القضاء على المنشقين . وكانوا يرتلون صلاة الشكر لله عندما تفصل رأس كاردنيال رومانى نائبا للبابا ، عن جسده وتربط إلى ذيل كلب وتجر فى طرقات المدينة وسط السخرية الوحشية . أما أكثر الأجانب يقظة وانتباها ، فقد تراجعوا إلى سفنهم عند أول أنذار ، وهربوا من مشهد الدم مخترقين البسفور . وفى أثناء فرارهم أحرقوا وسلبوا مائتى ميل إلى الساحل ، وأنزلوا انتقاما قاسيا برعايا الامبراطورية الأبرياء ، وأختصوا القساوسة والرهبان بأشد الانتقام ، وعوضوا عن فقد أملاكهم وأصدقائهم بما جمعوا من أسلاب ، وعادوا إلى بلادهم ليؤلبوا اللاتين على فتح القسطنطينية .

وبهذا الانقسام (الثانى) تخرج القسطنطينية واليونان عن دائرة الصراعات الدينية الداخلية كما خرجت مصر والشام من هذه الصراعات بعد الغزو الإسلامى ، حيث استولى على هذه البلاد الأتراك العثمانيون .

٣ ـ الصراعات المسيحية الداخلية من الحروب الصليبية إلى الاصلاح الدينى

غلبت على الصراعات المسيحية الداخلية قبل ظهور الاسلام الصراعات على شخصية السيد المسيح مما أثمر فى النهاية انفصال المذاهب المسيحية فى مصر وشمال أفريقيا والشام عن المذهب المسيحى السائد فى الامبراطورية البيزنطية .

وبعد ظهور الاسلام فى القرن السابع الميلادى ، ومع اختلاط المسلمين بالمسيحيين فى الحروب أو فى التعايش السلمى فى الشام وهو مجاور للامبراطورية البيزنطية دخلت فى المسيحية الكثير من عقائد الاسلام الداعية إلى تكفير كل من يقدس أو يؤله الصور أو التماثيل أو الأيقونات أو غيرها . . . . دون الله .

ومن هنا غلبت على الصراعات فى هذه المرحلة ، الصراعات الخاصة بتقديس أو بعبادة الأيقونات والصور ورفات ومخلفات القديسين والشهداء .

وكان هذا الصراع من العوامل التى فصلت الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية عن الكنيسة الكاثوليكية .

وتجىء الحروب الصليبية والتى استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان حيث أنهزم الغرب عسكريا ولكنه انتصر ثقافيا إذ لم يلبث أن بدأ يعير الكثير من أفكاره وعقائده بعد أن تعرف على المسلمين وعلى دياناتهم وثقافاتهم .

وقبل أن نتعرض لأشكال الصراعات الدينية فى هذه المرحلة فإنه من المهم التعرف أولا على مذهب الروم الكاثوليك فى الفترة من ١٠٩٥ ـ ١٢٩٤ .

مذهب الروم الكاثوليك

كانت عقيدة يوم الحساب أساس المسيحية واليهودية والاسلام ، وبقى الاعتقاد بعودة المسيح إلى الأرض ، ونهاية العالم لتكون هذه العودة وتلك النهاية تمهيدا ليوم الحساب الأخير . . . وظل هذا الاعتقاد قائما حتى ما بعد مرور ألف عام على وفاة المسيح . . . . وكانت كل ظاهرة غير عادية فى الأرض أو فى السماء أو فى الأوبئة تؤكد للناس نهاية العالم .

وكانت تجيش فى صدور الناس آمال غامضة بدخول الجنة ، ولكن رجال الدين كثفوا دعايتهم على الحساب وعلى الجحيم وعلى أهواله حيث البسوا المسيح ثوب القاضى وأشاعوا الرعب فى شكل الشيطان وفى قدراته .

وكان تصوير العذاب وهوله هو أساس الدعاية الدينية حتى إنه يقال إن ملك بلغاريا الوثنى آقتنع بالمسيحية بعد أن صور له الراهب صورا رهيبة للجحيم حيث يلقى الأثمون جزاءهم .

وكان الشيطان فى نظرهم جسما حقيقيا من لحم ودم يغشى العالم فى أى مكان وفى أية لحظة ليغرى الناس بضروب من المغريات ـ وكان من المستطاع عادة طرده بقدر من الماء المقدس أو بعلامة الصليب . . . . وفى هذه الحالة يخلف وراءه رائحة خبيثة هى رائحة الكبريت المحترق . . . وكان الشيطان يتخذ النساء عادة وسيلة ليحقق أغراضه .

وقد وصف الراهب ريكالم أولئك الأبالسة بأنهم (يملأون) العالم كله ، وأن الهواء كله ليس إلا كتلة سميكة منهم يترصدوننا فى كل مكان . . . . ومن أعجب العجائب أن يبقى منا واحد حى ، ولولا رحمة الله لما نجا أحد من شرهم .

وسادت عقيدة أن الأطفال غير المعمدين يلقون فى النار ثم خففت هذه العقيدة إلى الالقاء فى بمبوس حيث لا يلقون عذابهم إلا ما يشعرون به من الألم لأنهم حرموا من الجنة .

وكانت الكثرة الغالبة من المسيحيين تعتقد أن المسلمين جميعا ـ سيلقون فى النار .

ودخلت العقيدة فكرة المطهر ، حيث يتطهر فيه الموتى من ذنوب غفرت لهم ولكنها لم يكفر عنها تكفيرا كافيا بعد موتهم .

وصدق الناس عام ١١٥٣ بوجود عالم سفلى فى الأرض (حيث النار والمطهر)

ومن هنا كانت الصلاة على أرواح الموتى للتكفير عن الذنوب . وهى عادة متوارثة قبل الأديان السماوية .

وكانت الغالبية مؤمنة ، ولكن كان هناك الشكاكون الذين اعترضوا على كل عقيدة وعلى كل شعيرة من الشعائر على أساس أنها اختراع وأوهام ووسائل للكسب .

وكانت كل حادثة تقع فى التاريخ ، تفسر على أساس من الدين .

الأسرار المقدسة

حددت الأسرار المقدسة فى القرن الثانى عشر بسبعة أسرار : التعميد ، تثبيت العماد ، الكفارة ، القربان المقدس ، الزواج ، رتبة الكهنوت ، المسح بالزيت قبل الوفاة .

أما الشعائر الصغرى التى تمنح البركة الألهية كالرش بالماء المقدس أو علامة الصليب فسميت بمتعلقات الأسرار .

التعميد وتثبيت التعميد

كان التعميد أهم الأسرار المقدسة كلها ، وكان يهدف إلى غرضين : محو الخطيئة الأولى ، بحيث يولد الشخص مولدا جديدا يستقبل على أثره فى حظيرة الدين المسيحى . وكان المفروض أن يطلق الأبوان على طفلهما فى هذا الحفل اسم أحد القديسين ، ليكون هذا القديس فى المستقبل شفيع الطفل وقدوته ، وحاميه ، وهذا هو اسمه المسيحى أو الخاص . وقبل أن يحل القرن التاسع كانت طريقة التعميد المسيحية الأولى ـ طريقة غمر الطفل فى الماء كله ـ قد استبدلت تدريجيا بطريقة الرش لأنها أقل خطرا على الصحة من الطريقة الأولى فى الأجواء الباردة الشمالية .

الكفارة

إذا كانت عقائد الكنيسة تلقن الناس أنهم آثمون ، فقد كانت تعرض عليهم وسائل تطهير أرواحهم حينا بعد حين بأن يعترفوا بذنوبهم إلى قسيس ، ويقوموا بمراسم الكفارات وقد ورد فى الانجيل (من الآية ١٩ من الإصحاح السادس عشر والآية ١٨ من الاصحاح الثامن عشر) أن المسيح غفر الخطايا ، وأنه منح الرسل هذه القدرة نفسها ـ وتقول الكنيسة إن هذه القدرة قد انحدرت بالتوارث من الرسل إلى المطارنة الأولين ، ومن بطرس إلى البابوات ثم وهبها المطارنة إلى القسيسين فى القرن الثامن عشر .

العشاء الربانى

كان القداس يبدأ عند أسفل المذبح بهذا النشيد المتواضع: سأدخل فى مذبح الله ، ويضيف إليه السادن ، (إلى الله الذى يضفى البهجة على شبابى) ثم يصعد القس المذبح ويقبله لأنه المكان المقدس الذى أودعت فيه مخلفات القديسين . ويترنم بالدعاء الذى مطلعه كيرى اليسون (ارحمنا ياالله) ويتلو بعدئذ دعاء المجد (المجد لله فى العلا) والدعاء الأساسى الذى مطلعه (نؤمن باله واحد) ثم يدشن قطعا صغيرة من الخبز وقدحا من الخمر لتكون جسم المسيح ودمه بأن يتلو عليها تلك الكلمات : هذا جسدى وهذا دمى) .

ثم يعرض هذه العناصر المتحولة ـ أى ابن الله ـ لتكون قربانا يتقرب به إلى الله واحياء لذكرى التضحية على الصليب . ثم يلتفت القس إلى المصلين ويأمرهم بأن يسموا بقلوبهم إلى الله ، فيرد عليه السادن بوصفه نائبا عن المصلين بقوله : (انا نرفعها إلى الرب) ويتلو القسس بعدئذ (القداس المثلث) و (حمل الله) و (ابانا الذى) ، ويقدم العشاء الربانى للحاضرين .

وبعد أن يؤدى عدة صلوات اضافية ، يتفرق الحاضرون وينصرفون. .

هذه هى شعائر العشاء الربانى كوسيلة من وسائل التقرب من السيد المسيح .

ولكن ـ هل المسيح موجود فى الخبز ودمه موجود فى الخمر الذى أكله وشربه الجميع ؟ . . . أم لم يكن موجودا ؟ .

وهل يصلح هذا العشاء الربانى بالماء بدلا من الخمر ؟ . . . . وهل يجب أن يكون الخبز مخمرا أو غير مخمر ؟

وهل العشاء الربانى نفسه شعيرة من صلب الدين يجب أداؤها؟

وماهى الصفات الشخصية للقائمين بالعشاء الربانى .

هذه أسئلة سألها الكثيرون ودارت عليها صراعات وحروب وقتل وعذب بسبب الخلاف عليها مئات الألوف وكانت من ضمن الأسباب التى أدت إلى انفصال الكنيستين الشرقية والغربية .

صكوك الغفران

فكر البابا ليو العاشر فى انشاء كنيسة بطرسية جديدة تحل محل القديمة التى لم تعد صالحة للترميم ، ولم يكن مفر من اصدار صكوك الغفران لانجاز هذا العمل من حصيلتها ، ولما احتج الملوك على تدفق المال من بلادهم وعد باعطائهم جزءاً من حصيلة بيع الصكوك .

وانتشر مندوبو بيع صكوك الغفران فى كل مكان لبيعها للمؤمنين بمبالغ حسب ما تسمح به مواردهم .

صك الغفران

ألا فليرحمك الرب يسوع المسيح ويغفر لك بفضل ما لقى من آلام مقدسة ، وأنا بتفويض منه ومن رسوليه المباركين بطرس وبولس ، ومن البابا المقدس منح لى وعهد به إلى فى هذه الأجزاء أن أحلك أولا من كل لوم دينى مهما كانت الطريقة التى تعرضت لها ، ثم من كل خطاياك ومن كل تجاوز للحدود وكل افراط فى الملذات مهما بلغت من الجسامة ، بل حتى من أى اثم تحتفظ بتقريره وادراكه للسدة البابوية ، وبقدر ما يمتد نطاق سلطان الكنيسة المقدسة أعفيك من كل عقاب تستحقه فى المطهر بسبب هذه الآثام ، وأعيدك إلى القربان المقدس للكنيسة وإلى البراءة والطهر اللذين حزتهما فى العماد ، ولهذا فانك عندما تموت ستغلق أمامك أبواب العذاب وتفتح لك أبواب جنة النعيم ، وإذا لم تمت الان فإن هذا الفضل سوف يظل فى أوج قوته عندما تصبح على وشك الموت باسم الآب والابن والروح القدس .

وكان لصكوك الغفران التى تمنح لارواح الموتى ، أثر لا يخيب فى نجاتها من المطهر (ما أن ترن قطع النقود فى الخزانة حتى تقفز الروح من نار المطهر) .

ورفض لوثر أن يشهد بفاعلية هذه الصكوك . . . . وحاز غضب البابا .

وكان لوثر ، كعادة غيره من المصلحين ، من رجال الدين الأتقياء ومن أساتذة اللاهوت فى الجامعة .

وكانت الكنيسة تدعى لنفسها حق التجاوز عن العقاب . وذلك بأن تنقل إلى أى تائب مسيحى يقوم بأعمال معينة من التقى أو التصدق قسما صغيرا من كنوز

البركة التى تجمعت من تعذيب المسيح وموته ومن أعمال القديسين الأبرار الذين تزيد حسناتهم على سيئاتهم . وقد منحت صكوك الغفران منذ القرن التاسع ، وأعطى بعضها فى القرن الحادى عشر للحجاج الذين يزورون الأضرحة المقدسة . وكان أول صك بالغفران الكلى هو الذى عرضه اربان الثانى فى عام ١٠٩٥ على من يشتركون فى الحرب الصليبية الأولى . ونشأت من هذه العادة سنة منح صكوك الغفران لمن يتلون أدعية معينة أو يؤدون خدمات دينية خاصة ، أو ينشئون القناطر ، أو الطرق أو الكنائس أو المستشفيات ، أو يقطعون الغابات ، أو يجففون المستنقعات أو يتبرعون بالمال لحرب صليبية أو لهيئة كهنوتية أو لعيد كنسى ، أو حرب مسيحية .

واستخدمت هذه السنة فى كثير من الأغراض الصالحة ولكنها فتحت الأبواب للمطامع البشرية ، فقد بعثت الكنيسة ببعض رجال الدين ، وكانوا فى العادة من الرهبان ليجمعوا المال بأن يعرضوا على الراغبين صكوك الغفران نظير هبات يقدمها المطالبون ، أو توبة من الذنوب ، أو صلوات يؤدونها .

وانتهى الأمر بصكوك الغفران لتكون وسيلة لابتزاز المال من الناس ، تحت عنوان الشعارات الدينية ، بينما كانت حصيلتها تنفق على ملذات دنيوية للبابا ولرجال الدين ولمحصلى مقابل هذه الصكوك .

ومن هنا بدأ الاصلاح الدينى بمهاجمتها

عبادة القديسين ورفات الشهداء

قبل أن يحل القرن العاشر الميلادى ، كانت الكنيسة الكاثوليكية قد اعترفت بخمسة وعشرين ألف قديس .

ومن القديسين عدد كبير اعترفت بهم الكنيسة لأن العامة داوموا على عبادتهم واحياء ذكراهم ، أو لأن مكانا ما قد أصر على هذه العبادة على الرغم من معارضة رجال الدين . وعلقت صور ووضعت تماثيل للقديسين فى الكنائس والميادين العامة ، وفى الطرق ، وفوق المبانى . . . .

وما دام القديسون قد كثر عددهم إلى هذا الحد ، فقد كثرت تبعا لذلك مخلفاتهم ـ عظامهم ، وشعورهم ، وأثوابهم ، وأى شىء استعملوه فى حياتهم وكان المفروض أن كل مذبح يشمل واحدا أو أكثر من واحد من هذه المخلفات فكانت

باسلكا القديس بطرس تباهى بأنها تحتوى جسدى القديسيين بطرس وبولس اللذين أصبحت روما بفضلهما كعبة للحجاج من جميع أنحاء أوربا .

وكانت كنيسة فى سانت أومر تدعى أن فيها قطعا من الصبليب الحقيقى ومن الحربة التى اخترقت جسم المسيح ، وقطعا من مهده ، وقطعا من قبره ، ومن المن الذى نزل من السماء ، ومن عصا هارون ـ ومن المذبح الذى تلا عليه القديس بطرس القداس ، ومن شعر تومس ابكت وقلنسوته ، وقميصه المنسوج من الشعر والشعر الذى جز من مقدم رأسه ، ومن الألواح الحجرية الأصلية التى سجلت عليها الوصايا العشر وعليها أصبح الله نفسه ، وتحتوى كنيسة أمين رأس يوحنا المعمدان فى كأس فضية ، وتدعى واحدة من ثلاث كنائس فى فرنسا أن فى كل منها الأثر الوحيد الباقى من ختان المسيح . وتعرض كنيسة إكستر أجزاء من الشمعة التى استعملها ملاك الله لاضاءة قبر عيسى ، وأجزاء من العشب الذى تحدث منه الله إلى موسى . وفى دير وستمنستر بعض دم المسيح وقطعة من الرخام عليها طابع قدمه .

ويعرض أحد أديرة درهام مفصلا من مفاصل القديس لورنس ، والفحم الذى أحرقه والصفحة التى قدم عليها رأس يوحنا المعمدان إلى هيرود ، وقميص العذراء وقطعة من الصخر عليها علامات نقط من لبنها ، وكانت كنائس القسطنطينية قبل عام ١٢٠٤ غنية أكثر من غيرها بالمخلفات المقدسة ، فكانت فيها الحربة التى نفذت فى جسم المسيح ، والتى لا تزال حمراء بدمه ، والعصا التى ضرب بها ، وقطع كثيرة من الصليب الحقيقى مغلفة بالذهب ، وثريد الخبز الذى قدم ليهوذا فى العشاء الأخير ، وشعرات من لحية المسيح ، وذراع يوحنا المعمدان اليمنى . . . وسرقت هذه المخلفات حتى نهبت القسطنطينية على أيدى المسيحيين الكاثوليك ، ثم اشترى بعضها ، وأخذت تنتقل من كنيسة إلى أخرى فى بلاد الغرب لمن يؤدون أكبر الأثمان . وكانت تعزى إلى جميع المخلفات قوى معجزة ، وتروى مئات الآلاف من القصص عما تحدثه من المعجزات وكان الرجال والنساء يبذلون كل ما فى وسعهم للحصول على أقل اثر ، أو أقل أثر من أثر ليتخذوه طلسما ، كخيط من ثوب قديس وقليل من تباب علبة مخلفات ، أو نقطة زيت من مصباح مقدس فى ضريح ، وكانت

الأديرة تتنافس وتتنازع في جمع المخلفات وعرضها على العباد الأسخياء ، لأن امتلاك المخلفات الشهيرة كان يدر على الدير أو الكنيسة ثروة طائلة .

وحسبنا مثلا لهذا أن نذكر أن (نقل) عظام تومس إلى ضريح جديد فى كنيسة كنتر برى (١٢٢٠) جمع من الذين شاهدوا هذا العمل ما يقدر بنحو ٥٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى ، واجتذب هذا العمل الرابح كثيرا من ممارسيه فكانت مخلفات زائفة كثيرة تباع للكنائس والأفراد ، وكانت بعض الأديرة يغريها الكسب بـ(كشف) مخلفات جديدة حين تحتاج إلى المال . وكان شر هذه المساوىء هو تقطيع الأولياء الأموات ليتيسر لعدد من الأماكن أن يحظى برعاية القديس وقوته .

ومن هنا قاوم الاصلاح الدينى الاتجار فى الأشياء المقدسة . . . ووجد مقاومة عنيفة من الكنيسة ورجالها لأن مكاسب كثيرة كانت تعود عليهم من هذه المتاجرات وقالوا بتحريم تناول السر المقدس على القسيس الذى يتأجر فى المخلفات .

مراسم الزواج والمسح الأخير .

رفعت الكنيسة من شأن عقدة الزواج إلى أكبر حد ، وجعلتها دائمة ، حين جعلت الزواج من الأسرار المقدسة . وحين يحتفل بضم انسان إلى رجال الدين

يهب المطران القس الجديد بعض القوى الروحية التى ورثها عن الرسل والتى يفترضون أن الله نفسه قد وهبها اياهم عن طريق المسيح . وفى آخر الأسرار المقدسة وهو المسح الأخير يستمع القس الى اعترافات المسيحى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة . ويمنحه المغفرة التى تنجيه من النار ، ويمسح أعضاءه حتى تتطهر من الخطيئة ، وتصبح مستعدة للبعث أمام الحكم العدل ، ويدفنه الأحياء من أهله دفنه مسيحية بدل أن يحرقوا جسده كما يفعل الوثنيون .

نشأة الأحزاب الدينية

ولكن كل هذه العقائد بدأت تهتز فى عنف بعد اختلاط معتنقيها بالمسلمين (الكفرة) فى الحروب الصليبية حيث بدأ الغرب يتعرف على الكثير من ثقافة وحضارة هذا الشعب المنتصر .

إنه الإعجاب بحضارة الغالب . . .

ثم يضاعف من هذه النظرة تغلب المسلمين الأتراك على الإمبراطورية البيزنطية وأحتلالهم لشرق أوربا حتى أحاطوابفيينا فى النمسا .

ودهش المسيحيون وصدمت مشاعرهم لأن الله نصر (الكفرة) المسلمين ولم ينصر المسيحيين المؤمنين .

إنها نفس الصدمة التى صدمها الصحابة من نصرة الفرس الكفرة على أهل الكتاب من الروم . . . . وهو قياس مع الفارق . . .

وبدأت أوربا تفيق من توالى هذه الصدمات وتراجع نفسها تجاه معارف وعلوم وعقائد الطرف الغالب .

وكان يجاورهم علوم المسلمين فى إسبانيا ، فقرأوها وتعلموا منها الكثير بعد أن ترجموها إلى لغتهم . .

وأختلط المسلمون والمسيحيون فى جنوبى فرنسا وايطاليا وشرق أوربا وغيرها .

وكان المسلمون يقدسون التوراة ، فعمل المسيحيون نفس الشىء . . . . وأعادوا قراءته . . . وتعرفوا منه ومن القرآن ومن علوم المسلمين ما جعلهم يعيدون النظر فى كثير من العقائد الدينية التى استقروا عليها .

وانه وان كان يقال ان الحملة الفرنسية على مصر فى أواخر القرن الثامن عشر قد فتقت الأذهان بما أدخلته من علوم ومعارف . . . فان نفس الشىء قد حدث لمسيحيى أوربا باختلاطهم بالمسلمين وبدينهم وبعلومهم . . .

لذلك فانك سترى أن الصفة الغالبه فى صراعات هذه المرحلة لها صفة العمومية أى تشمل كل العقائد الدينية المتوارثة ، سواء عن شخصية السيد المسيح ، أو عن وسائل التقرب إليه أو عن نظامه فى الكون وبين البشر أو عن (رجال الدين)

ومن هنا تشكلت الأحزاب الدينية التى حكمت عقلانية ابن رشد وغيره فى كل أمور الدين .

(وانتشرت آراء الفلاسفة الإسلاميين فى أوربا فانعكس ذلك كله على ثورات الإصلاح الدينى)

وكان بعض أصحاب التفكير الحر ، وبعض القساوسة أنفسهم ينكرون تحول العشاء الربانى إلى جسم المسيح وقال البعض إنه أشبه بالوثنية .

وأراد بعض المعتنقين لآراء ابن رشد (ولفكر بعض فلاسفة الإسلام) أن يسترضوا محاكم التفتيش فتقدموا بعقيدة الحقيقة المزدوجة ، فقالوا إن القضية قد تبدو صحيحة من ناحية الفلسفة أو حسب التعليل الطبيعى ، ولكنها مع ذلك قد تكون خاطئة حسب الكتب المقدسة أو الدين المسيحى .

وأدى انتشار فلسفة ابن رشد (الالحادية) إلى أن أمر البابا بتأليف كتاب (فى وحدة العقل ضد فلسفة ابن رشد) .

وانتشر الأساتذة الذين يؤمنون بفلسفة ابن رشد ويعلمونها .

وكان تعذيب وقتل وحرق الأحياء ، ونبش قبور الأموات وحرقهم ، وحرق كتبهم ، ومحاربة أتباعهم .

ومن الوجهة الدينية ، كان الإصلاح الدينى رجوعا إلى أصل العقيدة البسيطة والأخلاق الصارمة فى صدر المسيحية اليهودية .

وكما رجعوا إلى القرآن وعلوم المسلمين ، رجعوا للتوراة . . . وذلك أن عداء البروتستانت للصور الدينية والتماثيل ، كان عودا إلى عداء (اليهودية والإسلام) (للصور المنحوتة) . واحتفلت بعض الفرق البروتستانتية بيوم السبت (مثل اليهود) وان إنكارهم عبادة العذراء وعبادة القديسين ليقترب كثيرا من التوحيد الصارم عند اليهود (وعند المسلمين) .

أن نقاد رجال الاصلاح الدينى اتهموا زعماء الإصلاح (بالتهود) ، وأسموهم (أشباه اليهود) أو (أنصاف اليهود) . وقال كارلستاد نفسه إن ملانكتون (من رجال الإصلاح اللوثرى فى المانيا) أراد أن يرجع إلى موسى وشريعته .

وأعاد حكم كلفن فى جنيف إلى الأذهان تسلط الكهنة فى اسرائيل القديمة .
واتهم زونجلى بأنه متهود لأنه درس العبرية مع اليهود . وبنى كثيرا من عظاته وتعليقاته على النص العبرى للتوراة ، واعترف أنه مفتون باللغة العبرية .

وكانت آلاف العوامل والمؤثرات الكهنوتية والفكرية والعاطفية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية ، تتجمع بعد قرون من التعويض والاضطهاد فى دوامة تقذف بأوربا فى أعظم ثورة شهدتها منذ غزو البرابرة لروما . ثم إن إضعاف البابوية بانقساماتها وصراعاتها وانهيار النظام فى الأديرة وترهب رجال الدين والترف الذى تنعم فيه البطاركة وفساد مجالس القضاء الرومانية ووجوه النشاط المتسم بالاقبال على الدنيا للبابوات وأخلاق الكسندر السادس وحروب يوليوس الثانى والمرح المستهتر الذى عرف به ليو العاشر والاتجار فى المخلفات المقدسة وبيع صكوك الغفران وانتصار الاسلام على العالم المسيحى فى الحروب الصليبية إلى جانب الحروب التركية وازدياد الاتصال بالعقائد غير المسيحية ، وتدفق العلم العربى والفلسفة العربية وتدهور مكانة الفلسفة الكلامية . . . . وفشل حركة التوفيق فى الإصلاح والكشف عن الحضارة الوثنية القديمة واكتشاف أمريكا واختراع الطباعة وانتشار القراءة والكتابة والتعليم وترجمة الإنجيل وقراءته والإدراك الجديد للتناقض بين فقر الرسل وبساطتهم وبين ثراء الكنيسة الفاحش . . . . . ونمو طبقة وسطى ترفض التسليم بقيود رجال الدين والاحتجاج على تدفق الأموال الوطنية إلى روما ، وفتوة الملكية وتقوية القوميات . . . واصلاحات وبتكليف مع المطالبة الصوتية بالتخفيف من الطقوسية فى سبيل ديانة تلتحم بالشخصية والروحية وتتسم بالاتصال المباشر بالإنسان . . . . كل هذا تلاحم فى ثورة عارمة ليقضى على المسيحية التقليدية ليحل محلها العقل بعد التحرر من سلطانها(١٤) .

صراعات رجال الدين

أدت الكنيسة ، فى بداية أمرها ، دورها الدينى والأخلاقى والنظامى . . . . ولكى هذا الحلم اللذيذ قد تحطم على صخرة الطبيعة البشرية ، ذلك أن المشرفين على السلطة القضائية البابوية قد أثبتوا أنهم من طبيعة البشر وأنهم متحيزون جشعون بل نهمون يبتزون الأموال ، وأن الملوك والشعوب أيضا كانوا بشرا مثلهم يرفضون الخضوع لسلطة فوق سلطة أمتهم . وقام فيليب الرابع (فرنسا) يتحدى سلطان البابا بونى فاسى الثامن على أملاك الكنيسة وكلل هذا التحدى بالنجاح ، وزج مندوبو الملك بالبابا الكبير السن فى السجن فى أتيان حيث قضى ثلاثة أيام لم يلبث

بعدها أن وافته المنية (١٣٠٣) وهنا وفى تلك الساعة بدأ الإصلاح الدينى من إحدى نواحيه الأساسية ، وهى خروج الحكام المدنيين على سلطان البابوات .

كتب الأسقف وليام ديوراند سنة ١٣١١ : (أن رجال الدين يضربون لجميع الشعب المسيحى أسوأ المثل فى النهم ، وهذا واضح لا خفاء فيه معروف فى جميع الأقطار لأن رجال الدين أكثر انغماسا فى الترف . . . من الملوك والأمراء) .

وقد رفع الأسقف الاسبانى الفارو بلايسو عقيرته بقوله (إن الذئاب تسيطر على الكنيسة وتمتص دماء الشعب المسيحى) . وقد ذكر ادوارد الثالث ملك انجلترا كلمنت السادس بأن (خليفة الحواريين قد وُكل بأن يقود غنم الرب إلى المَرعى لا بأن يجز صوفها) .

وفى المانيا كان جَباة الضرائب البابوية يطاردون ويسجنون وتقطع أطرافهم ويخنقون وفى عام ١٣٧٢ أقسم رجال الدين فى كولونى وبون ، وغيرها ألا يدفعوا مال الصدقات الذى فرضه عليهم جريجورى الحادى عشر .

على أن البابوات ظلوا رغم هذا التمرد والعصيان يؤكدون سلطانهم الاستبدادى على ملوك الأرض ، وحدث حوالى سنة ١٣٢٤ أن كُتب دفاعا عن البابوية » ان سلطان البابا من سلطان الله وهو نائبه فى الأرض ، وأن طاعته واجبه وأن أثِم أشد الاثم ، ومن حق مجلس الكنيسة العام أن ينزله عن عرشه إذا ثبت كفره والحاده ، فإذا لم يرتكب هذا فمهما يكن ذنبه فان سلطانه لا يعلو عليه إلا سلطان الله وحده وهو أعلى من سلطان جميع ملوك الأرض . ومن حقه أن يخلع الملوك والأباطرة إذا شاء وان عارض فى ذلك رعاياهم أو منتخبوهم ومن حقه أن يلغى قرارات الحكام الدنيويين وأن لا يعبأ بدساتير الدول . وكل ما يصدره الأمراء من قرارات تظل غير ذات أثر إلا إذا وافق البابا عليها . والبابا أعلى مقاما من الملائكة وهو خليق بأن يعظم كما تعظم العذراء ويعظم القديسون وقد ارتضى البابا يوحنا كل هذا وأنه فى رأيه النتيجة المنطقية لما يعتقده الناس كافة من أن الكنيسة قد أنشأها ابن الله » .

ولما مات جريجورى فى عام ١٣٧٨ ختار مجمع الكرادلة ، وكانت أغلبيته الساحقة من الفرنسيين ، (وكان يخشى غضبة روما) ، اختار بابا ايطاليا وهو اربان

السادس ، واكتشفوا فيه حدة الطبع والعنف والاصرار على الاصلاحات التى لا يرتضيها رجال الكنيسة . وبلغ هذا الاصرار حدا أعلن معه الكرادلة الذين عادوا إلى الاجتماع أن اختياره لكرسى البابوية لم يكن قانونيا لأنه تم تحت ضغط الارهاب ، ونادوا لرمبرت من أهل جيف بابا . وتولى رمبرت منصب البابوية وتسمى باسم كلمنت السابع واتخذ أفينيون مقرا له ولكن أصر من جهته على أنه هو البابا وجعل مقره مدينة روما . ومهد الانقسام البابوى (من ١٣٧٨ - ١٤١٧) السبيل لكثير من القوى التى هيأت العمول للاصلاح الدينى وقيام الدول القوية ، فقد كان هذا الانقسام فى واقع الأمر محاولة تبغى بها فرنسا أن تحتفظ بالمعونة الأدبية والمالية التى تمدها بها البابوية فى حربها ضد انجلترا وحذا حذو فرنسا فى هذا نابلى واسبانيا وأسكتلنده ، ولكن انجلترا ، وفلاندرز والمانيا ، بولندا ، بوهيميا ، المجر ، ايطاليا ، البرتغال اعترفت بأربان وأضحت الكنيسة المنقسمة على نفسها سلاحا فى أيدى المعسكرين المتنازعين وضحية لهما .

ونادى نصف العالم المسيحي بأن النصف الآخر ملحد كافر مجدف فى حق الله ، محروم من حظيرة الدين . وادعى كل جانب أن المراسم الدينية التى يقوم بها قساوسة الجانب الآخر المعارض له لا نفع فيها ولا قيمة لها ، وأن الأطفال الذين يعمدهم هذا الجانب أو ذاك ، والتوبة التى تتم على أيديهم ، والموتى الذين يفضون إليهم باعترافاتهم ، كل هؤلاء يبقون مذنبين آثمين ، مآلهم الجحيم - أو المطهر على أقل تقدير .

وكان الاسلام الآخذ وقتئذ فى الانتشار يسر من هذا الانحلال الذى يدب فى جسم العالم المسيحى* .

وكان لأسباب ضعف الايمان الاختلاط بالاسلام فى الحروب الصليبية فقد خلف فى النفوس دهشة أخذت تتناقص على مهل يقول اصحابها كيف سمح رب المسيحية بأن ينتصر الاسلام ، وكان استيلاء الأتراك على القسطنطينية مما قوى هذه الشكوك . ثم يجىء رجال ليؤكدوا أن هبة قسطنطين زيف وزور فيحطون مكانة

(*) كما يسر اليوم العالم المسيحى الغربى من الانحلال الذى يدب فى جسم العالم الإسلامى (وتلك الأيام نداولها بين الناس)

الكنيسة وما تدعيه لنفسها من سلطان زمنى ثم اكتشاف أمريكا واكتشاف شعوب لا تؤمن بالمسيحية ولكن أديانها لا تقل ايجابية عن المسيحية . . . . ثم يعود الرحالة من بلاد (الكفرة) ومعهم عقائد وطقوس أخذت تنازع العبادات والعقائد المسيحية .

وتنبأ ميكافيلى بأن انهيار الكنيسة أو يوم القصاص منها آت لا ريب فيه لما أدخلته على الدين من بعد مؤسسة من أشياء غريبة .

وامتلكت الكنيسة نصف ثروة المانيا (١٥٢٢) ـ أو ثلثها وفى قول آخر خمس أموال فرنسا أو ثلاثة أرباع أموالها فى قول آخر ـ وفى ايطاليا ملكت ثلث شبه الجزيرة فضلا عما كان لها من الأملاك القيمة فى غير تلك الولايات .

وأصبح المال هو الشرط الأساسى لغفران الذنوب وكل على حسب قدراته المالية .

وطلبت الكنيسة المال والهبات والوصايا نظير تلاوة الأدعية والصلوات التى يقولون إنها تقصر المدة التى تقضيها روح الميت لتعاقب من ذنوبها . . . وكان الصالحون الأتقياء من الناس يخصصون من أموالهم جزءا كبيرا لهذا الغرض لتنجو به روح قريب لهم أو ميت فارق الحياة الدنيا أو ليقصروا المدة عن أنفسهم فى المطهر بعد موتهم أو يلغوها الغاء تاما . وأخذ الفقراء يشكون من أن عجزهم عن أداء الأموال نظير الأدعية والصلوات أو لابتياع صكوك الغفران يجعل الأغنياء على الأرض لا الوادعين هم الذين يرثون ملكوت السموات ، ولقد كان كوليس حصيفا حين امتدح المال لأن (من يمتلك المال يستطيع نقل الأرواح إلى الجنة)[١٥] .

وحدث صراع حربى بين الأمبراطور وملك فرنسا حيث انتصر الإمبراطور وأسر ملك فرنسا وطالب بالاستيلاء على كثير من أراضى فرنسا وعلى أن ينضم ملك فرنسا إليه فى غزوة ضد الأتراك .

ولكن ملكة فرنسا رفضت المطالب كلها ، وأعدت جيشا لمحاربة الامبراطور ، وحتى تجعل الامبراطور ينشغل عن حربها ، **استعانت بسلطان الأتراك طالبة منه تأجيل غزوته لبلاد فارس ومحاربة الأمبراطور ، ففعل ذلك وهُزم الامبراطور من الأتراك هزيمة جعلت الامبراطور شارل يؤمن بأن أى أغارة على فرنسا خيانة على العالم المسيحى .**

وذعر الأمبراطور عندما علم - من كلمة وزير السلطان إلى فرديناند ملك النمسا أن حصار الأتراك لفيينا عام ١٥٢٩ ، انما تم استجابة لاستغاثة فرانسيس ولويز وكليمنت السابع لمساعدتهم ضد الأمبراطورية التى كانت تطوقهم . وفضلا عن هذا فان الملك فرانسيس تحالف مع الزعيم التونسى خير الدين باربا روسا الذى كان يكدر صفو التجار المسيحيين فى غربى البحر المتوسط ، ويغير على المدن الساحلية ويسوق الأسرى المسيحيين إلى سوق النخاسة .

واستغلت السذاجة ، جمعت النقود من العامة لمخلفات وهمية نسبوا إليها شفاء معجزا من الأمراض وشكا أحد الأساقفة من (الأحذية المنتنة والأمشاط القذرة والزنارات الرثة وخصلات الشعر والخرق القذرة المقززة والموحى بها للجهلة من الناس ، باعتبارها مخلفات صحيحة لنساء أو رجال مقدسين .

وكان فردريك الأول (١١٥٢ - ١١٩٠) ملك المانيا يتوق لأن يتوج امبراطورا ولم يكن ذلك متيسرا إلا بمساعدة البابا ، وقدم الشاب إلى رومه لنيل التاج ولكنه أغفل الشعيرة المعتادة القاضية بأن يمسك الحاكم الزمنى زمام جواد البابا وركابه ويساعده على النزول ونزل البابا هادريان إلى الأرض من غير معونة وأبى على فردريك (قبلة السلام) وتاج الامبراطورية إلا إذا أدى فردريك هذه الشعيرة وبعد محاولات ستمرت يومين خضع الملك .

وأصر بكت رئيس الأساقفة فى انجلترا على أحقية الكنيسة فى محاكمة رجالها أمام محاكمها الخاصة . . . وأصر ملك انجلترا على عكس ذلك . . . وكانت اضطهادات وتدخل البابا ، فأمر هنرى أن يعيد بكت إلى كرسيه ، وأنذر إذا رفض بأنه سيحرم اقامة الصلوات والخدمات الدينية فى انجلترا . . . وخضع الملك .

وارتفع شأن البابا وعلت مكانته على ملوك أوربا حيث أصبح هو الموجه لسياستها الدنيوية وكذلك أصبح المستمسكون بدينهم خاضعين مباشرة لسلطان البابا .

وأضحى جمع المال سنة متبعة عند البابوات بعد الحروب الصليبية لانجاز أغراض أخرى .

وكثر بيع صكوك الغفران . . . لمن يقوم بالخدمة فى فلسطين أربعين يوما ، ولمن يتكفلون بنفقات محارب ، والذين يؤدون الأموال ليستخدمها البابوات ، والذين يحاربون مع البابا ضد الأمراء والملوك المسيحيين . . . . والذين نكصوا عن قسمهم بالاشتراك فى الحروب الصليبية ، ولكل المحاربين للهراطقة (المسيحيين) .
(ودهش المؤمنون من أن يعد البابوات بغفران جميع خطايا من يسفكون دماء المسيحيين كما تغفر جميع خطايا من يسفكون دماء الكفار) .

وقام المتشككون الجريئون يقولون إن اخفاق الحروب الصليبية يدحض ما يدعيه البابا من أنه نائب عن الله أو ممثله فى أرضه .

ولما أراد الامبراطور فريدريك أن يستولى على الأقاليم التابعة للبابوية ليبسط سلطانه الزمنى على كل أنحاء الامبراطورية ، وقعت معارك كلامية وعسكرية بين الطرفين حيث انقسمت أوربا فريق يؤيد هذا وفريق يؤيد ذاك .

وفى هذا الوقت كان الكثير من (الملحدين) من أهل ميلان المحاصرة يدنسون مذابح الكنائس ويقلبون الصلبان التى تحمل صورة المسيح .

وأصبح البابا قائد الجيوش ضد جيوش الامبراطور .

وأصدر البابا منشورا شديد اللهجة ، **اتهم فيه فردريك بالكفر** ، والتجديف والاستبداد ، وبالرغبة فى القضاء على سلطة الكنيسة ، ثم حرمه فى عام **١٢٣٩** وأمر كل مطران من مطارنة الروم الكاثوليك أن يعلن أنه خارج على القانون ، وأعفى رعاياه من يمين الولاء التى أقسموها له . ورد فردريك على هذا برسالة بعث بها إلى ملوك أوربا ينفى فيها تهمة الكفر(*) ويتهم البابا بأنه يريد أن يخضع جميع الملوك لسلطان البابوية . وأخذ النزاع الأخير بين الامبراطورية والبابوية يجرى مجراه .

وسجن وأسر الكثير من رجال الدين فى الحرب .
وارتاعت أوربا للاعتداء على رجال الدين .

---

* لعل القارىء يلاحظ أن قيام البعض ، من أتباع الدين الواحد بالاسراف فى تكفير الغير ليس جديدا على الانسان

ويلاحظ أن بعض الجماعات (الاسلامية) فى العالم الاسلامى قد ورثت حق تكفير الغير عن باباوات روما .

وكرر البابا قرارات حرمان الامبراطور وأضاف إليها خلعه لأنه رجل فاسد الأخلاق عاق ـ كما أصدر قرارا بحرمان كل من يساعد فردريك ـ ومنح الذين خاضوا الحروب الصليبية ، إذا حاربوا الامبراطور نفس المزايا السابقة .

وأصدر الامبراطور (منشور الاصلاح) يعلن فيه أن رجال الدين عبيد للدنيا منهمكون فى ملذاتهم ، لم تبق ثروتهم المتزايدة على شىء من تقواهم ، ثم بدأ فى مصادرة أملاك الكنيسة ليستخدم ثمنها فى حربه .

وكان أهم مصدر لتمويل التجارة والصناعة وتوسيع نطاقها هو الكنيسة ، وذلك بفضل جمعها المال من كل مسيحيى أوربا ، فأصبح عندها مال فائض مع ما كان يردعه الأفراد عندها من أمانات ، وأقرضت الكنيسة للملوك وللأمراء وللقرويين ورهنت عندها الأملاك . . . وحصلت على فوائد للقروض .

وكانت هذه القروض تستخدم عادة فى الاستهلاك أو فى الأغراض السياسية وقلما كانت تستخدم فى تمويل التجارة والصناعة .

وقاوم البابا ورجال الدين جماعات الشعب المطالبة بالحكم الذاتى للمدن طمعا فى استمرار مكاسبهم المالية والسلطوية .

وحدثت الثورات والحروب بين رجال الدين والشعب ، حيث قتل الكثير من الطرفين واستعمل البابا صكوك الغفران مع من حارب فى صفه ، وصكوك الحرمان لمن تصدى لمحاربته من أهالى المدن المعادية .

ولما أوشكت القسطنطينية أن يستولى عليها الامبراطور من الامبراطور البيزنطى ، طلب البابا من المغول الزاحفة غربا الاغارة على بلاده من جهة الشرق (١٢٤٨) ولكن المغول رفضوا بسخرية قائلين إنهم لا يرغبون فى اثارة الأحقاد بين المسيحيين بعضهم وبعض).

وعين البابا استيفن لانجن ليكون كبيرا للأساقفة (١٢٥٧) واعترض جون ملك انجلترا . . . . وانذر رجال الدين فى بلده (المؤيدين للبابا) بحرق الأديرة فوق رؤوسهم وأقسم (بأسنان الله) بأن ينفى كل قس كاثوليكى من انجلترا إذا أصدر البابا قرارا بحرمانها وبسمل أعين بعضهم ويجدع أنوفهم جزاء وفاقا لهم على فعل رئيسهم . وأصدر البابا قرار الحرمان (١٢٠٨) وأمتنعت كل الخدمات الدينية

فى انجلترا ما عدا التعميد والمسح وقت الوفاة وأغلق القساوسة الكنائس وسكنت الأجراس ، ودفن الموتى فى أرض لم تدشن ورد جون بمصادرة جميع أملاك الكنائس والأدرة وأعطاها لغير رجال الدين وحرم البابا انوسنت الملك من حظيرة المسيحية ولكن حون لم يعبأ بقرار الحرمان . .

ولما تم اقرار مبدأ عدم مشروعية الضرائب إلا بموافقة البرلمان الذى كان رجال الدين أعضاء فيه (فى انجلترا) امتنعوا عن أن ينضموا إلى غبرهم من الطبقات للاقتراع على الأموال المطلوبة - وقال ادوارد الأول إن على الذين يتمتعون بحماية الدولة أن يتحملوا نصيبهم من أعبائها - وأمر الا تنظر المحاكم المدنية فى القضايا التى يكون المدعى فيها أحد رجال الكنيسة ، وأن تنظر فى القضايا التى يكون المدعى عليه فيها رجلاً من رجال الكنيسة . . . . ثم حرم على الكنيسة تملك أرض إلا بموافقة الملك .

ومنح البابا للملك هنرى الثانى (انجلترا (١١٥٤) حق الاستيلاء على أيرلندا فى مقابل أعادة الحكومة النظامية وأن يجعل رجال الدين الايرلنديين أكثر تعاونا مع روما وأن يفرض بنساً واحد فى كل عام على كل بيت فى ايرلنده يؤدى إلى الكرسى البابوى .

ولما حاولت ايرلنده التحرر من سيطرة الانجليز ، انضموا لاسكتلندا (١٣١٥) فأصدر البابا يوحنا الثانى عشر قرارا بحرمان كل من يساعد الاسكتلنديين ولكن الايرلنديين جميعهم تقريبا لم يبالوا بذلك وارتضوا ملكا اسكتلنديا .

وكثرت زيجات فيليب ملك فرنسا ، وأقتنع مجلس أساقفته الفرنسيين بجواز طلاقه من زوجته ، ولم يوافق البابا على الطلاق ، فتحدى فيليب البابا وتزوج فى عام ١١٦٩ بزوجه أخرى ، وحرمه البابا وأمره أن يرجع إلى زوجته الأولى فرفض فحرم البابا جميع الخدمات الدينية فى كل أملاك الملك .

وثار الملك وخلع جميع الأساقفة الذين أطاعوا أمر الحرمان ، وقال فى حسرة (ما أسعد صلاح الدين الذى ليس له من فوقه بابا) .

وهدد باعتناق الاسلام - وواصل حربه الدينية مدة أربع سنوات .

وطلب البابا من الامبراطور فردريك تجهيز حملة صليبية لاستعادة بيت المقدس رغم مرض الامبراطور وتفشى الوباء فى جيشه .

ولما تراخى الملك أعلن البابا على العالم حرمان الأمبراطور .
وبمجرد أن أبحر الامبراطور إلى فلسطين ووصوله عكا قامت الحرب بين البابا وبين نائب الامبراطور لرغبة الأول فى الحصول على أملاك الثانى .

وسقطت فعلا الكثير من أملاك الامبراطور فى أيدى البابا . فى الوقت الذى تمكن فيه الامبراطور من إجراء صلح مشرف مع السلطان الكامل ملك مصر ، وفى أجواء من كراهية ومقاومة وتحقير الكاثوليك ورجال الدين التابعين للبابا فى الشام .

وعاد الامبراطور ليقود حربا ضد البابا ويسترد أملاكه وينتهى الأمر بالصلح (١٢٣٠) والغاء قرار الحرمان
وبمناسبة استيلاء بعض الملوك على بعض أملاك البابوية أو الحصول على ما تفرضه البابوية من أموال على الناس ، أصدر البابا منشوراً يقرر عقوبة الحرمان للمعتدى .

ونشر مرسوم (استمع ياولدى) الصادر من البابا إلى ملك فرنسا على الناس حيث يطلب البابا فى المقدمة من الملك أن يستمع إليه فى خشوع بصفته ، **أى البابا ، خليفة المسيح بوصفه الملك الروحى على جميع ملوك الأرض** ، ثم احتج على محاكمة رجل دين أمام المحاكم المدنية ، وعلى الاستيلاء على أموال الكنيسة لاستخدامها فى أغراض مدنية .

ولكن الملك أمر بأن يحرق هذا المرسوم فى حضرته وأمام جمهور كبير من الناس .
ودافعت جميع القيادات الفرنسية عن حقوق الملك الزمنية .
واليك نص المرسوم البابوى الصادر من البابا نقولاس الثالث (١٢٨٠) :
«نعلن بهذا حرمان جميع الضالين ونصب عليهم اللعنة ، الكاثارى ، البتارين رجال ليون الفقراء . . . وكل من عداهم أيا كان الاسم الذى يسمون به . . . . فاذا أدانتهم الكنيسة وجب إسلامهم إلى القاضى الزمنى لمعاقبتهم . . . . . الخ »

محاكم التفتيش

كان الشعب نفسه ، إلا فى جنوبى ايطاليا وفرنسا لقربهما من العالم الاسلامى ، أشدَ الناس حماسة فى اضطهاد المخالفين ، وقد يكون هذا لاعتناقه أوامر رجال الدين

دون أن يكون فى ذهنه (الجاهل) صورة واضحة لها ، أو أن النفوس الساذجة تخشى بفطرتها كل غريب ، أو لمزاولة التفتيش عن النفس بسبب ما كانوا فيه من متاعب وأحزان أضفاها الدين والفقر والطغيان السياسى .

وحدث الحرق ، والقتل ، ومصادرة الأموال للضالين .

كان أختصاص محاكم التفتيش مقصورا على المسيحيين دون سواهم ، أما اليهود والمسلمون فلم يكونوا يدعون أمامها للتحقيق معهم إلا إن كانوا مسيحيين مرتدين[١٩] .

وفى عام ١٤٨١ أحرق ستة من الرجال والنساء ، وما أن جاء العام الرابع حتى كان قد أحرق ثمانية وتسعون ومائتا شخص وسجن مدى الحياة تسعة وسبعون شخصا .

وعندما اغتال أحد المتنصرين أحد رجال محكمة التفتيش (١٤٨٥) احتجاجا على وجود المحكمة فى مدينتهم ، قبض على جميع المتآمرين وأعدموا وسط نداء الأهالى باحراق المتنصرين .

وسجن وعذب الكثير من المسيحيين وأحرقوا لمجرد شهادة مريبة من أعدائهم وطمعا فى حصول المحكمة والمبلغ على أموالهم .

وقد عد البابليو ، القول بعدم أحراق الهراطقة ، من الهرطقة التى تستوجب اللوم .

وقد بلغ الذين أحرقوا حتى عام ١٧٥٨ أربعة آلاف نفس ، وفاخر أمين محكمة التفتيش بأنها أحرقت أربعة آلاف فى أشبيلية وحدها .

ولكل من يشعر بأنه اقترف اثم الهرطقة ، فله فى خلال (مهلة الصفح) أن يأتى إلى المحكمة ويعترف ، فيحكم عليه بغرامة أو تفرض عليه كفارة ويصفح عنه بشرط أن يكشف عن كل ما يعرفه عن هراطقة آخرين .

وفى المحكمة ، على (المذنب) اثبات براءته لأنه قد ثبت عليه الاتهام من قبل مثوله أمامها . . . . وتستمر القضية شهورا فى تعذيب مستمر لاكراه (المتهم) على الاعتراف ، ويكون التقييد بالسلاسل فى السجن الانفرادى غالبا للحصول على أى اعتراف .

ويلجأ إلى التعذيب إذا وافقت المحكمة عليه .

وكان من وسائل التعذيب أن توثق يد الضحية خلف ظهرها أو يعلق منها أو يربط وثاقه حتى يعجز عن الحركة تماما ، ثم يقطر الماء فى حلقه حتى يشرف على الاختناق ، وقد تربط يداه ورجلاه بالحبال ربطا وثيقا حتى تقطع اللحم إلى العظام .

وقد اتهم بعض الموتى بالهرطقة وحكم عليهم بعد الموت بالمصادرة فيفقد الورثة ميراثهم ، ويحصل المبلغ على ٣٠ إلى ٥٠ ٪ من المتحصل .

وخافت الأسر الثرية من المبلغين فدفعت (مصالحات) لهم تأمينا لهم عن مصادرة أموالهم ، ثم أصبح قضاة محاكم التفتيش يسعون لجمع المال بدلا من الحفاظ على الدين الصحيح . . . . وانتشر الفساد .

وفى احتفال رسمى وشعبى كبير . . . يسير الموكب وراء (الدجالين والمجدفين فى الدين والمتزوج من امرأتين ، والهراطقة المرتدين وفى الأيام المتأخرة كان يساق معهم البروتستانت أو دمى المحكوم عليهم غيابيا أو صناديق تحمل رفات الموتى المحكوم عليهم بالهرطقة .

ويعطى المسجونون فرصة الاعتراف قبل الاعدام وفى هذه الحالة تقتنع المحكمة بجلده ومصادرة امواله وبسجنه مدى الحياة الا إذا لم يعترف إلا بعد صدور الحكم عليه فانه يغنم الرحمة بشنقه قبل احراقه .

. . . . . وتظل النيران تغذى بالوقود حتى تصير عظام (الهراطقة) رمادا ، ينشر فى الحقول والجداول ، ثم يعود القساوسة والمشاهدون إلى مذابحهم ودورهم مقتنعين ، بأن قربانا قدم استعطافا لإله غاضب من الهراطقة .

وهاجم جوهانس مساوىء كرسى الاعتراف وعقيدة التجسد وعبادة العذراء وطالب بتحريم القداس ، ورفض التسليم بالقدر وعلم الناس أن (خلاصنا يأتى من الله أما هلاكنا فمن أنفسنا) .

واصبحوا اعداء

وزاد العداوة بين زونجلى ولوثر والكنيسة بقوله إن الجنة يوجد فيها الكثير من اليهود والوثنيين الأجلاء .

ونشب قتال بين جيش زونجلى وجيش الكاثوليك . . . وهزم زونجلى وقتل مع ٥٠٠ من أتباعه ومزق جسده أربعة أجزاء ثم أحرق على محرقة نصبت فوق الروث . وقال لوثر (أن هذا حكم السماء على كافر) .

ورغم ذلك أنتشرت تعاليم زوبجلى اللوترية وساد مبدأ التسامح بين المذاهب المخنلفة فى بعض مقاطعات سويسرا .

وتناقضت أقوال لوثر بين التسامح الدينى وبين القضاء على الهراطقة . . . وكان ذلك سببا فى نشوء طوائف دينية على أساس الفكر الحر والتسامح ثم نجد لوتر قد عاد وشن هجوما عليهم .

فهو يقول :

(لا يجوز اكراه انسان على أعتناق عقيدة ، ولكن ليس لأحد أن يلحق بها ضررا ويجب أن يكره الجميع بما فيهم الكفار على الامتثال للوصايا العشر وحضور الصلاة فى الكنيسة والتلاؤم معها فى ظاهر السلوك* .

ورأى سباستيان فرانك أن هناك حرية فى التعبير عن الرأى والعقيدة بين الاتراك أكثر مما يوجد فى الولايات اللوثرية .

وفى آخر أيام لوثر عاد إلى سابق شعوره بالتسامح . . . . وقال : يجب تحمل الكتالكة واللا معمدانيين فى صبر حتى يوم القيامه ، وعندما يتولى أمرهم المسيح .

وأثناء صراعات الكاثولكية مع البروتستانتية الناشئة فى المانيا كان لهجوم السلطان سليمان التركى على غرب أوربا حتى فيينا أثر فى ايقاف الصراعات بين المذهبين المسيحيين لانشغال الكاثوليك بالحرب ، ولكن لما فشل سليمان فى غزو فيينا وعاد إلى بلاده ، دخل أتباع المذهبين فى صراع مرير .

وانقسمت اللوثرية على نفسها فى ألمانيا حتى قال لوثر إن هناك طوائف وعقائد بعدد الرؤوس تقريبا .

وكان الانقسام يرجع إلى سيادة الضمير ومبادىء الحكم الفردى .

وفرح الكاثوليك بهذا الانقسام حيث تنبأوا بأن حرية التفسير وحرية الاعتقاد تؤدى إلى فوضى دينية .

(*) لم يعمل أى حاكم مسلم ، مهما اشتهر عنه من الظلم ، مثل هذا (الحرم) مع أى من أهل الكتاب

وانضم البروتستانت للكاثوليك فى حرب الأتراك ولما عاد السلطان دون الاشتباك فى حرب (١٥٣٢) عاد الجيش إلى سلب ونهب المدن والبيوت . وقال شاهد عيان هو توماس كرانمر : (وأوقع المسيحيون بالبلاد كارثة أعظم مما جلبه الأتراك أنفسهم) .

وأنشأت اللوثرية (البروتستانت ـ المحتجون) ، كنيسة لهم باسم الكنيسة الإنجيلية بناء على اقتراح لوثر .

وفى عام ١٥٢٥ صدر أمر من أمير ساكسونيا بأداء الصلاة وفقا للمذهب الإنجيلى وكل من يرفض الامتثال لهذا الأمر من القساوسة يفقد مستحقاته ، وينفى العلمانيون المتشبثون بآرائهم بعد فترة يمهلون فيها ـ وحذا حذوه امراء آخرون من أنصار لوثر واتخذوا إجراء مماثلا[٢١] .

وقاوم الجهاز الحاكم (الكاثوليكى) بفرنسا العنف الهيجونوتى (البروتستانتى) ، وليوقفه عند حده بحظر الخدمات الهيجونوتية .

وثار الشعب الكاثوليكى . بينما هاجم الهيجونوت المواكب الكاثوليكية فى مختلف المدن ودخلوا الكنائس الكاثوليكية وأحرقوا الآثار والرفات المقدسة وحطموا التماثيل . . . . ونهبت بعض الكنائس والأديرة وقتل كثير من القساوسة وداسوا القربان المقدس بأقدامهم (١٥٦٢) . . . . وكانوا إذا ملكوا زمام الأمر فى أى جهة هاجموا الكاثوليك وطقوسهم وكنائسهم وأديارهم .

كما منعوا ابناءهم من الكاثوليك . . . وهكذا لم ير أحدا من الطرفين أى معنى للتسامح .

وأقرض رجال الدين الكاثوليك الملكة بعض المال لتعرض عن الاقتراحات الهيجونوتية بخصوص تأمين الكنائس .

وثارت ثائرة الكاثوليك عندما حضر شيخ كبير مندوباً لكالفن وقال فى خطبته الدينية إن (جسد المسيح فى القربان بعيد عن الخبز المكرس بعد السماء عن الأرض) صاح المتدينون الكاثوليك وألحوا فى نفى كل من يتشككون فى (الوجود الحقيقى) .

وانضمت الحكومة للكاثوليك لمقاومة اعتداءات الهيجونوت . . . واضطهادهم قانونا وبالقوة المسلحة .

وبدأت الحرب بين الهيجونوت والكاثوليك حين جاء حجر من الهيجونوت فى وجه دوق جيز (كاثوليك) فأدماه فهاجم رجاله (٢٠٠ رجل) الهيجونوت أثناء تجمعهم (٥٠٠) بين رجل وطفل وامرأة وأعملوا فيهم القتل والذبح .

واستعد كل فريق للقتال .

وحصل كل على مساعدة مادية وعسكرية من الدول التى تدين بمذهبه خارج فرنسا ، الكاثوليك من اسبانيا والبروتستانت من انجلترا والمانيا . . . وذبحت جيوش كل طرف ودمرت وأحرقت المدن التى تستولى عليها من الطرف الآخر . وبذلت محاولات التسامح . . . . وانتهكت من الطرفين .

وأعد كل طرف قواته لحرب ثانية .

وانتصر الهيجونوت وهم فى طريقهم إلى باريس ، وهنا منحهم الملك صلحا ومنحهم حرية العبادة إلا فى باريس وحقهم الكامل فى تقلد المناصب العامة .

وخشية من الهيجونوت من الاستيلاء على السلطة قريبا ، وافقت الملكة (كاترين دى مديتس) على قتل زعماء الهيجونوت .

ولما لم يقتنع الملك بهذا الاغتيال ، ضغطت عليه أمام المستشارين (الكاثوليك) بطلب موافقته . . . فصاح قائلا فى ثورته (قسما بموت الإله ، ما دمتم تريدون قتل الأميرال (الهيجونوتى) ـ فأنا موافق . ولكن يجب أن تقتلوا جميع الهيجونوت فى فرنسا ، حتى لا يبقى منهم أحد يلومنى . . . اقتلوهم جميعا اقتلوهم جميعا) .

وأخذوا هذا الأمر فى ساعة الغضب والانهيار العصبى ونفذوه بحذافيره .

ونجحت بداية المؤامرة فى قتل قائد الهيجونوت وهو يصلى ، فقد طعن بالخنجر فى قلبه ثم ألقى جسده من النافذة إلى الشارع وهو حى وفصلت رأسه عن جسده وأرسل إلى الملكة أو إلى روما . . . ومزقت الجماهير باقى الجسد .

وتلت ذلك مذبحة ندر أن عرفتها المدن حتى فى جنون الحرب التى بدأت شرارتها يوم ٢٤ أغسطس .

ودخلت الجماهير المعركة ، فاقتنصت وذبحت من الهيجونوت . . . وغيرهم عددا يتفاوت بين الألفين وخمسة الآلاف . . . واقتحم كل بيت اشتبه فى ايوائه

للهيجونوت وذبح كل من يرغب فى قتل غريمه والتخلص منه أو من منافسته . . . أو للثأر ، وجر الهيجونوت وأبناؤهم إلى الشوارع وذبحوا ذبح الأنعام وانتزعت الأجنة من بطون أمهاتهم القتيلات وهشموا . وتناثرت الجثث فى الشوارع وأخذ الصبية يلعبون فوقها . . . وشارك الجيش والحرس والأهالى فى المذبحة فى باريس وانطلق السلب والنهب دون قيد ، وانتهت المذبحة وزار الملك والملكة عدة كنائس للشكر على تخليص فرنسا من الهرطقة ونجاة الأسرة المالكة من الموت .

وحدث فى الأقاليم مثلما حدث فى باريس ، فارتكبت المذابح بالآلاف . . . وأرخى كثير من الأساقفة العنان للذبح . . . . . بل نددوا ببطء الحكام فى إصدار أوامر القتل .

وفرح البابا بانباء المذبحة التى راح ضحيتها عشرات الألوف من الأنفس .

وكتب ممثل البابا (أهنىء قداسة البابا من أعماق قلبى على أن الله جل جلاله شاء فى مستهل بابويته أن يوجه شئون هذه المملكة توجيها غاية فى التوفيق والنبل ، وأن يبسط حمايته على الملك والملكة الأم حتى يستأصلا شأفة هذا الوباء بكثير من الحكمة ، وفى اللحظة المناسبة حين كان كل المتمردين محبوسين فى القفص . . . . واهتز البابا طربا حين وصله نبأ المذبحة ونفح المبشر مبلغا ضخما من المال ، وسرعان ما أضيئت روما كلها ، وأطلقت المدافع وقرعت الأجراس فى ابتهاج . . . وعملوا قداسا مهيبا لشكر الله على (هذا الرضى الرائع الذى ابداه للشعب المسيحى) والذى أنقذ فرنسا والكرسى البابوى المقدس من خطر عظيم ـ وأمر البابا بضرب مدالية خاصة تذكارا لهزيمة الهيجونوت أو ذبحهم ـ وعهد إلى رسام كبير بأن يرسم فى الصالة الملكية بالفاتيكان صورة للمذبحة تحمل هذه العبارة (البابا يوافق على قتل كوينى) زعيم الهيجونوت .

واحتجت أوربا البروتستانتية على المذبحة ودمغتها بأنها همجية كلها جبن ونذالة .

ولكن . . . . ما مضى شهران على المذبحة حتى افتتح الهيجونوت الحرب الدينية الرابعة ، وأغلقت لامروستيل وعدة مدن أخرى أبوابها فى وجه جيش الملك وأفلحت فى مقاومة الحصار .[٢٢]* .

* لعل القارىء يلاحظ عبث فرض دين أو مذهب دينى معين على الناس بالقوة فالحرية جزء لا يتجزأ من صميم النفس والفطرة الانسانية -

الفصل الثالث

الصراعات الإسلامية الداخلية

كان أول صراع بعد وفاة النبى محمد ﷺ مباشرة هو الصراع الدينى السياسى ، أو السياسى الدينى . . .

وذلك ان الانصار اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة عقب التأكد من وفاة النبى ﷺ ليختاروا من بينهم حاكما للمسلمين . . .

ثم جاءت قيادات الصحابة من قريش (المهاجرون) ليقتنصوا ميزة الحكم من الانصار وليستأثروا بها دونهم .

ووجد القرشيون ، بقيادة ابو بكر وعمر سُندهم الدينى فى مطالبهم السياسية فى الحكم فى ما اكدوه من وجود قول للنبى ﷺ بأن (الأئمة) من قريش .

كما فسروا انابة النبى ﷺ لابى بكر فى امامة المسلمين فى الصلاة فترة مرضه بأنه وصية بخلافته له فى أمور المسلمين . . . وإلى غير ذلك من أدلة مما هو موجود فى كتب التاريخ .

ولما تنازع سيدنا على ومعاوية على حكم المسلمين ، وجد كل فريق ما يؤيد موقفه من أسانيد دينية .

ثم لما تنازع العباسيون مع الامويين على الخلافة ، وجد كل فريق سنده فى الاحاديث النبوية .

ولما ظهر مذهب الشيعة لينفصل دينيا ثم سياسيا عن أهل السنة ، وجد ضالته فى الأحاديث والادلة الدينية

وحتى فى العصر الحديث ، حينما تطالب جماعات تطلق على نفسها الاخوان المسلمون او تنظيم الجهاد ، أو التكفير والهجرة ، او الناجون من النار . . . الخ فان هذه الجماعات تسعى إلى الحكم ، وهذه عملية سياسية ، ثم تجد سندها الدينى أيضا فى القرآن والاحاديث النبوية .

وليس هنا المجال لبحث وتقييم هذه المستندات والادلة (الدينية) المؤيدة للمطالب السياسية لبعض الطوائف والجماعات ، ولكن ما يهمنا فى هذا المجال ان المسلمين تصارعوا دينيا لتحقيق اهداف سياسية . . . فهنا نجد صورة صريحة وواضحة من الصراع . . . وهو الصراع الدينى السياسى .

ونشأ نوع آخر من الصراع الدينى داخل الإسلام ، وهو الصراع فى تفسير بعض احكام الدين .

وذلك ان المسلمين يستقون احكام دينهم من القرآن الكريم ومن السنة النبوية .

والسنة النبوية هى أقوال وتصرفات النبى عليه الصلاة والسلام وتخص التشريع الإسلامى .

ومرجع ذلك إلى ما جاء فى القرآن الكريم من أن السنة النبوية المتصلة بالتشريع الإسلامى ان هى (الا وحى يوحى) من الله سبحانه وتعالى .

وعندما تظهر مشكلة من مشاكل الحياة الدنيا ، او عندما يتساءل البعض عن تفسير بعض الآيات المتعلقة بالله سبحانه وتعالى أو بالآخرة او بالغيبيات بصفة عامة فأن المرجع فى وضع الحلول لأى مشكلة او فى الرد على اى تساؤل هو ما جاء فى القرآن وما ثبت عن الرسول ﷺ من السنة .

ولكن الفقهاء اختلفوا فى تفسير الكثير من آيات القرآن الكريم كما اختلفوا فى تفسير السنة ، كما اختلفوا فى الثقة ببعض الاحاديث المنسوبة إلى الرسول (ﷺ)

فمن الفقهاء من أخذ بحكم ورد فى حديث ثبت عنده انه حديث صحيح ، ومن الفقهاء من رفض الأخذ بنفس الحديث لأنه لم يصح نسبته إلى الوصول ، ويختلف الفقهاء تبعا لاختلافهم فى تفهم اللغة العربية ثم يختلفون تبعا لاسباب نزول الآيات والاحاديث ، وذلك ان الكثير من آيات القرآن لها أسباب للنزول ، وقد اختلف معاوية مع أبى ذر الغفارى فى الآية التى تقول (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليهم فى نار جهنم

فتكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم ، وهذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) .

٩ : ٣٤ ، ٣٥

ورأى معاوية أن هذه الآية نزلت فى أهل الكتاب ، بينما رأى ابو ذر ان هذه الآية نزلت للمسلمين واهل الكتاب جميعا .

ولهذه الأسباب اضطهد معاوية ابو ذر الذى كان يعيب عليه اكتناز أموال المسلمين .

ولا أريد ان اكثر عليك ببيان اسباب اختلاف الفقهاء ، فهو موجود بتوسع فى الكتب المخصصة لذلك ، وانما لزم التنويه بشرح هذا الموضوع ، حيث انبثق عن هذه الاختلافات نشأة المذاهب الفقهية الاربعة المعروفة .

وكان هذا الاختلاف ، فى بداية الامر ، اختلافا سلميا . . . والجميع كانوا يجتهدون ويختلفون تحت شعار (المجتهد ان اصاب فله اجران ، وان أخطأ فله أجر) . . . وذلك ، ان اختلاف الرأى فى الموضوع الواحد ، كان يقابل برحابة صدر من المخالفين .

الا ان الامور تطورت مع انتشار الجهل . . ودخلت هذه الاختلافات الفقهية فى حلبة الصراعات الدموية .

والنوع الاخير المهم من الصراعات الدينية الإسلامية هو صراعات العقل والجمود

ففى كل عصر من العصور تجد المجددين والمفكرين وتجد ايضا المحافظين المتمسكين بالقديم والمقاومين لكل تيار فكرى جديد .

وكل له اسلحته . . .

وكان أهم فئة دعت إلى تمكين العقل فى امور الدين هى فئة المعتزلة ، وقد وقف الى جانبها وساندها الخليفة المأمون فى العصر العباسى الأول ثم الخليفة المعتصم .

غير أن جماعة السنة قاومت المعتزلة ، ودخلت المقاومة فى مجال الصراعات الكلامية والدموية .

وكان من الممكن ان نجعل صراعات المعتزلة مع اتباع السنة تحت بحث الصراعات الفقهية ، إلا أنه بمراعاة أن موضوع صراع العقل مع الجمود يمثل اهمية

قصوى للمسلمين فى عصرهم الحديث ، فقد فضلنا ان نفرد له بحثا خاصا لعل ان يكون فى ذلك افادة .

الصراعات الدينية السياسية — الشيعة :

كان الشيعة يرون ان علياً اولى بالخلافة ممن سبقوه (ابو بكر ، عمر ، عثمان) ويحتجون فى ذلك بأن سيدنا على وأهل بيته الثمرة وقريش الشجرة ، والثمرة خير ما فى الشجرة .

وعقب التأكد من وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ، أبدى كل من طائفتى المهاجرين والانصار رغبتهم فى ان يكون الحاكم منهم . . . ثم عُرض ان يُنصب حاكمان للمسلمين احدهما من الانصار والآخر من المهاجرين ولولا ان انهى عمر هذا الخلاف بمبايعته أبا بكر واقتداء الآخرين به ، لنشبت صراعات دموية بين المسلمين ولم يتم دفن رسولهم بعد .

ويروى البخارى عن ابن عباس ان عليا رضى الله عنه خرج من عند النبى ﷺ فى وجعه الذى توفى فيه ، فقال الناس يا ابا الحسن كيف اصبح رسول الله ، فقال : اصبح بحمد الله بارئا ، فأخذ بيده العباس رضى الله عنه وقال : أنت والله بعد ثلاث عبد العصا ، وإنى والله لأرى رسول الله سيتوفى من وجعه هذا ، انى لاعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، فاذهب بنا إليه نسأله فيمن هذا الأمر ، فان كان فينا علمناه . وان كان فى غيرنا كلمناه فاوصى بنا : فقال (على رضى الله عنه) والله لئن سألناه فمنعناها لا يعطيناها الناس بعدها ، وانى والله لا أسألها .

وكان جمع من الصحابة يرى ان عليا افضل من أبى بكر وعمر وغيرهما .

ونرى بعد هذا العصر ان الفكرة تطورت فقال شيعة على ان الامامة (تعيين الحاكم الدينى السياسى) ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى الامة ويتعين القائم بتعيينهم ، بل هى ركن الدين وقاعدة الاسلام ، ولا يجوز لنبى اغفالها ولا تفويضها إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوما من الكبائر والصغائر . وان عليا رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه ، بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة . بل أكثرها موضوع او مطعون فى طريقته ، او بعيد عن تأويلاتهم . . . ، ومن هنا نشأت فكرة الوصية ولقب على بالوصى يريدون ان النبى اوصى لعلى

بالخلافة من بعده ، فكما وصى رسول الله ، فعلى ليس الامام بطريقة الانتخاب ، بل بطريق النص من رسول الله ، وعلى اوصى لمن بعده ، وهكذا كل امام وصى لمن قبله وانتشرت كلمة وصى بين الشيعة واستعملوها .

وقد اداهم هذا النظر إلى أمور منها القول بعصمة الائمة على ومن بعده فلا يجوز الخطأ عليهم ولا يصدر منهم الا ما كان صوابا ، ومنها رفع مقام على عن غيره من الصحابة حتى ابو بكر وعمر .

يقول ابن ابى الحديد فى على وهو من معتدلى الشيعة (يقول اصحابنا وقد سلكوا طريقة مقتصدة ـ ان عليا افضل الخلق فى الآخرة ، واعلاهم منزلة فى الجنة ، وافضل الخلق فى الدنيا واكثرهم خصائص ومزايا ومناقب وكل من عاداه او حاربه او ابغضه فانه عدو الله سبحانه وتعالى وخالد فى النار مع الكفار والمنافقين الا ان يكون ممن ثبتت توبته ومات عِلى توليه وحبه) .

. . . . وقد ثبت ان رسول الله قال (لعلى) حربك حربى وسلمك سلمى ، وانه قال : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه وقال له : لا يحبك الا مؤمن ، ولا يبغضنك الا منافق . . . وانا لم نجعل بينه وبين النبى ﷺ الا رتبة النبوة ، واعطيناه كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه) .

لم يكتف غلاة الشيعة بتفضيل على على جميع الخلق بعد الرسول ، وانه معصوم وانه موصى له بالخلافة فى ذريته الى يوم الدين ، بل ألهوه ، فمنهم من قال : (حل فى على جزء الهى ، واتحد بجسده فيه ، وبه كان يعلم الغيب اذ اخبر عن الملاحم وصح الخبر ، وبه كان يحارب الكفار وله النصرة والظفر وبه قلع باب خيبر ، وعن هذا قال : والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولا بحركة غذائية ، ولكن قلعته بقوة ملكوتية . . . قالوا : وربما يظهر فى بعض الازمان . . . والرعد صوته والبرق تبسمه . . . . الخ) وذكروا ان اول من قال بتأليه على عبد الله بن سبأ اليهودى ، وكان ذلك فى حياة على . . . . . وعبد الله بن سبأ كان يهودياً واسلم وعمل على هدم الاسلام واتخذ الاسلام ستارا لاغراضه .

ومن تعاليم عبد الله بن سبأ الرجعة . وقد بدأ قوله بأن محمدا يرجع ، وكان مما قاله : (العجب لمن يصدق ان عيسى يرجع ، ويكذب ان محمدا يرجع) ثم نراه تحول ـ ولا ندرى لاى سبب الى القول بان عليا يرجع ـ وقال ابن حزم ان ابن سبأ

قال ـ لما قتل على ـ: (لو أتيتمونا بدماغه الف مرة ما صدقنا موته ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا) . وفكرة الرجعة هذه اخذها ابن سبأ عن اليهودية ، فعندهم ان النبى (الياس) صعد الى السماء وسيعود فيعيد الدين والقانون . . . وهكذا كان الحال فى المسيحية عن عودة المسيح .

وتطورت هذه الفكرة عند الشيعة الى العقيدة باختفاء الائمة ، وان الامام المختفى سيعود فيملأ الأرض عدلا ، ومنها نبعت فكرة المهدى المنتظر .

وقد نسب غلاة الشيعة الكثير من المعجزات (لعلى) كما نسبوا اليه العلم بكثير من الغيب . . . وقالوا انه كان يعلم كل شىء سيكون ، ووضعوا على لسانه ما جاء فى نهج البلاغة : (اسألونى قبل ان تفقدونى ، فو الذى نفسى بيده لا تسألوننى عن شىء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن تهدى مائة وتضل مائة الا انبأتكم بناعقها ، وقائدها وسائقها وما فى ركابها وخط رحالها ، ومن يقتل من اهلها قتلا ، ومن يموت منهم موتا . . . الخ) ورووا له أنه أخبر بمقتل الحسين واخبر ببنى بويه وايام دولتهم ، واخبر عبد الله بن عباس بانتقال الامر الى اولاده ، (فانه لما ولد لعبد الله بن عباس ابنه على اخرجه ابوه الى على بن ابى طالب فأخذه وتفل فى فيه وحنكه بثمرة قد لاكها ورفعه اليه وقال : خذ ـ اليك ـ ابا الاملاك) وهذه الاخبار وامثالها انتشرت بين الشيعة حتى ليكادون يذكرون انه اخبر بما كان وما سيكون الى يوم الدين .

وهناك نوعان من العلم : علم الظاهر وعلم الباطن ـ وقد علّم النبى ﷺ هذين النوعين لعلى ، فكان يعلم باطن القرآن وظاهره ، واطلعه على خفايا الكون والمغيبات ، وكل إمام ورث هذه الثروة العلمية لمن بعده وكل امام يعلم الناس فى وقته ما يستطيعون فهمه من الاسرار ، ولذلك كان الامام معلماً . ولا يؤمنون بالعلم ولا بالحديث الا إذا روى عن هؤلاء الائمة .

واساس نظرية الشيعة ـ الخليفة او كما يسمونه هم (الامام) فعلى هو الامام بعد محمد ، ثم يتسلسل الائمة بترتيب من عند الله .

والاعتراف بالامام والطاعة له جزء من الايمان ، وهو أكبر معلم ، وورث علوم النبى ، وليس شخصا عاديا بل هو فوق الناس لانه معصوم من الخطأ . . .

وقد اختلفوا فى الأئمة وتسلسلها . . . واهم فرق الشيعة الزيدية ، والامامية .

فالزيدية اتباع زيد بن حسن بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ومذهبهم اعدل مذاهب الشيعة واقربها الى أهل السنة . . . فهم يقرون بصحة امامة أبى بكر

وعمر . . . وليست هناك امامة بالنص ولم ينزل وحى يعين الائمة بل كل فاطمى زاهد شجاع سخى قادر على القتال فى سبيل الحق يخرج للمطالبة يصح ان يكون اماما . . . ولهذا كانت الامامة عندهم عملية لا سلبية ، كما هى عند الامامية تنتهى بالامام المختفى .

وهم لا يؤمنون بالخرافات التى ألصقت بالامام فجعلت له جزءا إلهياً ، . . . ولازال الزيدية فى اليمن الى الآن .

والامامية سموا كذلك لان اهم عقائدهم أسست حول الامام ، وقد قالوا ان محمداً(ﷺ) نص على خلافة سيدنا على ، وقد اغتصبها ابو بكر وعمر ، وتبرأوا منهما ، وقدحوا فى إمامتيهما ، وجعلوا الاعتراف بالامام جزءا من الايمان ، والامامية فرق متعددة لا تتفق على أشخاص الائمة .

فمن اشهر فرقهم الاثنا عشرية ، سموا كذلك لانهم يسلسلون ائمتهم الى اثنى عشر اماما ، وعقيدتهم هى العقيدة الرسمية لدولة ايران الى اليوم .

والاسماعيلية سميت كذلك لأنهم يقفون بائمتهم عند اسماعيل بن جعفر الصادق ، وتبتدىء تعاليمهم باثارة الشكوك فى الاسلام كسؤالهم ما معنى رمى الجمار؟ وما العدو بين الصفا والمروة ، وتنتهى بهدم الاسلام والتحلل من قيوده واولوا كل ما فيه فقالوا ان الوحى ليس الا صفاء النفس وان الشعائر الدينية ليست الا للعامة ، اما الخاصة فلا يلزمهم العمل بها ، وان الانبياء سواس العامة واما الخاصة فأنبياؤهم الفلاسفة ، وليس هناك معنى للتمسك بحرفية القرآن ، فهو رموز لأشياء يعرفها العارفون . انما يجب ان يفهم القرآن على طريقة التأويل والمجاز ، وللقرآن ظاهر وباطن ، ويجب ان نخترق الحجب المادية حتى نصل إلى اطهر ما يمكن من الروحانية ، ومن ثم سموا (الباطنية) . . . . ولايزال لهم بقايا الى اليوم فى الشام والعجم والهند وكان رئيسهم اغاخان الزعيم المشهور .

والامامية ـ على العموم ـ تقول بعودة امام منتظر وان اختلفوا ـ باختلاف طوائفهم ـ فيمن هو الامام المنتظر ـ ففرقة ينتظرون جعفر الصادق ـ واخرى تنتظر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن ابى طالب ، وثالثه تنتظر محمد بن الحنفية وتزعم انه حى لم يمت وانه بجبل رضوى الى أن يأذن الله له بالخروج . . . وانه بين اسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل ، ويعود بعد الغيبة فيملأ العالم عدلا كما ملىء جورا .

وأيا كان سبب نشأة الشيعة . فإنها قد نشأت فعلا وكان لنشوئها وانتشارها آثار مدمرة فى مجال صراعات المسلمين ضد انفسهم .

ولقد بدأت الصراعات الدموية بمقتل على واشتد لهيبها بمقتل الحسين بطريقة وحشية خالية من الرحمة مما جعل الشيعة يقيمون سنويا مأتمهم على مقتله بالبكاء والصياح حتى الآن .

وكان الحسين قد خرج فى سبعين نفرا اكثرهم اولاده واقاربه وأهل بيته حين تقابل مع عبيد الله بن زياد وهو فى اربعة آلاف مقاتل عام ٦١ هـ وعلم الحسين انه ليس به طاقة فنفذ اليه وقال : انا معك بين ثلاثة امور اما تدعنى اذهب من حيث جئت واما ان تعين لى موضعا آخر اقصده راعيش به واما ان اسلم نفسى اليك نازلا على حكم يزيد بن معاوية فتحملنى إليه ليفعل فى أمرى ما يشاء . فقال عبيد الله : اما الافراج لك عن الطريق لتذهب من حيث جئت فلا سبيل إليه ، وأما تعيين موضع تقصده فليس ذلك إلى وأما نزولك على حكم يزيد فلا والله ما تنزل إلا على حكمى . فقال الحسين ـ الموت تحت ظلال السيوف احب إلى من النزول على حكمك ، وتواعدوا للقتال فحين التقى القوم لم يرم احد من عسكر عبيد الله سهما ولم يسل سيفا . فقال عبيد الله بن زياد : من أتانى برأس الحسين فله الرى فتقدم إليه عمر بن سعد بن ابى وقاص وقال له : ايها الامير اكتب لى عهد الرى حتى افعل ما تأمر فى الحال فكتب وسلم الى عمر فتقدم وانتزع سهما من كنانته . ورمى به الحسين فوقع فى نحره فسال دمه على صدره ولحيته فأخذ الدم بيده ورمى به وصاح اللهم هذا افعالهم بابن بنت نبيك : ثم تكاثروا عليه وجاء الشمر ـ فاجتز رأسه ووضعه فى مخلاة فيها تبن وحمله إلى عبيد الله بن زياد فنفذه عبيد الله على هيئته إلى يزيد(٢٥) .

ولعل هذه الصورة هى التى اشعلت الصراعات للاطاحة بالاسرة الاموية الحاكمة التى تسببت فى مقتل على والحسين ونسب اليها مقتل الحسن مسموما ومن هنا وجدت الشيعة المجال النفسى الشعبى للتعاطف معها .

ـ الخوارج

بعد تولى على رضى الله عنه الخلافة ، دان بالولاء له الجميع بصفة عامة ما عدا الشام بقيادة معاوية .

فقد كان معاوية هو أقوى الأعداء فى المنافسة على الخلافة .

ولما كان معاوية غير قادر على الانتصار عسكريا على فريق على ، فقد امر جنوده برفع المصاحف على أسنة الرماح طالبا اللجوء إلى التحكيم لايقاف اراقة دماء المسلمين .

ورغم مقاومة على لخديعة خصمه ، الا ان غالبية جنوده رفضوا قتال جيش كف عن القتال ورفع المصاحف تفضيلا للسلم .

وخضع على وهو مكره للتحكيم ، وارسل عنه أبا موسى الاشعرى ليمثله فى مجلس التحكيم كما أرسل معاوية عمرو بن العاص ليمثله فى هذا المجلس .

واتفق كل من ابى موسى وعمرو على أن يعلنا على الملأ خلع كل من معاوية وعلى من الخلافة حقنا للدماء ، وتولية غيرهما .

ولما كان ابو موسى هو الاكبر سنا ، فقد دفعه عمرو إلى البدء باعلان حكمهما على الملأ . . . وامتثل ابو موسى واعلن خلع كل من على ومعاوية ، ثم جاء عمرو بن العاص واعلن موافقته على خلع على من الخلافة والابقاء على معاوية .

ومن هنا بدأت الفرقة بين جيوش المسلمين وبين المسلمين بعضهم وبعض . . . . . ففريق حكم بتكفير معاوية وعمرو . . . وفريق نفى عنهما هذا الاتهام . . . الخ . .

ويهمنا فى هذا الصراع على السلطة الذى اتخذ الشكل الدينى فاثمر فرقة الخوارج التى عارضت فى موافقة على على التحكيم ، لأن هذا القبول يتضمن اعترافه رضى الله عنه ، بالشك فى أحقيته فى الخلافة ، ورفعت الخوارج شعار (لا حكم الا لله) وكفرت على لأنه لم يحكم بما انزل الله . وحاول سيدنا على رضى الله عنه اعادة الخوارج الى طاعته مبينا خطأهم فى تفسير احكام الدين وأنه ، رضى الله عنه ، قد تشرب بالاسلام منذ صباه مما ينفى عنه الكفر الا أنهم أصروا على موقفهم من تكفيره لأنه رضى بالتحكيم ولم يحكم بما انزل الله .

وحاربهم سيدنا على لخروجهم على الجماعة وهزمهم فى موقعة النهروان وبعدها قام أحد الخوارج وهو ابن ملجم فقتل سيدنا على . . .

وتشدد الخوارج فى العمل بما فهموه من تفسير لبعض أحكام الدين مما أدى بهم الى تكفير عامة المسلمين واستحلال قتلهم .

وترى الخوارج ان الخلافة يجب ان تكون باختيار حر من المسلمين ، وإذا اختير الخليفة فلا يصح ان يتنازل او يحكم ، وليس بضرورى ان يكون الخليفة قرشيا بل يصح ان يكون من قريش ومن غيرهم ولو كان عبدا حبشيا ، واذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ، ويجب ان يخضع خضوعا تاما لما امر الله ـ والا وجب عزله .

واهم ما قرره الخوارج ان العمل بـاوامر الـدين ـ من صلاة وصيـام وصدق وعدل ـ جزء من الايمان ، وليس الايمان الاعتقاد وحده فمن اعتقد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ثم لم يعمل بفروض الدين وارتكب الكبائر فهو كافر . ولهذا استحلوا قتل مخالفيهم .

وقد شغلت حروب الخوارج كل عصر الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية وراح ضحيتها مئات الألوف من أرواح المسلمين

صراعات الشيعة :

اتفقت تعاليم الخوارج والشيعـة على أن خلفـاء بنى أمية مغتصبـون ظالمـون فاشتركوا فى مناهضتهم ولكن الخوارج كانوا ظاهرين فى حروبهم ، غلبت عليهم الطبيعة البدوية فى الصراحة ، فاكثرهم لا يقول بالتقية ، اما الشيعة فكانوا يحاربون جهرا إذا امكن الجهر ، فإذا لم يستطيعوا فسرا ؟ وقال اكثرهم بالتقية ، فكانوا بهذا اشـد على بنى اميـة ، وهـم ادعى إلى الحذر منهم ، فبثـوا العيون والارصـاد على الشيعة ، واضطهدرهم اضطهادا شنيعا ، فدسوا للحسن حتى طعن بخنجر فى جنبه ولكن لم يمته ، واوقعوا الفشل فى جيشه حتى وادعهم ـ ثم قتلوا الحسين فى كربلاء ، ثم تتبعوا اهل البيت يستذلونهم ويمتهنونهم ويقتلونهم ويقطعون أيديهم وارجلهم على الظنة ـ وكل من عرف بالتشيع لهم ، سجنوه ونهبوا ماله او هدموا داره واشتد بهم الامر فى ايام عبد الله بن زياد قاتل الحسين واتى بعده الحجاج فقتلهم كل قتله ، واخذهم بكل ظنة وتهمة ، حتى ان الرجل ليقال له زنديق او كافر احب اليه من ان يقال له شيعة على ، حتى يروى ان رجلا ـ يقال انه جد الاصمعى ـ وقف للحجاج فقال له ـ ايها الامير ان اهلى عقونى فسمونى عليا ، وانى فقير بائس ، وانا الى صلة الامير محتاج فتضاحك له الحجاج ، وولاه عملا ، ويقول المدائنى : (ان زياد بن سمية كان يتتبع الشيعة فى الكوفة وهو بهم عارف ، لانه كان منهم ايام على فقتلهم تحت كـل حجر ومـدر ، واخافهم وقـطع الايدى والارجـل ، وسمل العيـون ،

وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم وشردهم من العراق فلم يبق به معروف منهم وكتب معاوية إلى عماله فى جميع الافاق الا يجيزوا لاحد من شيعة على واهل بيته شهادة - وكتب اليهم ان انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه واهل ولايته والذين يرددون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم ، وقربوهم واكرموهم واكتبوا لى بكل ما يروى كل رجل منهم واسم ابيه وعشيرته ، ففعلوا حتى اكثروا من فضائل عثمان ومناقبه ، لما كان يبعثه اليهم معاوية من الصلات . وقال انه كتب إلى عماله ان (انظروا إلى من قامت عليه البينة انه يحب عليا واهل بيته فامحوه من الديوان ، وأسقطوا عطاءه ورزقه) . والعباسيون كانوا ابلغ فى التنكيل بهم لانهم اعرف بخباياهم ، لما كانوا يعملون معهم فى عهد بنى أمية .

هذه الاضطهادات (الاموية) كان من نتائجها إحكام الشيعة للسرية ونظامها فهم اقدر الفرق الإسلامية على العمل فى الخفاء ، وكتمان عملهم حتى يتمكنوا من عدوهم . وهذه السرية استلزمت الخداع والالتجاء إلى الرموز والتأويل ونحو ذلك وكان من اثر هذا الاضطهاد ايضا صبغ ادبهم بالحزن العميق والنوح والبكاء وذكر المصائب والالام

وفى عهد عبد الملك بن مروان سلط الحجاج بن يوسف الثقفى على العراق والحرمين وخراسان فقتل وفتك وهدم الكعبة ورماها بالمنجنيقات ، وصلب عليها عبد الله بن الزبير (امه اسماء بنت ابى بكر الصديق) ، وبقى سنة مصلوبا الى أن حج عبد الملك بن مروان فوقفت له اسماء على الطريق وقالت له - أما آن لهذا الراكب ان ينزل ؟ فأمر بحله وتسليمه اليها .

وفى عهده قتل الحجاج الف الف وستمائة الف مسلم فى ولايته ومات وفى حبسه ثمانية عشر الف نفس يسقيهم السرجين المداف فى بول الحمير .

وكان بنو امية كلهم يلعنون عليا - على المنبر ومنذ ولى عمر بن عبد العزيز ابطل تلك اللعنة

ولما كان فى عهد ابى جعفر المنصور وكان واليه على مصر سنة ١٤٤ هـ يزيد بن حاتم بن المهلب . . ظهرت دعوة ابن حسن بن على بمصر وتكلم الناس بها وبايع

كثير منهم لعلى بن محمد بن عبد الله وهو اول علوى قدم مصر وقام بأمر دعوته خالد بن سعيد .

وظلت شيعة على بمصر الى آن ورد كتاب من المتوكل على الله إلى مصر يأمر فيه باخراج آل ابى طالب من مصر إلى العراق فأخرجوا . . . . واستتر من كان بمصر على رأى العلوية حتى إن يزيد بن عبد الله امير مصر ضرب رجلا من الجند لحد وجب عليه فاقسم عليه بحق الحسن والحسين الا عفا عنه فزاده ثلاثين درة . . . . ولما بلغ الخبر الخليفة المتوكل زاد عدد الضربات إلى مائة سوط وحمل بعد ذلك إلى العراق سنة ٢٤٣ هـ وتتبع يزيد (امير مصر) الروافض (الشيعة) فحملهم إلى العراق ودل فى شعبان على رجل يقال عنه انه حفيد لعلى بن ابى طالب وانه بويع له فأُحرق الموضع الذى كان به وأُخذ فاقر على جمع من الناس بايعوه فضرب بعضهم بالسياط وأخرج العلوى هو وجمع من آل ابى طالب إلى العراق حيث كان المتوكل قد مات وخلفه الخليفة المنتصر ـ فورد كتابه إلى مصر بـان لا يقبل علوى ضيعـة ولا يركب فـرسا ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من اطرافها وان يمنعوا من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد ومن كان بينه وبين احد من الطالبيين (العلويين) خصومة من سائر الناس قبل قول خصمه فيه ولم يطالب ببينه . . وقبض على كثيرين وارسلوا إلى العراق .

وفى امارة هارون بن خماروية بن أحمد بن طولوَن (فى مصر) انكر رجل من اهل مصر ان يكون احد خيرا من اهل البيت فوثبت عليه العامة وضرب بالسياط يوم الجمعة سنة ٢٨٥ هـ .

ومازال امر الشيعة يقوى بمصر إلى ان دخلت سنة ٣٥٠ هـ ففى يوم عاشوراء كانت منازعة بين الجند ومع جماعة من الرعية عند قبر كلثوم العلوية بسبب ذكـر السلف والنوح ، قتل فيها من الفريقين وتعصب السودان ضد الرعية فكانوا إذا لقوا احداً قالوا له من خالك فان لم يقل معاوية والا بطشوا به وشلحوه ثم كـثر القول (معاوية ـ خال على) ـ وكان على باب الجامع العتيق شيخان من العامة يناديان كل يوم جمعة فى وجوه الناس من الخاص والعام معاوية خـالى وخال المؤمنـين وكاتب الوحى ورديف رسول الله وكان هذا احسن ما يقولونه والا فقد كانوا يقولون معاوية خال على من ها هنا ويشيرون إلى اصل الاذن ويلقـون ابا جعفـر مسلما الحسينى

فيقولون له ذلك فى وجهه ـ وكان بمصر اسود يصيح دائما معاوية خال على فقتل بتنيس ايام القائد جوهر .

ولما ورد الخبر بقيام بنى حسن بمكة ومحاربتهم الحاج ونهبهم خرج خلق من المصريين فى شوال فلقوا كافور الاخشيدى بالميدان ظاهر مدينة مصر وضجوا وصاحوا معاوية خال على وسألوه ان يبعث لنصرة الحاج من الطالبيين وفى شهر رمضان سنة ٣٥٣ هـ اخذ رجل يعرف بابن ابى الليث الملطى ينسب إلى التشيع فضرب مائتى سوط ودرة ثم ضرب فى شوال خمسمائة سوط ودرة وجعل فى عنقه غل وحبس وكان يتفقد كل يوم لئلا يخفف عنه ويبصق فى وجهه فمات فى محبسه فحمل ليلا ودفن فمشت جماعة إلى قبره لينبشوه وبلغوا إلى القبر فمنعهم جماعة من الاخشيدية والكافورية فأبوا وقالوا هذا قبر رافضى فثارت فتنه وضرب جماعة ونهبوا كثيرا حتى تفرق الناس .

ولما دخل جوهر القائد بعساكر المعز لدين الله إلى مصر وبنى القاهرة اظهر مذهب الشيعة واذن فى جميع المساجد الجامعة وغيرها حى على خير العمل واعلن بتفضيل على بن ابى طالب على غيره وجهر بالصلاة عليه وعلى الحسن والحسين وفاطمه الزهراء .

وفى سنة ٣٧٢ هـ « فى عصر الشيعه الفاطمية » ضرب رجل بمصر وطيف به فى المدينة من اجل انه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن انس ـ وفى ٣٩١ قبض على رجل من اهل الشام سئل عن على بن ابى طالب فقال لا اعرفه فاعتقل وبعث له فى الحبس اربعة شهود سألوه فأقر بالنبى وانه نبى مرسل وسئل عن على بن ابى طالب فقال : لا اعرفه وحاول القائد الحسين بن جوهر ليرجع عن انكاره معرفه على فلم يرجع ، .... فضربت عنقه وصلب ... وفى سنة ٣٩٣ هـ قبض على ثلاثة عشر رجلا وضربوا وشهروا على الجمال وحبسوا ثلاثة ايام من أجل انهم صلوا الضحى (٢٨) .

وفى سنة ٢٤٦ هـ . امر (الخليفة) المتوكل بهدم قبر الحسين بن على ، وهدم ما حوله من المنازل والدور ، وان يبذر ويسقى موضع قبره ، وان يمنع الناس من اتيانه فنادى بالناس فى تلك الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة حبسناه فى المطبق فهرب الناس وتركوا زيارته وخرب وزرع . وكان المتوكل شديد البغض لعلى بن ابى

طالب ولأهل بيته ، وكان يقصد من يبلغه عنه انه يتـولى عليا واهله بـأخذ المـال والدم . وكان من جملة ندمائه عبادة المخنث ، وكان يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ، ويكشف رأسه وهو اصلع ، ويرقص بين يدى المتوكل والمغنون يغنون . (قد اقبل الاصلع البطين خليفة المسلمين) يحكى بذلك عليا عليه السلام ، والمتوكل يشرب ويضحك . وقيل ان المتوكل كان يبغض من تقدمه من الخلفاء المـأمون والمعتصم والواثق فى محبة على وأهل بيته وانما كان ينادمه ويجالسه جماعة اشتهروا بالبغض لعلى .

ورد ان المتوكل كان قد اتصـل بيعقوب بن اسحـاق النحوى المعـروف بابن الكميت فسأله المتوكل ايما احب اليك ، المعتز والمؤيد (ابنـا المتوكـل) او الحسن والحسين ؟ فنقص من ابنيه ، وذكر الحسن والحسين عليهما السلام بما هما اهل له ، فامر الاتراك فداسوا بطنه فحمل الى داره فمات .

وهذه الظاهرة ، ظاهرة اضطهاد الشيعة ، لازمت الاتراك السنيين المسيطرين على الخليفة ، طوال عهدهم ، فكـل تاريخهم مملوء بكـراهيتهم للتشيع والشيعة وبالحروب المتصلة بينهم وبين الفرس وهم شيعة .

وكان تصرف المتوكل مع الشيعة سببا كبيرا من اسباب تدبير الشيعة للمؤامرات والدسائس للخروج على الدولة العباسية فى بغداد . واقامة حكومات شيعية مستقلة عن خلفاء العراق .

وفى القرن الرابع الهجرى ، كـانت المملكة الاسـلامية مسـرحا للعصبيـات الجنسية والعصبيات المذهبية ، واوضح الامثلة على ذلك حالة العراق فى عهد الدولة البويهية ، فقد كان مملوءا بالاتراك والديلم ، والاولون سنيـون والاخرون فـرس شيعيون ، والحروب والفتن والمصادرات وكبس البيوت لا تنقطع بينهما وقد ذهب فى سبيل ذلك ضحـايا كبيـرة من الوزراء والكتاب والعلماء حتى حكى مسكويـه فى حوادث سنة ٣٦٠ ان بختيار البويهى . رأى لمعالجة هذه الفتن ان يعقد بين رؤساء الاتراك ورؤساء الديلم مصاهرات لتزول العداوات التى نشأت بينهم . . . وفعل ذلك بجماعة من القيادات واصلح بين الديلم والاتراك واستحلف كل فريق منهما لصاحبه فحلفوا جميعا . . . فزال الظاهر ولم يزل الباطن . . . وقال ابن الاثير فى حوادث سنة ٤٤٣ (فى هذه السنة تجددت الفتنة بين السنة والشيعة وعظمت اضعاف

ما كانت عليه قديما وسببها ان أهل الكرخ عملوا ابراجا كتبوا عليها بالذهب «محمد وعلى خير البشر» وانكر السنية ذلك وادعوا ان المكتوب محمد وعلى خير البشر ، فمن رضى فقد شكر ومن ابى فقد كفر ، وانكر أهل الكرخ الزيادة . فانتدب الخليفة القائم بامر الله من حقق فكتبوا بتصديق أهل الكرخ . وحمل الحنابلة العامة على الإغراق فى الفتنة . وتشدد رئيس الرؤساء على الشيعة فمحوا (خير البشر) . فقالت السنية لا ترضى الا أن يقلع الآجر الذى عليه محمد وعلى وألا يوذن على (حى على خير العمل) وامتنع الشيعة عن ذلك . وقتل رجل هاشمى من السنة فحمله اهله على نعش وطافوا به فى الحربية وباب البصرة وسائر محلة السنية واستنفروا الناس للاخذ بثأره ، ثم دفنوه عند أحمد بن حنبل ، فلما رجعوا من دفنه قصدوا المشهد فدخلوه ونهبوا ما فيه من قناديل ومحاريب من ذهب وفضة ، فلما كان الغد اجتمعوا واضرموا حريقا فاحترق كثير من قبور الأئمة وما يجاورها من قبور بنى بويه ، وقصد أهل الكرخ الشيعيون إلى خان الفقهاء الحنفيين فنهبوه ، وقتلوا مدرس الحنفية ابا سعد السرخسى واحرقوا الخان ودور الفقهاء ، وامتدت الفتنه إلى الجانب الشرقى) وقال فى حوادث سنة ٤٤٤ : (فى هذه السنة زادت الفتنه بين أهل الكرخ وغيرهم من السنية وكان ابتداؤ ها اواخر عام ٤٤٤ : فلما عظم الشر واطرحت المراقبة للسلطان واختلط بالفريقين طائفة من الاتراك ، واشتد الامر ، اجتمع القواد ، واتفقوا على ركوب المحال واقامة السياسة بأهل الشر والفساد ، واخذوا من الكرخ انسانا علويا وقتلوه فثار نساؤه ونشرن شعورهن واستغثن فتبعهن العامة من اهل الكرخ ، وجرى بينهم وبين القواد ومن معهم قتال شديد ، وطرح الاتراك النار فى اسواق الكرخ فاحترق كثير منها والحقتها بالارض) .

وهكذا انقسمت البلاد إلى شيعه وسنية ، بل تقسم البلد الواحد للتشيع والتسنن ويقتتلون(٢٩) .

وفى عصر الشيعه الفاطمية بمصر كتب فى صفر من عام ٣٩٥ هـ على المساجد وعلى الجامع العتيق بمصر من ظاهرة وباطنه من جميع جوانبه وعلى ابواب الحوانيت والحجر وعلى المقابر والصحراء سب السلف ولعنهم ونقش ذلك ولون بالاصباغ والذهب وعمل ذلك على ابواب الدور والقياسر واكره الناس على ذلك وتسارع الناس إلى الدخول فى الدعوة .

ولما وصلت قافلة الحاج مر بهم من سب العامة وبطشهم مالا يوصف ، فإنهم ارادوا حمل الحاج على سب فحل بهم مكروه شديد .

وعندما استولى على وزارة مصر امير الجيوش عام ٥٢٤ هـ أعلن مذهب الامامية والدعوة للامام المنتظر وضرب دارهم نقشها (الله الصمد الامام محمد) ورتب فى سنة ٥٢٥ هـ اربعة قضاة ، احدهما امامى والآخر اسماعيلى واثنان احدهما مالكى والآخر شافعى فحكم كل منها بمذهبه وورث بمقتضاه واسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق وابطل من الأذان «حى على خير العمل» وقولهم «محمد وعلى خير البشر» فلما قتل فى الحرم عام ٥٢٦ هـ عاد الامر الى ما كان عليه من مذهب الاسماعيلية وما برح حتى قدمت عساكر الملك العادل نور الدين محمود زنكى من دمشق عليها اسد الدين شيركوه وولى وزارة مصر . . . ثم وليها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب عام ٥٦٤ هـ فاظهر مذهب مالك والشافعى واختفى مذهب الشيعة والاسماعيلية والامامية حتى فقد من ارض مصر كلها .

واستمر الحال على عقيدة الاشعرى (اهل السنة) بديار مصر وبلاد الشام وارض الحجاز واليمن وبلاد المغرب ايضا حتى انه صار هذا الاعتقاد بسائر هذه البلاد بحيث ان من خالفه ضرب عنقه .

وسادت المذاهب الأربعة فى اقطار الاسلام (الشافعية ، والحنفية ، والمالكية والحنابلة) وعودى من تمذهب بغيرها وانكر عليه ولم يول قاض ولا قبلت شهادة احد ولا قدم للخطابة والامامة والتدريس احد ما لم يكن مقلدا لأحد هذه المذاهب وافتى فقهاء هذه الامصار فى طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها

وفى بخارى ، ثار شريك بن شيخ المهدى حيث دعا إلى مبايعة خليفة من صلب الامام على ، غير ان الخلافة العباسية افلحت بفضل ابو مسلم ومن جاؤوا بعده فى القضاء على فتن الشيعة فى تركستان

وفى عصر البويهيين اشتد النزاع بين الشيعة والسنية فقد كان الخليفة سنيا والبويهيين شيعيين ، فاختلفت المظاهر وكثر النزاع ، ففى سنة ٣٥٤ هـ فى عهد المطيع ملأت كتب الشيعة ببغداد على ابواب المساجد بلعن معاوية ولعن من غصب

فاطمة حقها فى فدك ومن منع الحسن ان يدفن مع جده ولعن من نفى ابا ذر ، فمحاه اهل السنة بالليل ، فاراد معز الدولة ان يعيده فاشار عليه الوزير المهلبى ان يكتب مكان ما محى : لعن الله الظالمين لآل رسول الله (ﷺ) وصرحوا بلعن معاوية .

وفى سنة ٣٥٢ ألزم معز الدولة الناس يوم عاشوراء بغلق الاسواق ومنع الطباخين من الطبخ ، ونصبوا القباب فى الاسواق ، وعلقوا عليها المسموح ، واخرجوا نساء منتشرات الشعور يلطمن فى الشوارع ويقمن المأتم على الحسين ، وهذه اول مرة نيح فيها على الحسين ببغداد ، واستمر هذا سنين .

وفى سنة ٣٩٨ ، وقعت فتنة بين الشيعة وأهل السنة فى بغداد ، فأرسل الخليفة القادر الفرسان الذين على بابه لمعاونة أهل السنة وهكذا .

وجهد السلاجقة فى ايران على تأييد أهل السنة ومحاربة (الملاحدة) من الباطنية حتى اشتبكوا فى جملة معارك مع فرق الاسماعيلية المعروفين باسم الحشاشين . وهم اتباع حسن الصباح الذى استطاع ان يستولى على جملة حصون فى كوهستان . ومنها قلعة الموت التى اتخذها عام ٤٨٣ هـ مقرا له بعد عودته من لدن الفاطميين الذين كانوا يحكمون فى مصر وقد اطلق هؤلاء (الملاحدة) جماعة من فداويتهم لاغتيال كل من يقف فى سبيل نشر دعوتهم بعد ان اخذوا يعيثون فى الارض فسادا .

وكان أول ضحاياهم هو الوزير القدير نظام الملك السلجوقى الذى فضح أباطيلهم فى كتابه (سياست نامه) وحرضّ سلاطين السلاجقة على حربهم .

وفى الدور الثانى من الغزو المغولى وفدت جموعهم إلى ايران والعراق يقودهم هولاكو . . . وكان هدفهم القضاء على الاسماعيلية واقتحام منازلهم وتدمير حصونهم وقلاعهم ثم دخول بغداد بعد ذلك . وكان هؤلاء الاسماعيلية قد رحبوا من قبل بقدوم جنكيز خان إلى البلاد الاسلامية وهادنوه إلا انهم ما لبثوا بعد رحيله عنهم ان خافوا مغبة اتساع سلطان المغول فراحوا يحضون الناس على الخروج عليهم والعمل على طردهم من بلادهم حتى كاتبوا الفرنجة فى ذلك .

وظل الاسماعيلية يمارسون فى الوقت نفسه عداءهم الشرير لاهل السنة واشاعة الذعر بينهم بفداويتهم وما كانت ترتكبه من الاغتيالات المعروفة المشهورة .

وعندما تولى الشاه اسماعيل الصفوى حكم ايران اعلن عزمه على اعلاء مذهب الشيعة حتى راح يحمل الناس قسرا على الدخول فى هذا المذهب لا يتردد فى افناء مدن بأسرها والقضاء على العلماء والاعلام زرافات ووحدانا حين يرفضون الاستجابة لدعوته مستمسكين بمذاهبهم السنية القويمة .

وادى بشاه فارس تعصبه الشديد لارغام الناس على التشيع قسرا ، ان لامه مؤرخو الفرس أنفسهم على ذلك ، ودخوله فى حروب متواصلة مع العثمانيين وغيرهم .

وعمل نادر شاه فى ايران على الحد من الخلافات المذهبية بين الشيعة والسنة ودعى لهذا السبيل مؤتمر للتقريب بينهم فى بغداد ولكنه لم يوفق فى ذلك .

وفى الفترة من (١٥٠٠ - ١٥٩٧ م) كان اسماعيل الصفوى (ايران) وهو من اصل تركى ، يزعم نسبته إلى الامام السابع موسى الكاظم - واعلن هذا الشاه نفسه اماما للشيعة وحاميا لها وتحدى بذلك كل جيرانه من السنيين والعثمانيين فى الغرب والاوزبك فى الشرق . ونجد شيبانى خان يحذر شاه ايران من مسلكه هذا ويدعوه للعودة إلى المذهب السنى .

ودارت الحروب بينهما حيث انهزم شيبانى زعيم الاوزبك (السنى) وقتل الرجل وهو فى الواحدة والستين من عمره - ويقال ان الشاه امر بجمجمة عدوه فاتخذ منها كأس شراب . وفى رواية اخرى انه بعث بها إلى السلطان بايزيد فى القسطنطينية وكان على صلات مودة وصداقة بحاكم ما وراء النهرين.(شيبان) .

وامد الشاه الصفوى (فى بلاد فارس) حليفه بامبر (ملك المغول) بفرق من جنده ليستعين بهم على استرداد املاكه الضائعة ببلاد ما وراء النهر ولئن رحب الاهلون اول الامر باميرهم القديم حتى دخل بخارى وسمرقند الا ان المذابح الرهيبة التى ارتكبها جنود الشاه الفارسى لارغام الناس على اعتناق مذهب الشيعة - تلك المذابح التى يقر مؤرخو الفرس انفسهم ببشاعتها ادت آخر الامر إلى ائتلاف الاهلين مع الاوزبك لطرد هؤلاء الغزاه عن بلادهم ومعهم بامبر نفسه الذى حاول ان يمنع قواد الفرس عما ارتكبوه من آثام فلم يستمع له منهم احد .

ولو كان رجال العالم الاسلامى الكبار فى ذلك العصر ، من الفرس والعثمانيين والمصريين ـ وكانوا جميعا اولى قوة وبأس ـ كانوا قد نبذوا هذه الخلافات المذهبية البشعة وائتلفوا يدا واحدة لأمكن لهم دون شك الاضطلاع بنهضة اسلامية قوية جديدة كانت جديرة بالوقوف فى وجه اوربا التى كانت قد انتزعت اذ ذاك الاندلس من ايدى اصحابه المسلمين وشردتهم ــ وقيادات المسلمين مشغولون بمنازعاتهم ـ بل ولتأخر كذلك ظهور روسيا على مسرح التاريخ ـ تلك الدولة التى سرعان ما استغلت هذا الصراع المذهبى بين الدول الاسلامية المتاخمة لها .

ونفذت روسيا الى قلب آسيا الاسلامية وشردت من سكانه ملايين عديدة بعد ان لبثت سنين عديدة من قبل تلتزم بدفع الجزية لهم ولا يرقى اميرها العرش الا بموافقتهم .

وقام بيرم خان فى الهند بتقريب ابناء مذهبه من الشيعة ومضايقة السنيين اصحاب الغلبة فى البلاد مما اثار النفوس عليه وانتهى الامر بقتله .

وهال السلطان سليم نجاح دعوة الشيعة من لدن سلطان فارس الشاه اسماعيل إلصفوى ، فى نشر مذهبهم فى كثير من ولايات الدولة العثمانية الشرقية فتعقب معتنقى هذا المذهب فى كثير من ولايات الدولة العثمانية الشرقية حتى قتل اربعين الفا منهم .

والمؤسف ان الشاه الصفوى كان بدوره لا يقل عن سليم عنفا فى معاملة من يرفضون الدخول فى مذهبه حتى قتل من هؤلاء الرافضين مئات الالوف فى خراسان وبلاد ما وراء النهر وفيهم جملة من اعلام العلماء والائمة الفقهاء

والتقى الجيش العثمانى (السنى) مع الجيش الصفوى (الفارسى الشيعى) فى اواخر عام ١٥١٤ فى معركة رهيبة انتهت بفوز السلطان سليم ، وقد سارع الاوربيون بامداد الصفوى بالاسلحة الحديثة التى هزمهم بها العثمانيون حتى ينشغل المسلمون فى صراعاتهم الداخلية عن غزو اوربا .

وتغلب الشريف عويس (السنى المذهب) على الرافضة (الشيعة) ناحية العجم ، فلما مات تغلبت الرافضة على بلاده ، وتشتت عسكره . . . والجنود منهم من راح إلى اليزبك حيث مقر المسلمين من أهل السنة ـ ومنهم من قعد وصار يحط

الجزية إلى الارفاض ـ وكان محمود ابن عويس يرغب فى استعادة بلاد والده لتكون تحت حكمه السنى بدلا من حكم الرافضة الذين اذاقوا أهل السنة صنوف العذاب ـ واجتمع له الكثيرون من الناس بلغوا نحو الثلاثمئة مقاتل ، وساروا نحو القلعة فى أول اكتوبر ١٧٢٣ م ، وصاروا يسيرون الليل ويكمنون بالنهار ، إلى أن وصلوا إلى القلعة آخر الليل ، فكمنوا عندها إلى أن فتحوا القلعة عند طلوع الشمس فهجموا عليهم على حين غفلة فاعانهم الله فملكوها . ودخلوا معلنين بالتكبير والترضى على الصاحبين ، وأوقعوا فيهم قتلا وساعدتهم السنة الذين فى القلعة وكانوا فى الذل ، فلما جاء وقت العصر ، حتى لم يبقوا فيها رافضين غير النساء . ولا حظوا ان السنية التى كانت فى داخل القلعة تحط الجزية الى الارفاض ، حكم الذين يؤدون الجزية إلى الإسلام .

ثم إن الشريف محمود ملك القلعة بجميع ما فيها وقتل ما بقى فيها من الارفاض رجالا ونساء ، وفرق جميع ما اخذه إلى الرجال الذين كانوا صحبته ، ثم نادى فى الاقليم : كل من يريد الثواب والمال فليأت إلى الشريف محمود فجاءه خلق كثير من اليزبك ، فركب وإياهم إلى أن ملك ثلاثة وعشرين قلعة من قلاع الارفاض ، وكلما ملك قلعة ، فرق جميع ما يغنمه على العساكر ، الى أن كملت عساكره اربعون الفا ، ثم إنه حط على قلعة اصفهان وهى تحت الشاه الكبير ، الذى يحكم جميع الاعجام فحاصرها ثمانية اشهر ، وفى اول يوم من التاسع ملكها . . . فتحصن الشاه فى القلعة الداخلة هو واولاده واقاربه . . . واربعة آلاف مملوك له . . . وقبض على الشاه والاربعة آلاف مملوك . . . وهرب ابن الشاه ثوم .

ثم ان المماليك ترضوا عن الصحابة وصلوا اتباعا إلى محمود . . . ثم انه عنَّ له ان يدخل مرحاض السراية ، فدخله فوجد الكرسى من الرخام الابيض مطعماً فيه بالرخام الاسود ، تحت رجل الجالس اليمنى ابوبكر ، وتحت الرجل اليسرى عمر بن الخطاب رضى الله عنهم ـ فلما رأى ذلك المرحاض امر باحضار الشاه بعد ان طار عقله وغاب عن الصواب ، فلما حضر الشاه قال : ما هذا يا ملعون ، فتكلم الشاه كلام من يعلم انه لا حياة له بعد هذا الأمر ثم ان الشريف امر ان توقد النار ، فأوقدت ثم امر ان يأتوا بسيخين من حديد فحماهما فى تلك النار ، ثم انه كحل بهما

عينيه كما كحل عنز الاسد الرميض ففرقعت عيناه فى الحال ، وعاش بعد ذلك ثلاثة ايام وهلك إلى حيث شاء الله تعالى[٣٥] . . . . .

٢ ـ الصراعات الفقهية

(يقول المقريزى) :

اعلم ان الله عز وجل لما بعث نبينا محمد رسولا إلى الكافة كان من امره مع قريش ما كان حتى هاجر من مكة إلى المدينة فكانت الصحابة من حوله يجتمعون الّيه فى كل وقت مع ما كانوا فيه من ضنك المعيشة وقلة القوت فمنهم من كان يحترف فى الاسواق ومنهم من كان يقوم على نخله ويحضر الرسول فى كل وقت ومنهم طائفة عندما تجد فراغا مما هم بسببه من طلب القوت فإذا سئل الرسول عن مسألة او حكم بحكم او أمر بشىء او فعل شيئا وعاه من حضر عنده من الصحابة وفات من غاب عنه علم ذلك ـ وكان يفتى فى زمن النبى من الصحابة ابو بكر وعمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وابى بن كعب ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمانى وزيد بن ثابت وابو الدرداء وابو موسى الاشعرى وسلمان الفارسى رضى الله عنهم، ولما مات الرسول واستخلف ابو بكر تفرقت الصحابة . فمنهم من خرج لقتال مسيلمة واهل الردة ومنهم من خرج لقتال اهل الشام ومنهم من خرج لقتال اهل العراق وبقى من الصحابة بالمدينة مع ابى بكر عدة فكانت القضية إذا نزلت بأبى بكر قضى فيها بما عنده من العلم بكتاب الله او سنة رسوله ، فإن لم يكن عنده فيها علم من كتاب الله ولا سنة رسوله سأل من بحضرته من الصحابة عن ذلك فإذا وجد عندهم علما من ذلك رجع إليه والا اجتهد فى الحكم . ولما مات ابو بكر وولى من بعده امر الامة عمر بن الخطاب ، فتحت الامصار وزاد تفرق الصحابة فيما فتحوه من الاقطار فكانت الحكومة تنزل بالمدينة او غيرها من البلاد فان كان عند الصحابة الحاضرين لها فى ذلك اثر عن الرسول حكم به والا اجتهد امير تلك البلدة فى ذلك وقد يكون فى تلك القضية حكم عن النبى موجود عند صاحب اخر حضر نفس القضية عند النبى ولكنه موجود فى ذلك الوقت فى بلد آخر .

ثم خلف الصحابة التابعون الآخذون عنهم . وكل طبقة من التابعين فى البلاد التى فتحها المسلمون تفقهوا على من كان عندهم من الصحابة فكانوا لا يتعدون فتاواهم الا اليسير مما بلغهم عن غير من كان فى بلادهم من الصحابة ، فاتبع اهل

المدينة فى الاكثر فتاوى عبد الله بن عمر واتبع اهل الكوفه فى الاكثر فتاوى عبد الله بن مسعود واتبع اهل مكة فى الاكثر فتاوى عبد الله بن عباس واتبع اهل مصر فى الاكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص ثم اتى من بعد التابعين فقهاء الامصار كأبى حنيفة وسفيان وابن ابى ليلى بالكوفة وابن جريج بمكة ومالك وابن الماجشون بالمدينة . . . وهكذا انتهى الامر إلى المذاهب الاربعة المعروفة (مالك وابو حنيفة والشافعى وابن حنبل) .

وكان الاساس فى التعامل بين المسلمين ، على اختلاف مذاهبهم وآرائهم الدينية هو التسامح ـ وكل يرى فى صاحبه عونا على ما يشتغل هو به ـ وهكذا دخل التسامح فى كل بيت من بيوت العلم ليجد الجميع ـ على اختلاف مذاهبهم فى اى بيت ، يتحادثون ويتباحثون ـ والامام البخارى (حافظ السنة) بين يدى عمران بن حطان (الخارجى) يأخذ عنه الحديث ، وعمرو بن عبيد رئيس (المعتزلة) بين يدى الحسن البصرى شيخ (السنة) من التابعين يتلقى عنه ، وقد سئل الحسن فقال قال للسائل (لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته وكأن الأنبياء ربته ، ان قام بأمر قعد به ، وان قعد بأمر قام به ، وان امر بشىء كان الزم الناس له ، وان نهى عن شىء كان اترك الناس له ما رأيت ظاهرا اشبه بباطن منه ، ولا باطنا اشبه بظاهر منه) .

والامام ابو حنيفة تعلم من الامام زيد بن على (صاحب الزيدية من الشيعة) اصول العقائد والفقه ، ولا يجد احدهم من الآخر الا ما يجد صاحب الرأى فى حادثة ممن ينازعه فيه اجتهادا فى بيان المصلحة ، وهما من اهل بيت واحد .

ولكن الصراع نشب بين اتباع المذاهب الفقهية ، فقد كان الخلاف ايام اصحاب المذاهب ، كأبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل ، خلاف الرأى والبرهان غاية التعصب ان يعتقد ان مذهبه حق يحتمل الخطأ ، ومذهب غيره خطأ يحتمل الصواب ـ وقل ان نرى بين أئمة المذاهب عداء حادا الا قرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان . وازداد بعض الشىء أيام اتباعهم ، ولكنه قل ان يتعدى ذلك إلى ضرب او قتال . فلما انتهى هذا الطور اخذت العصبية تتزايد إلى أن بلغت القتال ، ففى القرن الثالث والرابع الهجرى اخذ الحنابلة من حين لآخر يقومون بالثورات الكبيرة ، ومن امثلة ذلك ما رواه ابن الاثير فى حوادث سنة ٣٢٣ اذ قال :

(وفيها عظم امر الحنابلة (ببغداد) وقويت شوكتهم يكبسون دور القواد والعامة . وان وجدوا نبيذا أراقوه ، وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء ، واعترضوا فى البيع والشراء ومشى الرجل مع النساء والصبيان ، فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذى معه من هو ، فان اخبرهم والا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة ، فأوهجوا بغداد وركب صاحب الشرطة ونادى فى جانبى بغداد لا يجتمع من الحنابلة اثنان ، ولا يناظرون فى مذهبهم ولا يصلى منهم امام الا إذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى صلاة الصبح والعشاء فلم يفد فيهم ، وزاد شرهم وفتنتهم . واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون بالمساجد . وكانوا اذا مر بهم شافعى المذهب اغروا به العميان فيضربوه حتى يكاد يموت ، فخرج عليهم توقيع الخليفة الراضى بما يقرأ على الحنابلة ، ينكر عليهم فعلهم ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره . (فمما جاء بهذا التوقيع) : تارة تزعمون ان صورة وجوكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين ، وهيئتكم الرذلة على هيئته ، وتذكرون الكف والاصابع والرجلين والنعلين المذهبين ، والشعر القطط ، والصعود إلى السماء ، والنزول إلى الدنيا ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ، ثم طعنكم على خيار الامة ونسبتكم شيعة آل محمد (ﷺ) إلى الكفر والضلال . ثم استدعاؤكم المسلمين الى الدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن وانكاركم زيارة قبور الائمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع وانتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذى شرف ولا نسب ولاسبب لرسول الله وتأمرون بزيارته وتدعون له معجزات الانبياء وكرامات الاولياء ، فلعن الله شيطانا زين لكم هذه المنكرات وما اغواه ، وامير المؤمنين يقسم بالله جهرا يلزمه الوفاء به ، لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقتكم ليوسعنكم ضربا وتشديدا ، وقتلا وتبديدا وليستعملن السيف فى رقابكم ، والنار فى منازلكم ومحالكم) .

. . . . . وامثال هذه الحادثة كثير فى كتب التاريخ .

وكان الخلاف الشديد بين الحنفية والشافعية يؤدى فى بعض الاحيان إلى خراب البلد . . . . ويقول ياقوت عند الكلام على (اصفهان) بعد ان ذكر مجدها القديم : (وقد فشا فيها الخراب فى هذا الوقت وقبله فى نواحيها لكثرة الفتن والتعصب بين الشافعية والحنفية والحروب المتصلة بين الحزبين فكلما ظهرت طائفة نهبت محلة

الاخرى واحرقتها وخربتها . لا يأخذهم فى ذلك ال ولاذمة ، ومع ذلك فقل ان تدوم بها دولة سلطان او يقيم بها فيعلم فاسدها) .

ويقول عند الكلام على (الرى) : كان اهل المدينة ثلاث طوائف : شافعية وهم الاقل ، وحنفية وشيعة وهم السواد الاعظم لان اهل البلد كان نصفهم شيعة واهل الرستاق فليس الا شيعة وقليل من الحنفية ، ولم يكن فيهم من الشافعية احد فوقعت العصبية بين السنة والشيعة فتضافر عليهم الحنفية والشافعية وتطاولت بينهم الحروب ، حتى لم يتركوا من الشيعة من يعرف ، فلما افنوهم وقعت العصبية بين الحنفية والشافعية ووقعت بينهم حروب كان الظفر فيها للشافعية ، هذا مع قلة عددهم ، الا ان الله نصرهم عليهم ، وكان أهل الرستاق - وهم حنفية - يجيئون إلى البلد بالسلاح الشاك ويساعدون اهل نحلتهم فلم يغنهم ذلك شيئا حتى افنوهم إلى غير ذلك) .

وكان من مظاهر هذا العصر الخلاف الشديد بين الفقهاء بعضهم وبعض وبين السنية والشيعة حتى جروا البلاد إلى الخراب . فكل مملكة تقسمها المذاهب المختلفة ، وكان النزاع شديدا بين بعضهم وبعض . وكان الشافعية مشهورين بالشغب والتآلب على خصومهم ، ومن مثل ذلك ما حكى بعض المؤرخين من ان الحنابلة قد بنوا مسجدا ببغداد ، استعانوا بالعميان الذين كانوا يأوون فى هذا المسجد فإذا مر بهم شافعى ضربوه بعصيهم حتى يكاد يموت .

وانتشر مذهب الشافعى فى مكة والمدينة . واشتهر مذهب ابى حنيفة فى العراق . وكان اكثر الفقهاء فى مصر من اتباع مالك ، وكذلك انتشر مذهب مالك فى المغرب والاندلس . ويحكون انه لما توفى ابن جرير الطبرى المؤرخ الكبير ، دفن بداره لان العامة اجتمعت ومنعت دفنه نهارا ، لتألب الحنابلة عليه ، اذ الف كتابا فى اختلاف الفقهاء مالك ، والشافعى ، وابو حنيفة ، ولم يذكر فيه خلاف الحنابلة ، فلما سئل عن أحمد بن حنبل قال انه محدث لا فقيه . ويحكى لنا ياقوت فى معجم البلدان ان بلادا كثيرة خربت بسبب الخلاف فى المذاهب وتعصب كل لمذهبه . هذا من جهة ومن جهة اخرى كان الخلاف شديدا بين الشيعة والسنية . فالخلفاء العباسيون ومن تبعهم سنيون متعصبون للسنية . والفاطميون فى مصر والشام

والمغرب والحمدانيون فى ديار ربيعة وبكر ومصر ، وبنو بويه فى العراق وغيرهم يتشيعون . وكانت الكوفة وبها قبر على اكبر مركز للشيعة . حتى قال بعضهم : (من اراد الشهادة فليدخل دار البطيخ بالكوفة ، وليقل رحم الله عثمان .

وروى ان ابا بكر الثورى المتوفى ٣٣٠ هـ روى خبرا يمس الامام عليا ، فطلب ليقتل فاستتر . واشتهرت (قم) فى ايران بالغلو فى التشيع . حتى ليحكون أن واليا سنيا ولى عليهم ، فعجب من انه لا يسمى فيهم احد ابا بكر اوعمر وكان يناهضهم اهل اصبهان اذ يتعصبون للسنية . فثارت مرة فتنة بين اهل اصبهان وقم ، لان رجلا من اهل قم سب الصحابة . . . . الخ .

فهذا الخلاف بين اتباع المذاهب من جهة وبين الشيعة والسنة من جهة جعل البلاد الاسلامية نارا مشتعلة فكل يوم نسمع هياجا من التننيين لان شيعيا سب صحابة ، ونسمع هياجا من الشيعة لان احدا مس عليا او احد الائمة حتى ان بعض العلماء الكبار من علماء بغداد حرم على نفسه المشى بالكرخ لانه كان يسمع فيها سب الصحابة . وعاقب احد الفاطميين رجلا اشد عقوبة لانه وجد عنده كتاب الموطأ للامام مالك وهذا مما كان سببه ضيق العقل واراد الفاطميون ان يمدوا ملكهم إلى العراق وما حولها فكان القتال الشديد والخصومة الشديدة ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

وليس بعجيب ان يكون الخلاف بين الشيعة والسنة والمذاهب المختلفة فى تلك العصور المظلمة انما العجيب ان يبقى هذا الخلاف على مدى التاريخ إلى اليوم .

ولما قام هارون الرشيد بالخلافة ، ولىَّ القضاء ابا يوسف يعقوب (على مذهب الامام أبى حنيفة) فاختار لولاية القضاء فى العراق وخراسان والشام من هم على (مذهبه الدينى) ـ كما تم نشر مذهب الامام مالك فى الاندلس بنفس الاسلوب .

وكان مذهب ابى حنيفة منتشرا فى افريقية ، ولكن لما ولى سحنون قضاء افريقيا نشر فيهم مذهب مالك وصار القضاء فى اصحاب سحنون .

وحدث فرض مذاهب فى اماكن اخرى على حساب اضطهاد المذاهب المخالفة .

وكاد هارون الرشيد أن يبطش بالامام الشافعى لتهمة انه يميل إلى اولاد على كما أمر المعتصم بضرب الامام احمد بن حنبل لإنكاره القول بخلق القرآن . وكما ان مالك بن انس امام دار الهجرة ضرب فى ايام المنصور لقوله: ليس لمكره يمين .

وقد وصل الخلاف بين اتباع المذاهب الفقهية الى انهم اعتبروها وراثية لا يجوز التحول عنها فمن ولد لاب شافعى فهو يظل على هذا المذهب طوال حياته ليورثه لابنائه من بعده .

٣ ـ صراعات العقل والجمود :

لم يكن شائعا فى عصر بنى أمية الا العلم الدينى من جمع الحديث وتفسير القرآن واستنباط الاحكام منه .

ولم يكن ثمة مجال لظهور الحرية فى الفكر الدينى فى عصر بنى أمية خاصة وان هذه الدولة لم تشجع النقل والترجمة عن علوم الحضارة اليونانية والرومانية .

اما فى العصر العباسى ، فقد ظهر الاختلاط بالاجناس والثقافات والاديان والمذاهب المختلفة ، كما ترجمت العديد من كتب الحضارات القديمة . . . . وبدأ العقل الإسلامى ينفتح على علوم الفلسفة والمنطق والطبيعيات وغيرها .

وكان (الاعتزال) هو ثمرة الاختلاط بين الاسلام وبين غيره من الديانات والثقافات الأخرى .

ولا يهم ، فى هذا البحث ، تتبع اصل كلمتى الاعتزال والمعتزلة ، ولكن المهم انهم شكلوا حزبا دينيا اتجه الى تحكيم العقل فى كل المسائل الدينية (واوّلوا) نص الدين بما يتفق مع ما ارتآه العقل والمنطق

وسنقصر الكلام على فرقة المعتزلة لأنها هى التى خاضت صراعات دموية مع مخالفيها .

المعتزلة :

تكلم المعتزلة فى مسائل العدل والتوحيد واثبات افعال العباد وان الله لا يخلق الشر وجهروا بان الله لا يرى فى الآخرة وانكروا عذاب القبر على البدن ، واعلنوا بان القرآن مخلوق محدث

وطالبوا بعرض الاحاديث على العقل ونفى ما لم يقبله العقل منها .

ومن اهم تعاليم المعتزلة التى أخذها عنهم الفكر الأوربى وأثارت عليهم عداء أتباع السنة قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ولو لم يرد بهما شرع ، وللشيء صفة فيه جعلته حسنا او قبيحا ، فالصدق فيه صفة ذاتية جعلته حسنا ، والكذب فيه صفة ذاتية جعلته قبيحا ولذلك يشترك العقلاء فى حسن الاحسان الى الفقير وانقاذ الغريق ويستقبحون نكران الجميل وايلام البرىء ولو لم يصلهم فى ذلك شرع ، بل ولو كانوا ملحدين والشرع لم يجعل الشىء حسنا بامره به ولا القبح قبحا بنهيه عنه بل الشرع انما امر بالشيء لحسنه ، ونهى عن الآخر لقبحه ، ولا يستطيع الشرع ان يعكس ، لان امره ونهيه نابعان لما فى الشىء ذاته من حسن وقبح .

ربما دعاهم إلى وضع هذا المبدأ ما رأوا من مغالاة قوم وجمودهم على ما ورد من حديث ولو موضوعا ، ووقوفهم عند النص ، فإذا لم يجدوا نصا لم يجرؤ وا على ابداء رأى فاحس المعتزلة بالخطر الذى يصيب الانسان من شل العقل إلى هذا الحد فوضعوا هذا الأساس ، ولذلك كان علماء الحديث من اشد خلق الله كرها للمعتزلة ، والعكس .

ولما كانت الدولة للمعتزلة فى عهد المأمون والمعتصم نكلوا باهل الحديث تنكيلا فى فتنة خلق القرآن ، ولما دالت دولتهم نكل بهم المحدثون .

وابدى المعتزلة آراءهم فى النواحى السياسية بكل حرية وشجاعة بما يتفق مع مذهبهم .

وكان المعتزلة اسرع الفرق للاستفادة من الفلسفة اليونانية وصبغها صبغة اسلامية والاستعانة بها على نظرياتهم وجدلهم

وقد شوهت سمعة الجهم والحارث بن سريج (اصل المعتزلة) تشويها كبيرا خصوصا على يد المحدثين ، وعلى يد الساسة لانهما اعلنا الثورة على الدولة الاموية وطالباها بالعمل بالكتاب والسنة والشورى . وارادت الدولة الاموية ان تعطيهما مالا كثيرا لقاء سكوتهما عنها فأبيا ، وألحا فى طلب العدل وكانا من اول الخارجين عليها ، وتكوين الجيوش ضدها فى الحركة التى انتهت بسقوط الدولة الاموية . . . . . وقد قتلا فى عهد مروان بن محمد أواخر الدولة الاموية .

وتصدى ابو الحسن الاشعرى للدفاع عن مذهب اهل السنة والهجوم على المعتزلة واحيانا تشتد الخصومة كالذى روى ان السلطان السلجوقى طغرل بك كان له وزير اسمه الكندرى ، وكان شيعيا معتزليا متعصبا للتشيع ، وكان يعقد فى داره مجالس للمناظرة كما كانت دور غيره ايضا مكانا للمناظرة . فاوعز للسلطان طغرل بك بلعن المبتدعة على المنابر ، ودس عنده ان الاشعرية من ضمن المبتدعة ، واتخذ ذلك ذريعة إلى اهانة اتباع ابى الحسن ومنعهم من الوعظ والتدريس وعزلهم من خطبة الجامع واستعان بالحنفية على الشافعية واكثر الشافعية أشعرية ، حتى حكى بعضهم ان اضطهاد الاشاعرة فى هذه الحادثة يشبه اضطهاد الامويين للعلويين ، وفى هذه الفتنة امر طغرل بك بسبب هذه الدسائس ان يقبض على كثير من كبراء الاشعرية كامام الحرمين وابى القاسم القشيرى ، وابى سهل بن الموفق . ولما قرىء الكتاب بنفيهم تحرشت بهم العامة والاوباش ، وقد حبس بعضهم وهرب بعضهم وكان ممن هرب امام الحرمين ، فقد هرب إلى الحجاز . ولم تخمد هذه الفتنة الا بتغيير الاحوال ، فقد قتل الكندرى وخلف الب ارسلان طغرل بك .

الزندقة

الملاحظ فى هذا العصر تردد كلمة (الزندقة) على الالسنة وكثرة اتهام الناس بها حقا وباطلا .

والزندقة فى بعض معانيها . وهو الشك او الالحاد . . . تقترن عادة بالبحث العلمي وهو فى العصر العباسى ابين واظهر . ولم يكن شائعا فى عصر بنى امية الا العلم الدينى من جمع الحديث وتفسير القرآن واستنباط الاحكام . . . . . . وهذا لا يؤدى إلى شكوك الزندقة .

انما المثير للزندقة مذاهب علم الكلام والجدل الدينى حول المسائل الاساسية فى الاديان والبحث الفلسفى .

ولما جاء المهدى كان من اظهر المسائل فى تاريخه تنكيله بالزنادقة والفحص عنهم ، فقد عين رجلا وكل اليه امرهم سماه (صاحب الزنادقة) يقول صاحب الاغانى : (لما نزل المهدى البصرة كان معه حمدويه صاحب الزنادقة فدفع اليه بشارا ، وقال : اضربه ضرب التلف) .

كانت طبيعة الاعتزال تدعو إلى التفلسف واتجاه العقل فى مناح شتى من الحياة وتحريره من كثير من القيود بعد الايمان بالله ورسوله ، والايمان بالقرآن وحصر الحديث فى دائرة ضيقة .... واشعار الانسان بالمسئولية لان اعماله صادرة عنه ، ولكنهم ... مع الاسف ... آمنوا بهذه الحرية وارادوا ان ينفذوا الحرية بالقوة والسلطان فكانت حرية بالاكراه .

وطبيعة المحدثين تدعو إلى الوقوف عند النصوص والتزامها وتضييق دائرة العقل واحترام الرواية الى اقصى حد ، والبحث وراء الفاظ الاحاديث ومعانيها واسانيدها ، وهذا ـ مع اعترافنا بما له من مزايا ـ يستتبع نمطا فى التفكير خاصا يسود فيه تقديس النقل اكثر من تقديس العقل ، والتقليد دون الاجتهاد والوقوف عند النصوص دون التعمق فى مغازيها ومراميها ، والنظر إلى الفلسفة والبحث العقلى فى الكليات نظر البغض والكراهية . وعد المفكر على هذا النمط ملحدا او زنديقا .... الخ . وهذا هو الذى ساد عقول كثير من المسلمين منذ خنق الاعتزال ، فاحترمت نصوص الكتب اكثر مما احترم نقد العقل ، واحترم العالم الواسع الاطلاع بالنصوص الدينية واللغوية ، اكثر مما احترم قليل الحفظ واسع افق العقل ، واكرم العالم المقلد اكثر مما اكرم العالم المجتهد ، ونظر الى المحدث والفقيه بخير مما نظر إلى الفيلسوف والمفكر الناقد ، وضاقت دائرة التفلسف اذا قيست بدوائر العلم ثم الفروع الأخرى .

وكان من اكبر مظاهر هذا العصر (القرن الرابع الهجرى) سد باب الاجتهاد ولم يكن سده بناء على مجلس اجتمع فيه الفقهاء وقرروا فيه اقفال (باب الاجتهاد) وعمل بذلك محضر وزع على جميع الامصار . وانما كان شعورا عاما بالضعف والنقص ، ونوعا من التقديس للفقهاء السابقين . ومن ذلك الحين ، اعنى القرن الرابع الهجرى ، وقف سير التشريع الاسلامى ، ومضى عصر الابتكار ، وبدأ عصر التحجر ، واصبح اصحاب المذاهب الأولون كأنهم معصومون ، واصبح الفقيه لا يستطيع الحكم فى مسألة الا إذا كانت مسألة جزئية تطبيقا لقاعدة كلية ، قاله امامه من قبله . وهذا هو الذى يسمى اجتهاد المذهب . اما قبل ذلك فكان الاجتهاد مباحا ، ولم يكن مقصورا على المذاهب الاربعة فكان هناك مذهب ابى سفيان الثورى ومذهب الاوزاعى ، ومذهب الظاهرية وغيرها من عشرات .

المذاهب . بل حكى ان بعض العلماء كان لا يرضى ان يتبع مذهبا من المذاهب ، بل يجتهد لنفسه ، ففى اوائل القرن الرابع تجمدت المذاهب ، واقتصر فيها على المذاهب الاربعة وأبطل كما قيل نحو خمسمائة مذهب . ولذلك وقف التشريع تقريبا من هذا التاريخ ؛ ورمى الاسلام بالجمود .

بل ان ذلك اعدى العلوم والفنون الاخرى . حتى كأن الاجتهاد الذى منع هو الاجتهاد فى كل علم وفن . فلم يكن ادب غير الادب القديم . ولا لغة غير الألفاظ القديمة حتى كأن العالم الاسلامى كله أصيب بالعقم

ولعل الواقعة التالية توضح لك مدى التغير الذى لحق بالانسان المسلم حتى القرن الثامن عشر الميلادى

ففى الفترة من ١٧١١ ـ ١٧١٤ ـ جلس رجل فى شهر رمضان رومى (عثمانى) الجنس بجامع السلطان ابو النصر المؤيد بالقاهرة يعظ الناس خمسة أيام ، فتسامعوا به ومن جملة وعظه ان كرامات الاولياء تنقطع بالموت وما يذكرلهم من كرامات بعد موتهم فباطل ، وما نقله الشعرانى فى طبقاته بان الاولياء لهم اطلاع على اللوح المحفوظ فباطل لا أصل له ، ومن يقول بذلك كافر لأن اللوح لا يطلع عليه الا الانبياء ، فكيف ما تيسر للأولياء . حتى انه انكر رؤ ية ـ اى اطلاع ـ للنبى ﷺ إلى اللوح ، وان جميع ما يوقد فى مقامات الأولياء من شمع وزيت لا يجوز ، ويخشى من قبل اعتابهم ومقامهم الكفر . ويجب على المسلمين وولاة الامور السعى فى إبطال ذلك ومن جملة ما ذكرة انه يجب على المسلمين ان يهدموا القبب المبنية على الموتى ، والتى على التكايا واضرحة الاولياء ، وحرض على منع الاولياء الفقراء الذين يذكرون الجلالة فى رمضان عند باب زويلة بعد العشاء .

فلما سمعت العامة منه هذا القول ، كمنوا لما صلت الناس العشاء ، وخرجت بالنبابيت والسيوف ، على الذين يذكرون الجلالة فضربوهم فهاجت الناس وهربت وصاروا يقطعون الاكر التى على الباب والجوخ ويقولون اين الاولياء .

وتوجه بعض الناس إلى الشيخ الحمد النفراوى من المالكية والسيد على من الحنفية والشيخ احمد الخليفى والشيخ عبده الدوى من الشافعية فانكروا كلام الواعظ وقالوا انه (معتزلى) .

ولما بلغ الواعظ فتوى المشايخ قال: ايها الناس ، ان علماؤكم اولاد العرب افتوا بخلاف ما ذكرته لكم بجواز قتلى ، وانى اريد المباحثة معهم فى مجلس شيخ الاسلام ، فهل منكم من يساعدنى على ذلك ، ويقوم معى لنصرة الحق وتأييده واخماد شوكة هؤلاء الكفرة الزنادقة الذين افتوا بالباطل .

وانتهى هذا الموضوع عند اجماع جميع المشايخ ببطلان فتاوى ومحاضرات الواعظ ووصل الامر إلى ولاة الأمور فخشوا الفتنة والثورة فطاردوا الواعظ واتباعه بعساكرهم حتى انتهى الامر .

واخيرا قام الشيخ محمد عبده بثورة فكرية فى العصر الحديث تهدف إلى استعادة حكم العقل فى امور الدين وفتح باب الاجتهاد لكل مسلم عنده من العلم ما يمكنه من ابداء الرأى .

إنها محاولة لاستعادة حرية الفكر عند المعتزلة .

الباب لرابع

ثمرة الصراعات الدينية

الفصل الأول

أوربا فى ظل المسيحية ـ قبل الاصلاح الدينى

عندما ظهرت المسيحية فى الامبراطورية الرومانية ، كان الجيش قد اصبح هو صاحب السلطة العليا فى القرن الثالث الميلادى .

وبالرغم ان روما بدأت حياتها ، مثلها مثل اثينا ، بالديمقراطية والشورى الا ان حياتها انتهت ، مثل حياة اثينا ، بالدكتاتورية وبحكم الفرد ، رغم وجود اشكال للمجالس النيابية الخاضعة خضوعا تاما للامبراطور .

ولسنا نريد ان نذكر بالتفصيل أسماء الاباطرة الذين جلسوا على العرش فى هذا العصر الدموى الذى سادته الفوضى . . . . وحسبنا ان نقول ان سبعة وثلاثين رجلا نودى بهم اباطرة فى الخمسة والثلاثين عاما الواقعة بين حكم الكسندر سفيرس واورليان ـ وقتل جرديان جنوده وهو يحارب الفرس (٢٤٤) .

وعجلت الفوضى السياسية تدهور الامبراطورية الاقتصادى ، كما عجل التدهور الاقتصادى انحلال البلاد السياسى ، وتضاعفت الضرائب على الفلاحين وانطمرت القنوات ، وانتشرت المستنقعات ، وخصصت مساحات كبيرة من الاراضى الخصبة لقصور ومتنزهات الاثرياء . وازدهرت العمائر الفخمة والالعاب الرياضية فى المدائن فى الوقت الذى أفقر فيه الريف ، واشتدت حرب الطبقات لأن الجيش المجند من فقراء الاقاليم كثيرا ما كان ينضم إلى من يهاجمون اصحاب الثروة .

واقام الاباطرة سلطاتهم معتمدين على ولاء الجيش ، وصعاليك المدن والفلاحين يشترونهم بالهبات والاعمال العامة وتوزيع الحبوب عليهم من غير ثمن .

وتجددت الحرب بين مجلس الشيوخ والاباطرة الذين استعملوا الجيوش لحربهم .

وعانت الامبراطورية من البلاء ما عانته ايطاليا . . . نعم ان قرطاجنة وشمال افريقيا البعيدتين عن الغزاة ، قد ازدهرتا ، ولكن مصر اضمحلت بسبب ما حل بها من الخراب الناشىء من تعدد الاحزاب ومن مذابح كركلا ، ومن غزوزنوبيا ، ومن فدح الضرائب ، ومن السخرة والتراخى فى العمل ، وما كانت تبتزه روما من الحبوب كل عام .

وفى بريطانيا نفسها ، كانت رقعة المدن آخذة فى النقصان وكانت بيوت الريف آخذة فى الاتساع ، ذلك بأن حروب الطبقات والضرائب الفادحة بددت الثروة او اضطرتها إلى الاختفاء فى الريف . وقصارى القول ان الامبراطورية بدأت بسكنى المدن وبالتحضر ، وها هى ذى تختتم حياتها بالعودة إلى الريف والهمجية .

وكانت جمهرة السكان لا حول لها ولا طول من الناحية السياسية . ذلك ان دستور قسطنطينية ، الذى لم يكن فى واقع الامر الا استمرارا لدستور دقلديانوس ، كان دستور دولة ملكية مطلقة سافرة . وقد كان فى وسع مجلس الشيوخ فى القسطنطينية وفى رومة ان يناقشا المسائل المعروضة عليهما وان يشرعا ، ويفصلان فى بعض القضايا ، ولكن هذا كله كان يخضع لحق الرفض المخول للامبراطور . وقد استحوذ على حقوقهما التشريعية مجلس الحاكم الاستشارى المعروف باسم المجلس التشريعى . يضاف إلى هذا أنه كان من حق الامبراطور ان يسن القوانين بمراسيم يصدرها بنفسه كما ان ارادته كانت هى القانون الاعلى . وكان الأباطرة يرون أن الديمقراطية قد أخفقت فى تحقيق أغراضها وأنها قضت على الامبراطورية التى ساعدت هى على اقامتها . نعم انه قد يكون فى وسعها ان تحكم مدينة . ولكنها عجزت عن حكم مائة ولاية مختلفة الاوضاع . ولقد اسرفت فى الحرية حتى جعلتها اباحية ؛ ثم اسرفت فى الاباحية حتى اصبحت فوضى ، وحتى هددت حروبها الاهلية وحروب الطبقات الحياة الاقتصادية والسياسية لعالم . . البحر المتوسط - وانتهى دقلديانوس وقسطنطين الى أن النظام لا يمكن ان يعود الا بقصر المناصب

العليا على الاشراف ما بين كنت ودوق ، لا يختارون على اساس مولدهم ، بل يعينهم الامبراطور الذى يتحمل تبعه الحكم كاملة ، ويتمتع بالسلطة كاملة ، والذى تحيط به هالة رهيبة من المهابة ، والترفع ، والعزلة عن الشعب والابهة . . . . ، وما تخلعه عليه الكنيسة من مراسم التتويج والتقديس ، والتأييد . . . . ولم يفرض هذا النظام على الحاكم قيودا الا مشورة اعوان يهمهم ان يرضوه ، والا خوفه من الموت المفاجىء ، نعم ان هذا النظام اوجد اداة ادارية وقضائية قديرة الى اقصى حدود القدرة ، واطال حياة الامبراطورية البيزنطية نحو الف عام كاملة ، ولكنها اشترت هذه الحياة بالركود السياسى وبالجمود فى كل مناحى الحياة العامة ، وبمؤامرات الحاشية ، ودسائس الخصيان وحروب الوراثة ، وبعشرات الثورات التى شبت نيرانها فى القصر ، والتى رفعت الى العرش اباطرة كفاة فى بعض الاحيان ، ولكنها قلما رفعت اليه اباطرة ذوى استقامة خلقية ، وما اكثر ما رفعت إليه من المغامرين الذين لا ضمير لهم ، او من العصابات الاجركية او من الحمقى البلهاء .

وكانت الطبقات الوسطى قبل القرن الرابع عماد حياة المدن فى ايطاليا اما الآن فقد ضعفت هى الاخرى من جراء الانحلال الاقتصادى والاستغلال المالى فقد كان كل ذى مال يخضع لضرائب مطردة الزيادة لاعالة بيروقراطية آخذة فى الاتساع ، اهم ما تقوم به من الاعمال هو جباية الضرائب ، وكان الهجاؤون الفكهون حين يشكون من هذه الحال يقولون ان (الذين يعيشون على الاموال العامة اكثر عددا من الذين يمدونهم بهذه الاموال) .

وكانت الرشا تستنفد الكثير مما يجبى من الضرائب ، وسُن الف قانون وقانون لمقاومة اختلاس ايرادات الحكومة او املاكها ، والكشف عن هذه الاختلاسات ومعاقبة مرتكبيها وكان الكثيرون من الجباة يفرضون على البسطاء اكثر مما يجب ان يؤدوه ، ويحتفظون بالزيادة لانفسهم ، وكان فى وسعهم فى مقابل هذا ان يخففوا الضرائب عن الاغنياء نظير جعل يأخذونه منهم

على أن اقل ما يقال عن الفترة من ٥١١ ـ ٦١٤ ان الحكومة ظلت تؤدى واجبها . وان غالة لم تكن كلها تطيق وحشية ملوكها وتعدد زوجاتهم وان ما يبدو من استبداد الملوك كان محددا بقوة النبلاء الذين يحسدونهم على سلطتهم . وكان الملك

يكافئهم على ما يؤدونه من خدمات فى الادارة والحرب بأن يهبهم ضياعا ويكونون فيها سادة مستقلين وفى هذه الاملاك الواسعة بدأ نظام الاقطاع الذى حارب الملكية الفرنسية الف عام ، وكثر ارقاء الارض ، وبدأ الاسترقاق يحيا مرة اخرى بسبب الحروب الجديدة ، وانتقلت الصناعات من المدن الى بيوت الريف ، فضاقت رقعة المدن ، وخضعت لسيطرة السادة الاقطاعيين ، وكانت التجارة لاتزال نشيطة ، ولكن كان يقف فى سبيلها عدم ثبات النقد ، وكثرة اللصوص وقطاع الطرق ، وارتفاع الضرائب الاقطاعية ، وكان القحط والوباء يحاربان بنجاح غريزة التكاثر الآدمية .

وتزوج زعماء الفرنجة بمن بقى من نساء اعضاء الشيوخ الغاليين الرومان ونشأ من هذا التزاوج اشراف فرنسا ، وكانوا فى ذلك الوقت اشرافا يتصفون بالقوة ، يحبون الحرب ، ويحتقرون الآداب ، ويتباهون بلحاهم الطويلة واثوابهم الحريرية ، وكثرة من يتزوجون من النساء ولسنا نجد فى التاريخ طبقة عليا لا تعبأ بالمبادىء الاخلاقية كما لم تعبأ بها هذه الطبقة ، ولم يكن لاعتناقها المسيحية اثر فيها على الاطلاق ، فقد بدت المسيحية لهم كأنها مجرد وسيلة كثيرة النفقة للحكم وتهدئة الشعب ، ولما انتصرت البربرية وانتصر الدين ، كانت البربرية صاحبة الكلمة العليا مدى خمسة قرون ، وكان الاغتيال وقتل الآباء والاخوة والتعذيب وبتر الاعضاء والغدر والترف ، ومضاجعة المحارم ، كان هذا كله هو الوسيلة التى يخففون بها من ملل الحكم : فقد قيل ان كلبريك امر بأن يكوى كل مفصل من مفاصل سجيلا القوطى بالحديد المحمى ، وان ينزع كل عضو من اعضائه من موضعه ، وكان لكاريبرت عشيقتان اختان واحداهما راهبة ، وجمع جوبرت (٦٢٨ - ٦٣٩) بين ثلاث زوجات فى وقت واحد ، وربما كان الافراط الجنسى هو السبب فيما اصاب الموفنجيين من عقم منقطع النظير : ومن امثلة هذا العقم ان واحدا لا اكثر من ابناء كلوفيس الاربعة هو كلوتار كان له ابناء ، وان واحدا من ابناء كلوتار الاربعة كان له طفل . وكان الملوك يتزوجون فى الخامسة عشرة من عمرهم ويفقدون قوتهم متى بلغوا سن الثلاثين ، ومات كثيرون منهم قبل الثامنة والعشرين ، ولم يحل عام ٦١٤ حتى كان بيت الموفنجيين قد استنفد جميع حيويته وتأهب لان يخلى مكانه لغيره .

وفى غمار هذه الفوضى لم يكن للتعليم وجود ، فلم يحل عام ٦٠٠ حتى كانت معرفة القراءة والكتابة ترفا لا يتمتع به الا رجال الدين . اما العلوم الطبيعية فقد انمحت او كادت . اما الشعب فقد كان السحر والصلاة عندهم خير من الدواء .

وفى اسبانيا ، ظل استغلال الاقوياء والمهرة للبائسين والسذج يجرى مجراه فى عهد القوط الغربيين كما كان يجرى فى عهد سائر الحكومات القديمة فكان الامراء والاحبار يجتمعون فى حفلات دينية او دنيوية فخمة ، ويضعون قواعد للتحليل والتحريم ؛ ويدبرون وسائل للارهاب والرعب ليتغلبوا بذلك كله على مشاعر الجماهير ويهدموا افكارهم . وتركزت الثروة فى ايدى عدد قليل من الافراد ، وكانت الثغرة الواسعة التى تفصل الاغنياء عن الفقراء والمسيحيين عن اليهود ، تقسم الامة ثلاث دول مختلفة ، فلما ان جاء العرب لم يبال الفقراء واليهود بسقوط دولة ملكية وكنيسة لم تظهرا شيئا من الاهتمام بفقرهم وسامتهم كثيراً من انواع الاضطهاد الدينى

وكان الاقتصاد البيزنطى فى الفترة من ٣٣٦ - ٥٦٥ مزيجا من المشروعات الفردية ، والتنظيم الحكومى ، والصناعات المؤممة ، شبيها بما يجرى به العمل فى هذه الأيام .

وكان امتلاك الفلاحين للاراضى التى يزرعونها لا يزال فى عصر جستنيان هو القاعدة المعمول بها فى الزراعة . ولكن الضياع كانت آخذة فى الاتساع وكان كثير من الزراع يضطرون شيئا فشيئا الى الخضوع الاقطاعى لكبار الملاك وكان الذى يرغمهم على هذا الخضوع هو الجفاف ، والفيضان ، والتنافس والعجز عن فلح الارض ، والضرائب ، والحروب .

وكان اعضاء مجلس الشيوخ وكبار التجار يستمتعون بثراء عظيم وبمظاهر من الترف قلما استمتع بها امثالهم من قبل فى رومة وذلك بفضل ما كان يمتلكه الاولون من اراض واسعة ، وما يقدم عليه الآخرون من مغامرات تجارية فى اقطار نائية تتناسب ارباحها مع ما كانت تتعرض له اموالهم من الخطر .

وعندما تلاشت سيادة الاباطرة اليونان من القسطنطينية تمثلت فى انقاض روما صورة محزنة للتدهور ونقص السكان واصبح استرقاقها عادة ، وحريتها عابرة تجىء

بها الصدفة ، وكان ذلك كله وليد خرافتها الدينية ، وموضع دهشتها وفزعها واندثر من ذاكرة الرومان ، ومن حياتهم العملية آخر اثر من مواد الدستور ، بل ومحيت اشكاله نفسها ، ولم تعد لديهم المعرفة ، او الفضيلة التى تمكنهم من بناء صرح دولة لها كيانها . وكانت بقيتهم الضئيلة ، وهى ذرية العبيد الغرباء ، موضع الازدراء والاحتقار فى اعين المتبربرين ، وكثيراً ما كان الفرنجة او اللمبارد يعبرون عن احتقارهم الشديد المرير لعدو من اعدائهم بتسميته رومانى ، وتحت هذا الاسم ، كما يقول الاسقف ليوتبراند ،(ينضم كل ما يتسم بالحقارة والجبن والخيانة ، وكل ما يتصف بالتطرف فى الجشع والترف ، وكل رذيلة تحط من قدر الطبيعة البشرية) .

وشاهد العالم لاول مرة اسقفا مسيحيا يمتلك امتيازات ملك دنيوى ـــ كاختيار الحكام ، وممارسة القضاء ، وفرض الضرائب ، والتحكم فى ثروة قصر رافنا وعندما تفككت مملكة اللمبارد ، حاول سكان دوقية سبولبتو أن يتجنبوا العاصفة ، فحلقوا شعر رؤوسهم على الطريقة الرومانية ، وجاهروا بأنهم خدام القديس بطرس ورعاياه ، واكملوا بهذا الاستسلام الاختيارى الحلقة التى تحيط بالدولة الكنسية ، واتسعت تلك الدائرة الغامضة الى حدود لا نهاية لها .

ونشأ نظام الاقطاع حيث القلة المميزة المرفهة المتسلطة تمتلك مساحات كبيرة من الارض وما عليها من انسان وحيوان ونبات . . وكل شىء . .

وكانت اديرة غنية مثل دير ترويستا سرجيفسكى بالقرب من موسكو أو دير سانت سيريل على البحر الابيض أكثر مراكز التجارة نجاحا فى تلك الفترة التى كانت تمثل بداية فرض التزامات العمل على انفلاحين فى مزارعهم (كبديل عن دفع الضرائب نقدا أو عينا) . ويصدق نفس الشىء على الاديرة الالمانية ، والكنائس التى كانت تمارس التجارة شرقى الالب التى حولت ابناء البلاد الى أقنان أو حتى الى عبيد ، يعملون فى فلاحة اراضيم التى كانوا يزرعونها يوما ما كفلاحين احرار ، واقاموا نظاما للارتباط بالارض فى اراضى الكنيسة اشد وطأة من النظام السائد فى الضياع الاخرى .

وكان القرن الثامن عشر فى روسيا ـــ وهو القرن الذى شهد حكم بطرس الاكبر وكاترين المستنيرة وكان بمثابة العصر الذهبى للنبلاء الروس ـــ و الحقبة التى شهدت

ازديا القنانة فى روسيا ، على نحو جعلها أكثر اقترابا من العبودية من حيث كان القن يعد الاداة الطبيعية لسيده ، الذى كان يستطيع بيع الفلاحين دون ان يبيع الارض ، كما كان باستطاعته ان يسومه سوء العذاب (او حتى يقتله) دون ان يؤاخذ على ذلك فى اغلب الاحوال .

وتبين لنا كتابات المعاصرين بجلاء ــ سوء الاحوال الذى كان عليها المنتجون المسحوقون والتى بلغت حدا ليس هناك ما هو ادنى منه مثل ذلك الرجل الذى كان (يقود أربعة عجول عجاف بلغوا من الضعف حدا يجعل من السهل ان يحصى المرء عدد ضلوعهم ، وكان شكلهم يدعو إلى الرثاء) . . (ولا يكاد يطأ الارض حتى تطل اصابعه من حذائه الممزق ولا يكاد يغطى سرواله ركبتيه) بينما تسير زوجته بجواره (حافية القدمين فوق الجليد حتى ينبثق الدم من أقدامها) وكان الاعتقاد السائد بين رجال الاقطاع ان (الفلاح كنبات الصفصاف ، ينمو بصورة احسن عندما نزرعه) وهو اعتقاد ــ على افتراض صحته ، لم يوضع موضع التنفيذ الا على نطاق ضيق ، ولم تدعو الحاجة اسقف بورنون الى تذكير اقنانه بان سيدهم ليس فظا

واتسم القرن الثالث عشر فى انجلترا ــ بزيادة واجبات العمل فى المزارع الكبيرة وخاصة فى اراضى الاديرة ، فيشكو مصدر معاصر من ان سادة الاقطاع (حملوا الفلاحين عن طريق السخرة ــ فسخروهم فى حراثة الارض بالقوة وبالاستبداد . . . .

الشخصية الأوربية فى القرنين ١٤ ، ١٥ :

عاش الانسان الاوروبى فى جحيم الصراعات الدينية لقرون طويلة ، سواء صراعاته الخارجية مع الوثنية واليهودية والاسلام ، او صراعاته الداخلية والتى سبق بيانها فى الابواب السابقة من هذا الكتاب .

وطوال هذا العهد ، وما قبله تعرضت الغالبية الشعبية لكل صنوف الإفقار والاذلال والمهانة بل والتعذيب والقتل ــ والتى سبق بيانها فى الاوراق السابقة .

ومع الجهل وكبت الحريات وانتشار الاكاذيب الدينية التى روجها اصحاب المصالح ، اثمر ذلك كله هذه الشخصية المتواكلة ، المستسلمة للمقادير والتى غلب عليها التشاؤم واليأس والتى وجدت لها متنفسا فى التصرفات الشاذه المنسوبه خطأ الى الدين المسيحى .

ولعل فى العرض التالى ما يوضح لـك ثمرة الصراعات الـدينية والسيـاسية والاقتصادية على شخصية الانسان الاوروبى .

(كان الوعاظ المتجولون يقدمون ليثيروا أفئدة الناس بفصاحة السنتهم ، فقد ظل الراهب الفرنسسكانى فى الاخ ريشار يلقى المواعظ بباريس فى ١٤٢٩ على مدى عشرة ايام متعاقبة . فكان يبدأ فى الخامسة صباحا ولا يزال يتكلم بلا انقطاع حتى العـاشرة أو الحـادية عشـرة ، وأكثر مـا كان يفعـل ذلـك فى (مقبـرة الانـوسنت (الاطهار) . حتى اذا اعلن فى نهاية عظته العاشرة انها ستكون موعظته الأخيرة ، لانه لم يؤ ذن له بالمزيد من الوعظ ، (بكى العظيم والحقير بصورة مؤثرة وبمرارة كأنما يشهدون اعز اصدقائهم يوارى التراب وكذلك فعل هو) . وظن الناس انه سيعود إلى الوعظ مرة اخرى فى سان دنى فى يوم الاحد ، فتقاطروا اليها مساء السبت وقضوا الليل فى العراء ليحصلوا على المقاعد الحسنة

وثمة راهب فرنسسكانى آخر هو انطوان فريه . منعه حاكم باريس من الوعظ لانه ندد بسـوء الحكم بعنف فتصدت بعض النسـاء لحراسته ليلا ونهارا فى ديـر (كورديلبيه) فانتشرن حول المبنى وقد تسلحن بالاحجار والهراوات وفى جميع المدن التى يتوقع وصول الواعظ الدومينيكانى الشهير فنسان فريه ، كان الناس والحكام ورجال الدين بل حتى المطارنة والأساقفة ، يخرجون لتحيته بأهازيج الفرح . وانه لينتقل فى البلاد ومعه حاشية غفيرة متزايدة دائما من المريدين الذين يطوفون بموكبهم كل ليلة بأرجاء المدينة مترنمين بالأناشيد ضاربين أجسادهم بالسياط (تقربا وزلفى إلى الله) . وتصدر الأوامر بتعيين الموظفين الذين يتولون إيواء هذه الجمـاهير الغفيـرة وإطعامها . ويصحبه أينما ذهب عدد جم من القساوسة ينتمون إلى هيئـات دينية مختلفة . ليعاونوا فى إقامة القداس وفى تلقى الاعتراف من المؤمنين . وكان يرافقه كذلك عدة موثقين ، يقومون على الفور بصياغة صكوك الصلح الذى يتمه هـذا الواعظ التقى فى كل مكان يصل إليه . وكان لابد من حماية منبره بسياج قوى يقيه من

ضغط الجماهير المصلين الذين يريدون تقبيل يده أو ثوبه . ويتوقف كل عمل طوال المدة التى يعظ اثناءها . وقلما اخفق فى ان يحرك نفوس سامعيه حتى تفيض اعينهم بالدمع . وكلما تحدث عن يوم الحساب او جهنم او آلام السيد المسيح ، كان هو وسامعوه يبكون بدمع هتون حتى ليضطر إلى ايقاف موعظته حتى يتوقف الناس عن النحيب . وكان الخطاه يرتمون عند قدميه ، امام الناس جميعا ، معترفين بخطاياهم الكبرى . وبينما هو يعظ الناس ذات يوم ، شاهد شخصين ، رجل وامرأة حكم عليهما بالاعدام يقادان إلى مكان التنفيذ . فرجا ان يؤجل التنفيذ فيهما قليلا . وامر بهما ان يوضعا تحت منبره ، وواصل موعظته متحدثا عن خطاياهما . فلما ان انتهت الموعظة لم يعثر فى المكان الذى كانا فيه الا على بعض العظام واقتنع الناس ان كلمات القديس قد استهلكتهما وغسلت خطاياهما فى الوقت ذاته .

وكانت انتقادات الوعاظ العنيفة ضد الفجور والترف تنتج فى الناس انفعالا عارما كثيرا ما كان يتحول الى عمل ايجابى . وعندما بدأ الراهب سافونارولا باشعال النار فى (الوان الباطل الغرور) بمدينة فلورنسا ، فانزل خسارة بالفنون لا سبيل إلى تعويضها إذ كانت عادة اشعال النار فى التحف وادوات الترف والتسلية منتشرة بكل من فرنسا وايطاليا وذلك على سبيل التقرب إلى الله . وكان الرجال والنساء ، تلبية لنداء واعظ ذائع الصيت يسارعون إلى احضار ورق اللعب وزهر النرد والملابس والحلى ويحرقونها فى مهرجان فخم عظيم . واتخذ التخلى عن خطيئة الباطل والغرور على هذا النحو شكلا ثابتا ووقورا من العلنية والاظهار . طبقا لميل العصر إلى اختراع اسلوب لكل شىء .

وينبغى ألا يغيب عن البال شيوع تلك الظاهرة الخاصة بسرعة الانفعال وذرف الدموع والثورات الروحية لكى نتصور كم كانت الحياة فى تلك الفترة عنيفة شديدة التوتر .

وكانت عادة الامراء فى القرن الخامس عشر من التماس المشورة فى المسائل السياسية فى كثير من الاحيان من مجاذيب الوعاظ الحالمين تؤدى إلى استمرار وجود نوع من التوتر الدينى فى شئون الدولة قد يتجلى فى ايه لحظة عن قرارات من نوع غير متوقع اطلاقا .

وفى هذه المرحلة ظهر الانشغال المتزايد بالخطر التركى ، وبدت الذكرى التى لم تبرح قوية فى الأذهان عن وقعة نيقوبوليس التى هزم فيها الاتراك العثمانيون الدول المسيحية فى ١٣٩٦ ، بقيت هذه الذكرى ماثلة فى الاذهان ، حيث انتهت محاولة طائشة لانقاذ عالم المسيحية بالقضاء التام على الفروسية ذبحا وتقتيلا . ويأتى أخيرا ، الانشقاق أو الصدع الاكبر (١٣٧٨ - ١٤٠٩) الذى اصاب الغرب وذلك عند ما قام فى غرب اوربا اثنين من الباباوات احدهما فى روما والأخر فى أفنيون ثم أنقسام المجتمع الأوربى الكاثوليكى تبعا لذلك .

التشاؤم والمثل الاعلى للحياة الرفيعة

خيم على ارواح الناس ، عند نهاية العصور الوسطى ، سوداوية قاتمة ، فسواء قرأنا مدونة تاريخية او قصيدة شعرية ، او موعظة دينية ، بل حتى وثيقة قانونية ، تولد فينا انطباع الحزن العميق ، وربما بدا ان هذه الفترة يريم عليها الشقاء والتعاسة بوجه خاص ، وكأنما لم تخلف وراءها إلا ذكرى العنف والجشع والبغضاء القاتلة ، وكأنما لم تعرف متعة الا متعة عدم الاعتدال ، والكبرياء والقسوة .

. . . ولم يكن من اللائق طوال القرن الخامس عشر ، وكذا حقبة الحركة الرومانتيكية اطراء العالم والحياة علنا ، إذ كانت الاصول الكريمة المرعية تقضى بأن لا يرى الناس الا ما فى الحياة من آلام وتعاسة وان يجدوا فى كل مكان بحثا وراء دلائل الانحلال والنهاية الدانية او بايجاز : ذم الزمان المعاصر او احتقاره .
كانت نغمة اليأس والابتئاس العميق هى السائدة الغالبة ليس عند الرهبان الزاهدين فحسب . . . بل عند شعراء البلاط ومؤرخى الاخبار .

يقول يوستاش ديشان :
زمن الآلام والاغراء . . .
عصر الدموع والحسد والعذاب . . .
عصر الانحلال المقترب من النهاية . . .
زمن طافح بالرعب ، يؤدى كل شىء بغير اخلاص . . .
عصر كذاب ، مترع بالكبرياء والحسد . . .

ولا ينسب شاستللان إلى عامة الشعب سوى فضائل دنيا قال : فإذا وصلنا إلى الطبقة الثالثة (وهى العوام) ، ألفيناها طبقة سكان المدن الصالحة ، من التجار والعمال الكادحين ، الذين لا يليق بنا ان نمنحهم من قلمنا بسطا طويلا كالذى منحناه الآخرين ، اذ لا يكاد يكون ممكنا نسبة صفات طيبة اليهم ، ذلك لانهم طغام اذلاء ، فالاتضاع والاجتهاد فى طاعة الملك ، والخضوع فى الانحناء طواعيا اجتلابا لمسرة السادة النبلاء تلك هى الصفات التى تعود بالتقدير على هذه الطبقة المنحطة من الفرنسيين) .

ولم يزل شاستللان يسمى اغنياء سكان المدن الاقنان او رقيق الارض . فليس لديه ادنى فكرة عما تتسم به الطبقة الوسطى من شرف . واعتاد الدوق فيليب الطيب ان يسىء استخدام سلطاته بتزويج جنده رماة السهام وغيرهم من الخدم ، من ارامل سكان المدن الاغنياء او من الوارثات الثريات . حتى لقد اضطر الآباء تجنبا لمثل تلك الزيجات ان يزوجوا بناتهم بمجرد بلوغهن سن الزواج . واضطرت ارملة . لهذا السبب ، ان تبادر بالزواج بعد مواراة زوجها الاول التراب بيومين اثنين . وحدث ذات مرة والدوق مشتغل بهذا النوع من الوساطة الزوجية ، ان قوبل برفض عنيد من صاحب مصنع للجعة بمدينة ليل شعر بالاهانة لو تم زواج كهذا لابنته . ووضع الدوق يده على الفتاة الصغيرة . فانتقل الوالد بكل ممتلكاته الى مدينة تورناى ، خارج دائرة اختصاص الدوقية ، لكى يستطيع رفع الامر امام المحكمة العليا بباريس . ولم يعد عليه ذلك إلا بالنكد الشديد . فاوقعه الحزن فى المرض . واخيرا بعث بزوجته الى ليل (لتلتمس الرحمة من الدوق ليعيد ابنته اليه) وتكريما ليوم (الجمعة العظيمة) اعاد الدوق البنت لامها وان قرن ذلك بالفاظ الزراية والاهانة والسخرية .

واستخدم المؤرخ شاستللان فى هذه الواقعة الفاظاًمثل (صانع الجعة الريفى المتمرد) و(ذلك مولى الارض) الشرير ايضا .

وتنطوى عواطف الطبقة الارستقراطية نحو الشعب على تيارين متوازيين ، فانا نلحظ فى الطبقة النبيلة ، جنبا إلى جنب مع هذا الاحتقار المتعالى للرجل العادى البسط ، اتجاها فيه شىء من العطف يبدو متناقضا والاتجاه الاول تناقضا مطلقا ، فبينما "ضى المنظومات الهجائية فى عهد الاقطاع فى طريقها من التعبير عن الكراهية

الممتزجة بالاحتقار واحيانا بالخوف كما هو الشأن فى (امثال الاقنان) وفى (اغنية القرويين الفلمنكيين) تدعو السنة الاخلاقية الارستقراطية من الناحية الاخرى ، الى رحمة عاطفية ترثى لبؤس المظلومين والمهيضى الجناح . وكان الناس على ما هو معلوم من انتهاب اموالهم فى الحروب واستغلال الموظفين لهم يعيشون فى افدح محنة .

ينبغى أن يهلك الأبرياء جوعا .
بما تملأ الذئاب الكبيرة بطونها كل يوم .
وهم الذين يكنزون بالآلاف والمئات .
كنوزا حصلوها بالحرام ، انها الحبوب ، انه القمح .
وان دماء الفقراء وعظامهم الذين حرثوا الارض .
ومن ثمة ارواحهم لتدعوا
ربها للانتقام لها من السادة النبلاء وبالويل والثبور لهم .

انهم يكابدون العناء صابرين (وأنى للامير ان يعرف شيئا من ذلك ، فان تذمروا فى بعض الاحيان ، هؤلاء (الاغنام المسكينة ، الناس المغفلون المساكين) . فان كلمة من الامير لتكفى لتهدئة انفسهم .

واضفى الدمار الشامل وانعدام الامان اللذان شملا كل ارجاء فرنسا تقريبا ، نتيجة لحرب المائتى عام ، على هذه الإعوالات والأنات ، حالة من الحزن العميق .

ولم تركز اية حقبة اخرى على فكرة الموت بقدر كبير مثلما اولته لها العصور الوسطى .كان هناك صوت سرمدى ينادى بحتمية الموت وتذكره يتردد فى الاسماع طوال الحياة كلها . ويوجه رئيس الكرنوس فى (دليل حياة النبلاء) النصح اليهم . (وينبغى له عندما يأوى الى الفراش ليلا ان يتفكر كيف انه كما يرقد الآن بنفسه ؛ فسرعان ما ستمتد ايد غريبة الى جسمه فترقده فى قبره) . واصرت الديانات فى الأزمنة الخالية ايضا على ضرورة التفكير المستديم فى الموت . ومنذ القرن الثالث عشر ؛ جعل التبشير بين العامة على يد هيئات الرهبان المتسولين النصيحة الأبدية الداعية إلى دوام تذكر الموت وتضخمت فكرة تذكر الموت لتصبح نشيدا قائما لكورس يدوى صداه فى كل ارجاء العالم . وقبيل ابتداء القرن الخامس عشر أضيفت الى كلمات الواعظ وسيلة جديدة لبث الفكرة الرهيبة فى جميع العقول عن طريق الكتابة المحفورة على الاخشاب .

وكانت الشكوى المتواصلة بلا نهاية من تفاهة كل ما فى الارض من مجد وربما امكن هنا التمييز بين ثلاثة موضوعات . فاما الموضوع الاول فيعبر عنه السؤال : اين يوجد الآن كل من ملأوا العالم بأبهاتهم ؟ ويركز الموضوع الثانى على الجسد البشرى وقد دب اليه البلى والثالث هو رفضه الموت : اذ يجر الموت معه اناسا من جميع الاعمار والاجناس .

ويتجلى فى اشكال أخرى ذلك العجز عن تخليص النفس من التعلق بأهداب المادة . وهناك نتيجة لنفس هذا الاحساس تجدها فى الأهمية المسرفة التى تنسب فى العصور الوسطى إلى موضوع ان اجساد قديسين معينين لم تمتد إليها يد البلى مطلقا ، مثل جسد القديسة روز من فيتريو ، وعلى هذا كان رفع جسد العذراء المباركة الذى يعفى جسمها من البلى الدنيوى يعد من اغلى النعم جميعا . وجرت محاولات كثيرة لتأخير التحلل .

وأعيد تتويج ادوارد الرابع ملك انجلترا ، لانه حدث فى يوم أحَد ، لأن يوم الثامن والعشرين من ديسمبر فى العام السابق وافق يوم احد ايضا ـ واضطر رينيه دى لورين الى التخلى عن خطته من القتال فى يوم ١٧ اكتوبر ١٤٧٦ لان مرتزقة اللانسكينية الالمان التابعين له رفضوا يومذاك ملاقاة الاعداء يوم (عيد الاطهار) .

واتسع الايمان بالقربان المقدس ليتحول الى معتقدات طفليه ـ كاعتقادهم بأن الانسان لا يمكن ان يصاب بالعمى او بضربة الفالج فى يوم استمع فيه إلى القداس او ان الانسان لا تكبر سنه اثناء الوقت الذى يقضيه فى القداس .

وكانوا لا يتورعون عن استخدام لغة العبادة فى مدح الامراء . وفى قضية مقتل لويس دورليان ، يجعل محامى الدفاع طيف الدوق يقول لابنه : (انظر الى جراحى ولاحظ ان (خمسة) منها قاسية وقاتلة بوجه خاص) . ولا يجد اسقف شارلون فى كتاب (فضائل فيليب امير برجنديا) ما يمنعه بدوره من ان يقارن بين ضحية مونتروه وبين (الحمل) الالهى ، وعندما يرسل الامبراطور فردريك الثالث ابنه مكسيليان الى بلاد الاراضى المنخفضة ليتزوج من مارية البرجندية ، يشبهه مولينيه بـ (الله الابَ) . وجعل نفس المؤلف اهالى بروكسل يقولون ، عندما بكوا تأثرا عند رؤ يتهم الامبراطور يدخل مدينتهم مع مكسيليان وفيليب الجميل (ارشيدوق

النمسا) (انظروا صورة الثالوث ، الاب والابن والروح القدس) . وهو يقدم باقة ازهار إلى مارية البرجندية ، التي هي صورة جليلة لسيدتنا العذراء ، (لولا بتوليتها العذراوية) ويضيف مولينيه إلى ذلك قوله : (ليس معنى ذلك انى اريد تملق الامراء)(*) .

الحساسية الدينية والخيال الديني

وظلت الحساسية الدينية للروح في العصور الوسطى في ازدياد منذ ان بدأت النزعة (المتصوفة) الرقيقة للقديس برنار في القرن الثاني عشر . نغمة الرقة الحزينة حول (آلام المسيح) وكان الذهن مشبعا بالتصورات المتعلقة بالمسيح والصليب . وكانت صورة الصليب تزرع في القلب الحساس منذ بواكير الطفولة الاولى ، عظيمة ، متمكنة بحيث ترجح بظلالها الشديدة على كل ما عداها من عواطف .

وبلغ مبتسان من كثرة ذرف الدموع في كل مرة يقدم فيها القربان المقدس ، انه كان يجعل المصلين ، على بكرة ابيهم يبكون بدرجة تجعل المكان يعج بعويل عام . كأنما هو بيت ميت .

واصبحت الحالة الروحية المسماة (محاكاة ابنها عاشت حسب المسيح) قرب نهاية العصور الوسطى من أشد العناصر فعالية ونشاطا في الحياة الدينية .

ونشأت فكرة ان الروح اذا تم تمثيلها في الله فقدت هنالك ارادتها ولا يمكنها بعد ذلك ان ترتكب خطيئة ، فإن أبيحت شهواتها الجامحة .

واستنادا إلى نصوص دينية في الحياة العملية (محبة المال أصل لكل الشرور) و (ان الاتاوة سالفة الذكر (سيمونية) وسيمون هذا قد حاول رشوة الرسل .

وهرطيقية ومضادة للشرع الطبيعي والالهي . . . وشروح العصور الوسطى موجهة نحو السماء .

كان كل انسان في القرون الوسطى يحب ان يؤسس كل حجة جدية يدلى بها على نص ديني ، ، بحيث يعطيها أساسا ترتكن اليه . مثال ذلك ما حدث في عام ١٤٠٦

(*) وقديما قال الشاعر العربي :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار ... فاحكم فانت الواحد القهار

بمجمع باريس الاهلى الذى كانت تناقش فيه مسألة انقسام الكنيسة ، من ان المقترحات الاثنى عشر المؤيدة والمضادة لنبذ طاعة بابا افنيون كانت كلها تبدأ باقتباس نصوص من الكتاب الوعاظ ، فى اختيارهم للنصوص .

ولعبت الامثال السائرة فى فكر العصور الوسطى دورا حيا جدا . فكان منها مئات تدور فى الاستعمال الدارج لدى كل شعب ومعظمها اخاذ المعنى موجز العبارة . وكثيرا ما تنطوى على التهكم والسخرية . فأما نبرتها فتقوم على طيبة القلب والاستسلام للمقادير . . . وهى لا تدعو إلى المقاومة اطلاقا ، ومنها (السمك الكبير يأكل الصغير ، من يلبسون ثيابا رثة لا يجلسون وظهورهم الى الريح . ليس هناك عفيف إذا لم يكن لديه عمل - عند الحاجة نسمح للشيطان ان يساعدنا - لكل حصان كبوة حتى لو أحسنت حدوته - ويكثر استخدام الأمثال فى الخطب السياسية والمواعظ . (من سكت فى كل الأمور سلم) رأس جيدة الترجيل اردأ حامل للخوذة) . (من خدم الصالح العام لم ينل اجرا على تعبه) .

ومما يرتبط بالمثل السائر ، الشعار الذى عمدت العصور الوسطى الى صقله بولع ملحوظ . والشعار يختلف عن المثل فى انه ليس كالأخير ، قولا حكيما واسع التطبيق . انما هو مبدأ سلوك شخصى او نصيحة ، فالشعار رمز وامارة - والشعار اذ يسطر فى حروف من ذهب على كل قطعة يحتويها دولاب الملابس والعتاد الشخصى ، لابد ان أوتى سلطانا ، إيحائيا غير ضئيل القدر .

والنغمة الخلفية لهذه الشعارات يغلب عليها طابع الاستسلام - شأن الامثال السائرة او طابع الأمل . وينبغى ان يكونْ الشعار خفى المعنى : (متى يتم المراد) - (ان عاجلا او آجلا) - (قد يجىء) (إلى الامام) - (المرة التالية افضل) (احزانها اكثر من افراحها)(*) .

(قُلْ يا أَهْلَ الكتابِ لستُم على شيءٍ حتى تُقيمُوا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليكُم مِنَ ربِكُمْ)

المائدة : ٦٨

---

* الا نجد هذا الاستسلام فى الشخصية الانسانية الشرقية اليوم ؟

الفصل الثانى

ثمرة الصراعات فى المسيحية بعد الإصلاح الدينى

بعد قرون طويلة من مجىء المسيحية كان لابد لهؤلاء الناس ان يتنبهوا وان يعيدوا حساباتهم فيما يعود على حياتهم الدنيا من خير بدون القيود التى وضعها رجال الدين المسيحى على فكر الناس وعلى تصرفاتهم .

وقد ايد هذا الاتجاه ما كشفه المصلحون الدينيون من زيف ما أدخله البابوات ورجال الدين من شعائر وافكار وتصرفات تتنافى مع حقيقة الدين .

بدأ الناس يفكرون فى الوسائل التى تشبع حاجاتهم بدلا من الفقر والعوز والإذلال وكبت الحريات التى عانوا منها قرونا طويلة .

وقد اعانهم على ذلك ما اخذوه من العرب من معارف وعلوم وافكار جديدة وذلك اثناء احتكاكهم بهم فى الاندلس وفى صقلية وفى الحروب الصليبية وغيرها .

ويعترف روجر بيكون بأن اوربا اخذت الفلسفة عن العرب .

وفى هذا يقول ول ديورانت ....

اخذ الصليبيون معهم الكثير من اساس الحضارة الاسلامية ـ ودخلت الف كلمة وكلمة من اللغة العربية إلى اللغات الأوربية ، وانتشرت القصص الشرقية فى اوربا ، واخذوا معهم صناعة الزجاج الملون ... والبوصلة ، والطباعة والبارود . وان ما عرفه الصليبيون من ان اتباع الدينى الاسلامى قد يكونون مثلهم

متحضرين ، كريمين ، يوثق بهم ويعتمد عليهم ، وخلاصة القول فان ما عرفه الصليبيون من هذا قد بعث بلا ريب آفاقا متسعة للتفكير .

وقد مهد التعرف على علوم المسلمين وديانتهم لثورات الاصلاح الدينى التى اجتاحت اوروبا والتى كان اساسها الاعتماد على العقل والمنطق فى تفهم الدين مع حرية البحث الفلسفى والدينى بدون قيود ميتافيزيقية مما سبق وبيناه فى الباب الثالث من هذا الكتاب .

ولهذه الاسباب هناك علاقة وطيدة بين فلسفة التنوير والاسلام ، تاريخية وفكرية ، ويمكن القول بلا ادنى مبالغة ان الاسلام كان سببا من أسباب نشأة فلسفة التنوير وأحد روافدها التاريخية ، اذ تكثر الاشارة من فلاسفة التنوير إلى الإسلام باعتباره نموذج الدين المستنير الخالى من العقائد والطقوس والشعائر والمؤسسات الدينية والداعى الى استغلال العقل وحرية الارادة والمدافع عن المساواة والعدالة الاجتماعية . ويتضح ذلك اكثر اذا ما قارنا الفكر الاعتزالى بفلسفة التنوير ورأينا الشبه بينهما من دعوة إلى التنزيه واثبات لحرية الانسان ودعوة إلى إعمال عقله ، وتأكيد لمسئوليته الفردية .

ولقد بدأ الصراع العنيف بين العقل و(الكنيسة) حين اكتملت أسباب اليقظة والجرأة ، اذ عكس هذا العصر أية العصر الوسيط ، احتوته الثقة بالعقل ، واستغرقه حب الاستطلاع الحر ، واشتد كلفه بالعلم وحبه للجمال وسائر لذاذات الحياة ، فلما اشرق العصر الحديث فى القرن السابع عشر ، رد التنافر الذى كان بين روح العصر الوسيط وروح النهضة ، إلى وحدة متسقة واتصلت فيه الحملات الموجهة لتقويض السلطة الدينية ، ولكن اكثر الفلاسفة فى العالم الكاثوليكى بوجه خاص ـ قد جمعوا بين الاذعان للعقل والايمان العميق بالوحى ـ وحاول الكثير منهم ان يترضوا رجال الدين ، ويتجنبوا إثارة الضيق فى نفوسهم عن وفاء لهم أو اتقاء شرهم ومع هذا لبث الصراع قائما ، لأن رجال الكهنوت ما زالوا اصحاب سلطة فى وقت اشتد فيه بأس العقل(*) .

---

* فى هذا يقول أبو العلاء المعرى .

يرتجى الناس أن يقوم إمام ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العـ ـقل مشيداً فى صبحه ومساه

[illegible] القرن وقد [illegible] في القرن السابع عشر باستبداد كل سلطة غير [illegible] الوسيلة لكل حقيقة ، ولكنه مع ايمانه بالعقل [illegible] يت الوحي على صحته ، وجعل العقيدة الدينية فوق متناوله ، لان [illegible] لا يكون الا بعامل خارق من السماء ، وشاع المذهب العقلى فى فرنسا طولا [illegible] ، فاذا اقبل القرن التاسع عشر اعلن العلم تمرده على الكنيسة وتعاليمها [illegible] العداء ، وحشدت لمقاومة سلفه قواها ، ولكن تياره كان غلابا ، فأصدر البابا جريجورى السادس عشر ، منشوره الذى دعا فيه إلى مقاومة الحرية فى مجال النظر العقلى ، وعقب البابا بيوس التاسع بمنشوره عن خطايا العصر الحديث، فى نزوعه الى تحكيم العقل . . . .

واصدر مجلس الفاتيكان فى عام ١٨٧٠ قراره بأن البابا معصوم من الخطأ ، ولكن على غير جدوى ، لأن القافلة أخذت تسير ، وقد وطنت عزمها على بلوغ غايتها ، وظلت مواكب الأحرار تمضى فى طريقها قدما يتابع بعضها وراء بعض ، وتخلف الرجعيون وفاتهم الركب ، فعسكروا حيث كانوا ، وقد قل عديدهم واضمحل نفوذهم وتضاءلت أمالهم ، وباتوا يسرحون الطرف فى مواكب العقل الظافر ، فيرتد بصرهم خاسئا وهو حسير

وكان ان حدثت التغييرات التى قامت على أساس من الاكتشافات الفنية والعلمية وهدفت إلى تحسين وسائل اشباع حاجات الانسان الدنيوية .

ولقد تمت هذه التغيرات والاكتشافات على يد أناس ليس لديهم سوى الخبرة العملية ، بل كانت تتم أحيانا على يد رجال ليسوا من هذا النوع .

فكار ترايت ، الذى صنع اول أنوال تسير بالطاقة واول ماكينة لتمشيط الصوف كان قسيسا يقرض الشعر .

وكان هارجزيفر وكرومينون مديرين لأعمال النسيج ، وكان جون كاى صاحب عمل صغير ، اما اركرايت فقد بدأ حياته العملية حلاقا .

وكان بنجمان هنستان اول من صنع الصلب المصبوب ، صانع ساعات ، وحتى جيزوات وجورج ستيفنسن كانا من اصحاب الحرف ولم يكونوا فنيين مدربين علميا .

ومعظم الاختراعات الهامة وبخاصة فى صناعات النسيج ، جاءت نتيجة الادراك السليم اكثر مما جاءت نتيجة لمعارف علمية .

وفى الزراعة ايضا نجد ان الوسائل الجديدة التى احدثت انقلابا تمت بفضل التجارب العملية التى جاءت نتيجة للمحاولة والخطأ بدلا من ان تجىء نتيجة للاساليب العلمية المحضة .

ولقد بدأ عصر الانقلاب الصناعى اساسا كعصر للاكتشافات فى ميدان الآلات العلمية

وبدأت مرحلة جديدة فى اوائل القرن الحالى ، ولقد بدأت اولا فى الولايات المتحدة حيث كفلت الهجرة الجماعية اعدادا غفيرة من العمال غير المدربين كما تضخمت سوق السلع الاستهلاكية ، وأدت هذه الاوضاع إلى ظهور اساليب جديدة للانتاج الجماعى ، وهذه الاساليب تعتمد على آلات تستغنى بقدر الامكان عن المهارة وتتطلب سرعة الانجاز .

وامتاز النصف الأول من القرن العشرين بتقدم كبير فى تطور المواد الخام المنتجة كيميائياً كالبلاستك والمطاط الصناعى . وضاعفت هذه التغييرات من اعتماد الصناعة على العلم ، وجعلت الكيميائيين فى قلب الفنون الصناعية وفى نفس الوقت ارتفعت تكاليف البحث بصورة حادة ، ولم تستطع غير الشركات الضخمة اقامة معامل البحث التى صارت ضرورية .

وعلى كل حال فقد اكتشف الانسان ان كل ما يعوقه عن اشباع حاجاته المادية الدنيوية هو عبث فى عبث لا يصح ان يتوقف عنده بأيه حال من الاحوال .

ويقول احد الامثال الاوربيه (Time is money) اى (الوقت هو النقود)

فلا مضيعة للوقت اى للنقود امام أى خلافات او صراعات دينية ثبت على مر القرون انها هى السبب الأساسى فى تأخر التقدم الانسانى .

وهذا هو ما يمليه العقل وما تمليه المصلحة وما تفرضه البطون الخاوية والاجساد العارية والانفس بلا مأوى او عمل أو بأجر لا يكفى لإعالتها .

قال الاسقف الامريكى وليم لورانس عن الثروه والسلوك الاخلاقى سنة ١٩٠١ .

«اننا فى مركز يسمح لنا الآن بأن نؤكد انه لا التاريخ ، ولا الخبرة ولا الانجيل تؤازر بالضرورة انعدام الثقة الشائع القائل بأثر الثروات المادية على الاخلاقيات ، ان مسار دراستنا اصبح اكثر وضوحا ، وهناك مبدء ان ايجابيان ينتهيان بنا بعيدا عن هذا المسار .

اولهما ان الانسان عندما يصبح قويا ، سيقهر الطبيعة ، ويكشف مواردها ويسخرها لخدمته ، هذه لعبته ، ومهمته المقدسة .

لقد قال ايمرسون (ولد الانسان ليكون غنيا) وانه يهتم تماما بغزو هذا الجزء من الطبيعة مدفوعا فى ذلك بميوله الفطرية وولعه حتى يجد رفاهيته فى استخدام الكوكب وكواكب اخرى غير التى يعيش عليها . وان الشراء يتطلب بجانب كسرة الخبز والسقف الذى يعيش تحته ، لا حرية المدينة ، ولكن حرية الارض كلها) . (ان الجنس القوى هو ذلك النوع القوى بهذه النواحى) .

والمبدأ الآخر ، فى المدى الطويل ، هو ان الثروة لا تجىء الا للانسان الفاضل صاحب المثل . اننا نؤمن بتناسق الكون ، ونعرف انه من خلال نواميسه الطبيعية والروحية يمكن ان نعمل بكفاءة . ولا يمكن ان تظهر اسرار الطبيعة وثرواتها الا عن طريق سلوك التفكير المستقيم والحياة القويمة . ونحن مثل داود النبى لا نرى الرجل الشرير وقد نجح الا بين الفينة والفينة .

أعط حقلين متجاورين لشخصين : واحد منهما قوى وعادى . والآخر ضعيف ومتواكل . ترى الاول وقد اخذ الفأس ، وعزق الارض وعمل منذ مطلع الشمس حتى مغيبها اما الثانى فلا تراه الا وقد بذل مجهودا ضئيلا ، يكتفى بأن يشرب من الينبوع . ويستسلم لسنة من النوم ثم يرجع متسكعا الى عمله ولا تكاد تمر سنوات قليلة حتى يصبح الاول وقد حقق غنى كبيرا والثانى وقد أصبح فقيرا يعتمد على الاول فى اعالته نادما على رخائه الضائع .

دع عشرة آلاف رجل لا اخلاق لهم يعيشون ويعملون فى واد خصيب وعشرة آلاف آخرين على خلق يعيشون ويعملون فى واد مجاور . الاجابة عمن سوف يفوز بالثروة المادية تأتى فورا : فالورع والصلاح قرينا الغنى والثروة .

وعندما يتم التعداد الحالى ، سيظهر بما لا يدع مجالا للشك ان الثروات المادية الملموسة فى هده الدولة (الامريكية) تقوم بتسعين بليون دولار اى بزيادة قدرها خمسة

وعشرون بليون دولار منذ سنة ١٨٩٠ ، خمسه وعشرون بليون فى المدخرات تكونت فى عشر سنوات .

والسؤال الذى اطرحه هو : هل الرخاء المادى لهذه الامة مواتيه لأخلاقيات الشعب او غير موات لها .

واول ما يتجه اليه العقل هو من الذى أثرى ؟ ومن الذى حصل على المال ؟

اننى أقولها باعلى صوت : (اصحاب الملايين) واصحاب رؤوس الاموال ، ونحن عندما نفكر فى هذه البلايين الخمسة والعشرين ، تتجه افكارنا الى اليخوت ، والقصور ، ووسائل الترف التى تتباهى بنفسها امام الجمهور .

وعندما بدأت اكتب فى هذا الموضوع توقف رجل ايرلندى ومعه حصانه وعربته عند الباب الخلفى ، ويلاحظ اننى اقول ومعه حصانه وعربته ، ومنذ عشرين عاما مضت كان قد نزل هذا الايرلندى الذى لم يكد يتمم العشرين من عمره الى مدينة بوسطن وقد كان أميا فظا غريبا يصعب عليه ان يعبر عن نفسه بالانجليزية ولم تكن عليه سيماء الذكاء او اليقظة او الطموح تمكنه من ان يكون راعيا للأبقار . وسرعان ما بدأت الاحوال تستقر فى امريكا حتى اكتشف هذا الرجل ان الفرص تلوح لكل من يعيش على ارضها . اشترى لنفسه لباسا اكسبه الاحترام . ثم اخذ يبعث لاهله بجزء من دخله ـ واصبح بعد ذلك يسوق عربته ـ وفتح حسابا فى البنك وحصل على عمل افضل وتزوج امرأة مدبرة ، وهو يملك الآن حصانا ، واصطبلا ، وعربة ودراجة ، له رصيد لا بأس به فى البنك ويعول خمسة أطفال ولديه عدد من العمال يعملون معه ، لقد اصبح رأسماليا دخله السنوى حوالى ٣٠٠٠٠ دولار . ولم يكن وراءه من يدفعه . لقد كون نفسه وشق طريقه بصبر وعزيمة وقوة وذكاء متزايد . انه حقق ثروة مادية وأخوه الأكبر الذى دفع له مصروفات رحلته حقق هو الآخر ثروة مادية ، واخوه الاصغر الذى تحمل هذا الرجل مصروفات رحلته حقق ايضا ثروة مادية .

وتكشف لنا هذه القصة عن اين توجد المدخرات ، انها فى ايدى مئات الالوف من امثال هذا الرجل وعشرات الالوف من الرجال الذين يحققون منذ عشرة اعوام دخولا سنوية تتراوح بين الفين وخمسة آلاف ، وآلاف غيرهم ممن ارتفع دخلهم السنوى من عشرة آلاف الى ثلاثين ألفا حتى إذا وصلنا إلى اصحاب الملايين وجدنا

أنهم لا يكونون سوى فئة قليلة لا تستطيع ان تنفق على ملذاتها وترفها الا جزءا يسيرا من دخلها ، اما الجزء الاكبر مما يحصلون عليه فيعاد استثماره ليصبح وسيلة يحصل عن طريقها آلاف آخرون على أجورهم ، انهم مجرد امناء على جزء من الثروة القومية .

عندما يتساءل المرء (هل ثراء هذه الامة المادى يتواكب أولا يتواكب مع الأخلاقيات ؟ ويجاب عليه بالتأكيد انها مواتية ، فى المدى الطويل على اية حال) .

وهذا يعنى ان البحث عن الثروة واكتسابها علامة من علامات السمات الطبيعية القوية الراسخة . وحينما وجد الرجال الاشداء ، اتجهوا الى مزاولة نشاطات الحياة . ففى ايام الفروسية يشتركون فى الحملات العنيفة او يعثرون على الثروات ، وفى الجامعات تجدهم يحتلون اعلى المستويات ، وكذلك فى البحر وفى المجال الرياضى . وفى العصر الصناعى يبذلون كل ما فى الوسع وَيجدون فى تنمية وتطوير الصناعات الكبيرة . والبقاء للاصلح .

ان البحث عن الثراء المادى اذن امر طبيعى ولازم للآنسان لزوم انطلاق جذور شجرة البلوط الى حيث تحصل على مزيد من الغذاء والرطوبة ، انه نشاط الانسان والتعبير عن قدراته وعن شخصيته وقمعها اصبح مستحيلا ، اسنحالة كبت حركة المحيطات ، وفى مقابل شخص يبحث عن المال لذاته ، تجد عشرة رجال يبحثون عنه لاشباع رغبة البحث ، والقوة الكامنة فيه ، ومن أجل الاوجه التى يستغل فيها . وهناك الابتهاج الذى يخلفه الفرد فى بيئته . فالانسان يبسط نفوذه على هذا وذاك ويسيطر عليها وعلى المشاكل والاهتمامات . فهل هو يجمع ثروة ؟ نعم ولكنه يستمتع ايضا بأن يجعل من نفسه رجلا اقوى ، واقدر واكثر نفوذا وفاعلية ، والعاطلون عن هذا الطموح اما شاب متوان فاتر الهمة واما معوز كسول تافه يجرى بحثا عما هو تافه وكلاهما ينضويان تحت فئة واحدة .

ان الانسان الأقوى هو الذى يستطيع ان يتحرك فى عصر وفى دولة تقوم فيها الفرص الملائمة والمتاحة على اسس تجارية ، ان المسألة ليست الانغماس فى الشئون الدنيوية وحب المال ، بل الاستعمال الطبيعى والاستخدام الحقيقى لصفات الرجال . واية محاولة لكبت هذا التصرف لا تمت للواجبات الدينية بصلة ، ولكنها خطيئة مدمرة لا ريب فى انها فاشلة فى النهاية

انتهى كلام الاسقف وليم لورانس .

ولعل فى كلام هذا الاسقف ما يوضح لك التغير الذى طرأ على الفكر الاوربى والامريكى وعلى الشخصية الاوربية فى العصر الحديث خاصة وان هذا الكلام صدر من رجل دين كان اسلافه يحكمون على امثاله بالتعذيب قبل الاعدام ان صدر منه مثل هذا الكلام .

وهكذا تعلم الانسان الاوربى من كل العبر التى سردناها فى هذا الكتاب عن الصراعات الدينية والاجتماعية ألا يشغل وقته او فكرة اوجهده بمثل هذه الصراعات التى عوقته طويلا عن اشباع حاجاته المادية ومن خلال شخصية انسانية ايجابية ، منتجة وبناءة(*) .

وتمكنت اوروبا المسيحية ، ليس فقط من الثراء المادى فى الداخل ، بل والعودة الى شن الحروب الصيليبية على العالم الاسلامى فانتصرت عليه بسهولة واقتسمت اوروبا دوله فيما بينها كثمرة للصراعات والانقسامات بين المسلمين مما لا يرضى الله ولا يقره الاسلام .

وحلت اوروبا محل الخلافة الاسلامية فى سيادة العالم والسيطرة على شعوبه ثم لم تلبث روسيا وأمريكا واليابان أن ظهرت على مسرح الاحداث ، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى .

وليكون الجميع على قمة الشعوب الاكثر ثراء وحضارة . . . . بينما قبعت شعوب العالم الاسلامى فى مؤخرة الفقر والتخلف .

وإنه وان كانت الشعوب الاسلامية استذلت بالاستعمار والقهر العسكرى لمدد تتراوح بين نصف القرن والقرن او اكثر من الزمان ، الا أن الاستعمار العسكرى خلف وراءة الفرقة بين المسلمين وغيرهم من اتباع الديانات الاخرى مع تعميق جذور سلبيات الشخصية الانسانية حتى اصبحت لا تعرف لها طريقا محددا لانقاذ نفسها ووطنها وعقيدتها من بؤرة الفقر والجهل والتخلف مما ادى الى خضوعها

* هذا لا يعنى أن الدول الأوربية قد تخلصت نهائيا من الصراعات الدينية ، فلا زالت هذه الصراعات موجودة بين أتباع المذاهب المسيحية وبينهم وبين الملحدين ، ولكن هذه الصراعات صراعات غير دموية وغير مؤثرة على وحدة الشعوب على طريق التعمير والتحضر ولا أدل على ذلك من اتجاه شعوب ودول أوروبا الى الوحدة

لاستعمار اقسى من الاستعمار العسكرى وهو الاستعمار الاقتصادى والعلمى . . . فالاستعمار السياسى . . . حيث اصبح القرار السياسى مرتبطاً باليد التى تلوح بغذاء وبوسائل حياة الشعوب .

وبهذا انتهت الحروب الصليبية .

وهذه هى ثمرة الصراعات الدينية الإسلامية المسيحية . . . والتى بدأت منذ القرن السابع الميلادى وانتهت فى القرن العشرين بالنصر لاتباع المسيحية الاوروبية على أتباع الإسلام .

ولله فى خلقه شئون .

الفصـــل الثالـــث

ثمرة الصراعات الإسلامية فى العصر الحديث

نجحت المسيحيـة الأوربية فى ابـادة جميع المسلمـين بأوربـا سواء بـالتنصـير الاجبارى ، أو بالقتل ، أو بالطرد حق لقد لاحظ بعض الباحثين المسلمـين عدم وجود قبر لمسلم واحد فى اسبانيا رغم أن الدّولة الإسلامية قضت بها حوالى ثمانية قرون كان معظم الشعب خلالها يدين بالإسلام.

وقس على ذلك البلدان التى استوطنها المسلمون بجنوب اوربا وبجزرها ولهم فيها تاريخ معروف .

ولكن . . . هل سكتت المسيحية الأوروبية عن صراعاتها ضد الإسلام ؟

يوجد كتاب اسمه (مائة مشروع لتقسيم تركيا ومؤلفه ــ د جوفارا ومن هذا الكتاب يتبين استمرار الرغبة العارمة لدى مسيحيى اوربا فى السيطرة على الشرق الإسلامى منذ الحروب الصليبية .

وفى خلال القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين كان قد الغرب ابتلع العالم الإسلامى كله بقواته العسكرية ــ فى كل قارة افريقيا وفى فلسطين وسوريا ولبنان والعراق وايران والخليج العربى وجنوب جزيرة العرب الخ .

ولم يكتف الغـرب بذلـك ، بل قـام بتقسيم مقر الخـلافة فى تـركيا فيـما بين دوله . . . ولكن ثورة مصطفى كمال اتاتورك انقذت الموقف حيث نجح فى صد الغرب عن بلاده .

وكان ذلك هو نهاية الحروب الصليبية بالنسبة لهم .

ترى ، ماذا فعل الغرب المسيحى بالإسلام والمسلمين بعد هذا الانتصار الباهر ؟

سوف نجعل الوثائق الغربية المسيحية هى التى تتكلم عن افعالها .

نشرت (مجلة المجلات) الإنجليزية بعددها الصادر فى يناير ــ فبراير ١٩٢٥ ترجمة نداء بليغ لأحد اعاظم الكتاب الإسبان ، السنيور ايبانيز ، أذاعه هذا فى بنى قومه فى نوفمبر ١٩٢٤ ، يبين لهم فيه فضائح الملك الفونس الثالث عشر والحاكم بأمره الجنرال بريمودى ريفيرا ، فى سياسة الدولة وفى حرب الريف ، ويدعو هذا الكاتب أمته لإسقاط الملكية واستبدال الجمهورية بها . ومما جاء فى هذا النداء الذى كانت طيارتان تجوبان آفاق إسبانيا وترميان الناس به ، انه لما قام ملك إسبانيا والجنرال بريمودى ريفيرا ، منذ عدة اشهر بزيارة البابا فى الفاتيكان ألقى الملك الإسبانى خطابا لدى البابا ، ملؤه الغيرة الشديدة على الكثلكة خاصة والنصرانية عامة ، ومما جاء فى هذا الخطاب :

(إن إسبانيا ايضا قد تجندت لحرب المسلمين فى افريقية حربا لا تنفك عنها حتى تقوم بغرس الصليب فى ديار المسلمين ، وجعلت اتباع محمد يخضعون له قهرا)

وعندما تكتلت الدول العربية مع اليونان فى جبهة ضد تركيا ، كانت البيانات الرسمية الصادرة منهم لا يشك من يقرأها على أنها حرب صليبية جديدة . . . . واخيرة

وقد سبق بيان أن الصليبيين قاموا بذبح ٧٠ الف مسلم فى المسجد الأقصى حتى سبحت الخيل إلى صدورها فى الدماء ، واستأصلت المسيحية الأوربية شأفة المسلمين من الاندلس ، وصقلية ، وجنوبى فرنسا وسردانية ، مع انهم كانوا يحصون فى هذه البلاد بالملايين ــ فقد عفّى الأوربيون كل اثر للإسلام فى اوربا ولم يرضوا ان يبقى فيها مسلم واحد ، حال كون الترك الذين يقال إنهم برابرة بقى تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الاجناس كانوا يقدرون فى اوقات عديدة أن يستأصلوهم أو

أن يحملوهم على الجلاء ، كما فعل ملوك إسبانيا وفرنسا بالعرب ــ وقالوا إن السلطان سليمان القانونى كان فكر فى سوء المغبة من بقاء الملايين من الأروام والبلغار والارمن وغيرهم بالممالك العثمانية ، واحب اخراجهم ، وقيل بل السلطان سليم ، وكان كل مرة يعترض فى ذلك شيخ الإسلام ويقول : ليس لنا عليهم الا الجزية .

قال احد وزراء الدولة العثمانية فى حديث له مع بعض رجال دول أوربية (إننا نحن المسلمين من ترك وعرب وفرس وغيرهم مهما بلغ بنا التعصب فى الدين فلا يصل بنا إلى درجة استئصال شأفة اعدائنا ولو كنا قادرين على استئصالهم . ولقد مرت بنا قرون وادوار كنا قادرين فيها على أن لا نبقى بين اظهرنا الا من اقر بالشهادتين وأن نجعل بلداننا كلها صافية للإسلام . فما هجس فى ضمائرنا خاطر كهذا الخاطر اصلا وكان اذا خطر هذا ببال أحد ملوكنا كما وقع للسلطان سليم الأول العثمانى تقوم فى وجهة الملة وبجاجّة مثل زنبيد على افندى شيخ الإسلام ويقول له بلا محاباة ليس لك على النصارى واليهود الا الجزية وليس لك أن تزعجهم عن اوطانهم . فيرجع السلطان عن عزمه امتثالاً للشرع الشريف . فبقى بين اظهرنا حتى فى ابعد القرى واصغرها نصارى ويهود وصابئة وسامرة ومجوس وآخرون وكلهم كانوا لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . اما انتم معشر الأوربيين فلم تطيقوا أن يبقى بين اظهركم مسلم واحد واشترطتم عليه اذا اراد البقاء بينكم أن يتنصر . ولقد كان فى اسبانيا ملايين وملايين من المسلمين وكان فى جنوبى فرنسا وفى شمالى إيطاليا وفى جنوبيها مئات الوف منهم ولبثوا فى تلك الأوطان اعصرا طويلة ومـا زلتم تستأصلون منهم حتى لم يبق فى جميع هذه البلدان شخص واحد يدين بالإسلام . ولقد طفت فى بلاد اسبانيا كلها فلم اعثر فيها على قبر واحد يعرف انه قبر مسلم) فلما سمعوا هذه المقارنة بهتوا ولم يحيروا جوابا

وعندما نفى البريطانيون بها دور شاه الثانى اخر السلاطين البابويين من الهند بوصفه الزعيم الروحى لأهلها من المسلمين الذين رفضوا فى الغالب الاعتراف بسلطانهم ، وأصر زعماؤ هم ابناء الطبقة المستنيرة منهم على معاداتهم وتأليب أهل هذه البلاد جميعا عليهم ، حتى اعلن اللورد النبرو ، حاكم الهند البريطانى ، فى صراحة تامة ، أن العنصر الإسلامى هو عدو بريطانيا الأصيل ، وان السياسة

البريطانية فى الهند يجب أن تهدف إلى تقريب العناصر الهندوكية اليها لتستعين بهم فى القضاء على الخطر الذى يهدد بريطانيا فى هذه البلاد .

وعلى هذا المبدأ بطش البريطانيون بالمسلمين الذين قادوا الثورة الوطنية (العصيان) اكثر مما بطشوا بغيرهم عن الطوائف الأخرى الذين شاركوا فيها فأقصوهم إقصاء شاملا عن كل وظائف الدولة التى كانوا يشغلون عددا كبيرا منها ، وجهدوا فى تقويض كل اوضاعهم الاقتصادية والثقافية ، ثم اصطنعوا ابناء الطبقات الهندوكية المتوسطة فى الوظائف الصغيرة فلا يتخطونها ابدا إلى المناصب الكبرى التى كانت جميعها فى السلكين المدنى والعسكرى وقفا على المستعمرين . ولم يكتف المستعمرون بهذا كله بل طفقوا يزيفون تاريخ الحكم الإسلامى بالهند ويظهرون سلاطين المسلمين وعمالهم بمظهر الطغاة .

ثم انطلقوا بعد ذلك يدعون الهنادكة إلى احياء ماضيهم القديم بقصد إثارتهم بذلك على مواطنيهم من المسلمين ـ ليتجلى ذلك كله فيّما بعد ، عن مذابح رهيبة متكررة بينهم وخلافات عميقة متواصلة شغلتهم جميعا حينا طويلا من الدهر عن مناوأة الحكم البريطانى بالهند .

وعندما اصدر البريطانيون قوانين الاصلاح الزراعى ، الذى نظم للأوروبيين حقوق امتلاك الأراضى الكثيرة والضياع الواسعة بالهند ، صارت اغلب الأراضى التى كان المسلمون يمارسون زراعتها ، بمقتضى هذا القانون ، ملكا لجباة الضرائب من الهنادكة وانقلب زراعها الأصليون الذين صودرت اراضيهم إلى اجراء عندهم .

وانتهت الصراعات إلى تقسيم الهند إلى هند وباكستان ، وفى عام ١٧٧٤ انزل الروس الهزيمة بالترك وارغموهم على عقد معاهدة كجوك فينارجة ليزعموا من بعد ذلك انهم اصحاب الحق الطبيعى فى رعاية المسيحيين من رعايا العثمانيين والأشراف على شئونهم . بل إن من واجبهم المقدس اساسا العمل على إحياء الدولة البيزنطية من جديد .

ومن المسلم به أن اوروبا كانت فى كل حروبها للقضاء على تركيا ، تنظر إلى العثمانيين نظرة صليبية خالصة بوصفهم يمثلون قوة الإسلام الحقيقية الكبرى ومن ثم كان هذا هو هدفهم ومهمتهم الأساسية . هذا إلى جانب موقف خليفة المسلمين نفسه الذى ظهر ضعفه وعجزه بوضوح حين اخذ الروس يتوغلون فى التركستان ،

وحين نزل الفرنسيون والإيطاليون بشمال افريقية واستولى البريطانيون على وادى النيل .

والواقع أن السلطان التركى منذ أن ناصرته فرنسا وانجلترا بقواتها فى حرب القرم عام ١٨٥٤ ضد الروسيا لم يكن ليرد لها طلبا ، حتى وهب جـزيرة قبـرص لبريطانيا وتغاضى عن احتلال فرنسا لشمال افريقيا وانجلترا لوادى النيل كما لم يحرك ساكنا بازاء حرب الابادة التى مارسها الروس فى القرنين الماضى والحاضر فى القوقاز والتركستان واستشهد فيها اكثر من عشرين مليونا من المسلمين .

ثم ألم يكن الخليفة نفسه ــ بضغط من المستعمرين وارضاء لهم ــ هـو الذى اعلن على الملا عصيان مصطفى كمال وهو يحارب فى الاناضـول جيوش اليـونان الجرارة ومن ورائها امدادات الحلفاء مجتمعة للاجهاز التام على آخر قوة عسكريـة للإسلام . وما صنعه الخليفـة وحيد الـدين فى ذلك مـع مصطفى كمـال الزعيم التركى ، كان قد فعله سلفه الأسبق الخليفه عبد الحميد مع الزعيم المصرى أحمد عرابى ، وهو يدافع الإنجليز عن وادى النيل عام ١٨٨٢ م .

وكتب زويمر عن مساعى المبشرين فى اقطار الإسلام كلها قطرا قطرا ، وعن درجة نجاح تلك المسـاعى وحبوطهـا ووسائـل هذا التبشـير كالـرسالات الـدينية والبعثات الجغرافية ومستشفيات ومصاح وملاجىء للفقراء ــ ويرى زويمر فى طريقة التبشير عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية ــ حيث يعلم أن قلعتهم ثمة منيعة ــ بل الدخول عليهم من الجهة القلبية باستجلاب عواطفهم ، واستمالة اهوائهم ، وتمريض اجسامهم ، ومواساة فقـرائهم وبالاختصـار استثمار امـراضهم وعللهم وكروبهم وخصاصاتهم .

ولا ينكر أن هذا الرأى هو رأى مجرب خبير ساح فى جزيرة العرب وفى كثير من بلاد الإسلام وعلم ما يعوز الإسلام من وسائل التعليم والتمريض ، وما عليه المسلمون من اهمال هذه الجهات

ويقرع زويمر الحكومات المسيحية على تقصيرها فى حق التبشير من أجل ملاحظات سياسية ، ويعقد مناحة عظيمة على ترك انكلتره ولاية (كافرستان)

(شرقى افغانستان) لعبد الرحمن خان امير الأفغان حتى بعث اليها احد قواده غلام حيدر فحمل اهل تلك الولاية على الإسلام فاسلموا قاطبة . ويقول إن أهالى مقاطعة كيلان فى بلوخستان ليسوا مسلمين الا بالاسم فالبدار البدار إلى تنصيرهم قبل أن يصيروا مسلمين متعصبين . . . . الخ .

والطامة الكبرى عند زويمر هى فى اواسط افريقية ، فانه يذوب لهفا على انتشار الإسلام فى تلك الأرجاء ، بهذه السرعة الغريبة ، ويتأوه على كونه فى السودان كله لا يوجد اكثر من عشرين مبشرا . . . . وبالاجمال يقول إن نحو ٥٠ مليونا فى اواسط افريقية واطرافها قد اسلموا بالرغم من مساعى المبشرين الذين لم يعرفوا من اين تؤكل الكتف .

وهو يرجو أن ثمرات التبشير فى السنين المقبلة ستكون اعظم مما مضى ، ولا ينكر أن تنصير السود هو عقبة كأداء نظرا لبغض الزنوج للجنس الأبيض الأوروبى على اطلاقه ــ وتضامنهم فى وجهه ، ولكنه يوجب على اوربا اجتياز هذه العقبة وعدم المبالاة بالصعوبات التى تلقاها من جانب السود ، وأن تعلم أن هذه الفرصة اذا ضاعت فلا تعود ابدا فينبغى أن تكون هزيمة الإسلام فى الحرب العامة انتصارا للكنيسة المسيحية (هكذا بالحرف الواحد) وينتقد طريقة بعض الحكومات المسيحية التى ــ احيانا بدون روية ــ تصلح ادارة الإسلام الدينيه ، وتنظم اوقاف المسلمين ، مع أن هذه الأوقاف جسيمة دارة ، يمكن بها عمارة المساجد وتسهيل العبادة وتعزيز قوة الإسلام الدينية ، وقد شوهد كيف زادت سكة حديد الحجاز عدد زوار المدينة ، وكيف زادت خطوط الترامواى زيارة كربلاء ، وصارت شركة كوك تسفر المسلمين الأغنياء إلى مكة ، . . . . بل إن تشجيع الدول الأوربية للتعليم من شأنه زيادة تمسك المسلمين باسلامهم بل احتقارهم لسادتهم الأوربيين

وكان انتشار الإسلام فى جاوة ، بحسب تحقيقات العلامة هورغونيه — بواسطة تجار مسلمين طرأوا عليها من الهند مقتفين آثار تجار الهندوس الذين كانوا يترددون إلى تلك البلاد ويطبعون اهلها بطابع مدنيتهم البرهمية فجاء الإسلام واستمالهم اليه وما زال يتقدم فيهم حتى غلب على جميعهم تقريبا بطرق سلمية ، وبدون ادنى قهر ولا عنف الا ما حصل من اهالى شرقى جاوة الذين غلبوا بعض مجاوريهم بالقوة ، فمن جاوة امتد الإسلام إلى سومطرة وإلى قسم من بورنيو وسيلب والجزر التى إلى الشرق . وابن بطوطة الرحالة الشهير امتدح ملك سومطرة فى القرن الرابع عشر بأنه جاهد الكفار .

ولم يزل الإسلام ينتشر فى البقايا الباقية على الوثينة حتى احتج كثير من الهولانديين على تساهل الحكومة الهولاندية فى ذلك وكيف انها تسمح للإسلام باكتساب هذه البقايا . واكثر من صخب لذلك هى جمعيات التبشير المعهودة ، ولكن المستشرق هورغرونيه يفصل هذه المسألة بكلامه الآتى :

« يجب على الحكومة أن تحذر من وضع كثير من المأمورين الوطنيين الذين يدينون بالإسلام فى البلدان التى اهلها وثنيون لئلا تكون قد ساعدت على نشر الإسلام بدون قصد منها . وهذا المحذور قد وقع فيه الالمان انفسهم فى المستعمرات الالمانية بشرقى افريقية . ولكن الخطر عندنا اعظم لأن المأمورين الوطنيين من اهل جاوى هم فى الغالب من المتعلمين والمطلعين على اصولنا الادارية وليس عندهم تعصب مفرط فى الدين ، فلا يسهل الاستغناء عنهم ، وقد تميل الحكومة إلى استخدامهم ، فلا ينكر انه مع تمادى الزمن يؤثر وجود هؤلاء المأمورين المسلمين فى مسألة نشر عقيدتهم بين ساعدنا بأنفسنا على إسلام غير المسلمين»(*) .

وبعبارة اخرى فان مصلحة هولاندة ، واوربا كلها ، تقضى بترجيح بقاء الأهالى وثنيين على أن يصيروا مسلمين .

ولكن حربهم للإسلام كانت نابعة من أن الإسلام لا يجتمع مع الذل فى قلب واحد .

---

* قارن ذلك باليهود أيام النبى عليه الصلاة والسلام بترجيح بقاء القرشيين على وثنيتهم على أن يصيروا مسلمين .

. . . وعملت حكومة موسوليني ، بعد غزو طرابلس الغرب ، إلى الاحداث من فوق اربع سنوات الى ١٢ سنة فاخذتهم قهرا من احضان ابائهم وامهاتهم فى يوم تشيب من هوله الوالدان ودفعتهم إلى إيطاليا لأجل تربيتهم وتنشئتهم على النصرانية وهذا يشبه عمل الاسبانيول بمسلمى الأندلس منذ اربعة قرون .

وبهذا انتصر الغرب المسيحى فى صراعاته الخارجية ضد المسلمين .

رد الفعل الإسلامى على الانتصار الصليبى : —

لم يرض المسلمون بذل الهزيمة والوقوع تحت سيطرة الغزو الصليبى الحديث فعملوا على تحقيق الوحدة بين جميع شعوب العالم الإسلامى فى جامعة اسلامية ليتمكنوا عن طريقها من رد الغزو والتخلص من الاستعمار .

ولما فشلت الجامعة الإسلامية فى تحقيق اهدافها العسكرية بسبب افتقار المسلمين إلى علوم الغرب العسكرية والحضارية ، قرروا أن تكون البداية فى نشر العلم والتوعية والأخلاق الفاضلة .

وتوقفت مسيرة نشر العلم والتوعية والأخلاق الفاضلة بين شعوب العالم الإسلامى لتحل محلها ثورات داخلية تهدف إلى قلب نظم الحكم القائمة التى تصور البعض انها تمثل العقبة الوحيدة امام تقدم وانتصار الإسلام .

فقامت تركيا بتقليد الغرب المسيحى والغت نظام الحكم (الإسلامى) لتحل محله النظم الغربية الحديثة مع عدم التسامح مع اتباع الديانات غير الإسلامية اقتداء بالغرب المسيحى فى تعصبه ضد اتباع العقائد المخالفة .

وعلى العكس من ذلك ، قامت فى بعض الدول الإسلامية ثورات بهدف احلال نظم الحكم الإسلامى محل النظم القائمة وذلك مثل ما حاول الاخوان المسلمون فى مصر . . وعلى امل أن يؤدى الحكم (بشرع الله) إلى نهضة العالم الإسلامى

وتفشل هذه المحاولات ،لتقع بلاد اسلامية كثيرة فى صراعات دينية داخلية تشغلها عن الهدف الأساسى الذى (يجب) أن لا يغيب عن فكر وعن مشاعر كل مسلم وهو حتمية استمرار العمل بكل الجهد وبكل الإمكانات المادية لتخليص الإسلام والمسلمين من ذل التخلف والهزيمة .

وهذا هو ما اسميناه بـ (صراعات الغفلة) .

ولم يتعرض الكتاب لأشكال أخرى من رد الفعل عند العالم الإسلامى مثـل (الثورة) الوهّابية فى جزيرة العرب و (الثورة) المهدية فى السودان اتباعا لما درج عليه هذا الكتـاب من الاكتفاء بعـرض بعض الصـور والنمـاذج من الأحـداث للاختصار .

١ـ الجامعة الإسلامية : ـ

ما كاد ينتصف القرن التاسع عشر حتى فتح الفرنسيس الجزائر واستولت روسيا على عبر القوقاس ، وبسطت انكلتره نفوذها على الهند من اقصاها إلى أقصاها كل هذا جعل قادة المسلمين الحكماء فى كل صقع يوقنون كل الإيقان أن الإسلام انما يحيق به خطر عظيم ، وبلاء شامل ، من جـراء انتشار سيـطرة الغرب عليـه وفى هذه الغضون اخذت الجـامعة الإسـلامية تسـير فى تيار غـايته مقـاومة الغـرب وصده وعداؤه .

وقد كانت المقاومة فى بادىء الأمر فى موضع موضع ، وغير منظمة تنظيما مرتبط الوسائل كل الارتباط ، فهب ابطال من المسلمين مثل عبد القادر فى الجزائر وشامل فى القوقاس وغيرهما ، يقاتلون الفاتحين الغربيين قتالا شديدا فكان ذلك القتال على استمراره اشبه بمصنع يزيد العالم الإسلامى جروحا فيزداد تألما وصراخا ، بيد أن قتالا مثل هذا ما كانت الغلبة فيه لأبطال المسلمين ، وذلك لوهن قواهم بعد جهاد كبير طويل العهد ، ولعدم تناولهم مددا ونصرا يستعينون به على المضى فى القتال .

وما انفكت روح العداء للغرب تهيج وتشتد ، حتى بات العالم الإسلامى قاطبة يغلى غليان المرجل على النار ، فشبت فى الجزائر الثورة المعروفة بثورة (الكابيل) سنة ١٨٧١ وهب رجال الدين المعروفون بالاولياء فى كل بلد من بلاد افريقية الشمالية يستثيرون المسلمين ويستنفرونهم للحرب والجهاد ، ومن هذا النـوع كانت ثـورة المهدى فى السودان ، وهى الثورة التى دامت طويلا وفتت فى عضد الإنكليـز فتاً كبيرا ، وانزلت بهم خسائر فادحة .

وانفجر فى افغانستان بركان حقد وعداء للغرب عظيم فتناولت حممه مسلمى الهند فألهبت صدورهم الهابا ، فهبوا يشقـون عصا الـطاعة عـلى الإنكليز الـذين

ما استطاعوا تسكين العاصفة الا بعد شق الانفس وركوب الأهوال ، وحدث مثل ذلك فى اواسط آسيا حيث ظهرت (الطريقة النقشبندية الدينية) فاخذت تمتد وتنتشر شرقا حتى بلغت الأقطار الصينية فثار مسلمو الصين ثورتهم الكبرى فى (تركستان الصينيـة) و(ينان) واشتعلت فى جـزائر الهنـد الشرقيـة الهولنـدية نـار الثورات المتوالية ، واشهرها ما عرف (بالحرب الأتشية) .

وفى سنة ١٩١٢ عادت الجامعة الإسلامية تستـأنف سيرهـا ومجراهـا ، وكان الباعث على ذلك هو اشتداد اعتداء الدول الغربية . ففى سنة ١٩١١ أغارت إيطاليا معتدية على طرابلس الغرب الأفريقية التابعة للدولة العثمانية على غير ما علة سوى علة الاستعمار . وفى سنة ١٩١٢ تألبت الدول البلقانية النصرانية وأوقـدت نار الحرب على تركيا ، فخسرت تركيا فى هذه الحرب جميع املاكها الأوروبية ، فلم يبق من جميع ما كان لها فى أوروبة غير القسطنطينيـة معرضـة لخطر الغـارات عليها ، ومهددة شر تهديد .

وعندما اعلنت الدول البلقانية الأربع الحرب على تركيا ، نشرت بلاغا لم يشك قارئه أنه بلاغ الصليبيين فى القرون الوسطى . . . أى اعلان حرب دينية ولم تجد من الأوروبيين من انكر هذا الأمر .

وفى تلك الغضون اتفقت انكلترا وروسيا على خنق الثورة الفارسية ، وكانت فرنسا على أثر معضلة (اغـادير) تحـرق الأرم ، فعضت على مـراكش بالنـواجذ وانقذت فيها المخالب ، وهكذا فى خلال سنتين توالت الحملات الأوروبية تترى على العالم الإسلامى ، حملات العدوان والاعتداء المحض ، فمزقت ما كان باقيا منه حتى ذلك العهد سليما شر ممزق .

فنزل ذلك على الأمم الإسلامية نزول الصاعقة ، يصم الآذان دويها . فأخذ العالم الإسلامى فى المشرق والغرب يقوم ويقعد مشتعلا غضبا وقد تحقق من صدق جميع ما كان يذيعه جمال الدين الأفغانى ، وعادت الجامعة الإسلامية لتأخذ دورها وتتبدى للظهور فى المجاهدين المسلمين الذين اتوا من كل مكان فى العالم الإسلامى يقاتلون جنبا إلى جنب ضد الطليان فى طرابلس الغرب .

ونعى الزعماء المسلمون فى الهند على موقف ملك اليونان الذى يوقد حرباً صليبية جديدة ، ويستنصر وزراء انجلترا تعصب النصرانية على الاسلام

٢ ـ التعليم والتوعية الإسلامية : ـ

عندما وصلت الحال فى العالم الإسلامى إلى هذا الحد ، ادرك قادة الجامعة الإسلامية الحكماء جميع هذا وباتوا يوقنون أن الثورات المحدودة التى تشب فى موضع تقوم بها امة من المسلمين دون الأخرى فى قطر من الأقطار لا يمكن أن توهن شيئا من قوة الغرب تلك القوة الحربية المنظمة على أحدث الأصول والفنون ، وادركوا حق الإدراك انه اذا رام العالم الإسلامى تحرير نفسه من النير الغربى ، وتحطيم هذه السلاسل الثقيلة التى يرسف فيها منذ عهد بعيد ، ودك هذه السيطرة المذلة دكا ، وجب عليه أن يعمل عملا منظما شاملا ، ويسعى سعيا اكيدا ثابتا ، جامعا للوحدة العامة والرابطة الكبرى . وايقن هؤلاء ايضا انه لابد للعالم الإسلامى اذا شاء هذا ، من دراسة علوم الغرب ، واكتناه عظمته وقوته وتقدمه ، ونهج مناهجه وسلوك سبله فى جميع ما يؤدى إلى النهضة الصحيحة القائمة على أسس العلم واركانه ، فانما هذا هو السبيل الذى لا سبيل الا هو للافلات من ربقة استعمار الغرب والتحرر من حكم الفرنجة . وفوق جميع هذا ايقن قادة الجامعة الإسلامية أن استقلال العالم الإسلامى عن الغرب النصرانى الأستقلال السياسى ، يجب على كل حال أن يسبقه التجدد الروحى العقلى العلمى الأدبى ، والتربية النفسانية الصحيحة ، وأنه متى صلحت نفوس المسلمين وزكت وطابت واعتزت وباتت تعاف الذل وتأبى الضيم ، سهل اذ ذاك كل عمل فى سبيل التحرر والاستقلال .

وعند هذه النقطة من الدائرة ، التقت غاية دعاة الجامعة الإسلامية ، وغاية الأحرار أن ادرك الفريقان كلاهما استفحال الخطب الجلل والشقاء الأكبر فى العالم الإسلامى ، وما يعانيه المسلمون من الذل والهوان فابتغيا تجدده الروحانى واصلاحه النفسانى ، غير انه نشأ الخلاف بينهم فى وسائل هذا التجديد والإصلاح وكيفيتهما ، فقال الأحرار أن المسلمين لا مندوحة لهم من الأخذ عن الغرب ، واقتباس الأفكار منه واتباع طريقته فى جميع ما هو لازم وضرورى لبلوغ الغاية العليا . . . وقال

ارباب الجامعة الإسلامية إن الإسلام بذاته لصالح كل الصلاحية لكى يستمد منه جميع ما هو لازم لذلك فلهذا ينبغى أن يقصر أمر الأخذ عن الغرب على محاكاته فى انتهاج مناهجه العلمية ، والاستعانه بوسائله المادية فحسب .

وكان مبدأ الجامعة الإسلامية السير المنظم على الخطط المقررة ، حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، اذ كان للجامعة أسان قامت عليها ، هما الطرق الحديثة النظام كالطريقة السنوسية ، والدعوة التى قامت بها فرقة من جلة العظماء واكابر المفكرين الحكماء ، يرأسها السيد جمال الدين الأفغانى واننا نبسط الكلام على هذين الاسمين بادئين بالأول منهما .

السنوسيه تهدف إلى الإصلاح الدينى والتهذيب النفسانى والخلقى ، فخطة السنوسى التى (كان ينوى القيام بها بعد اكتمال العدة التى يجاهد فى سبيلها انما هى افتتاح جميع البلاد الأفريقية ، ثم سائر الأقطار الإسلامية ، ثم جعل العالم الإسلامى من أقصاه إلى اقصاه مملكة واحدة ــ على رأسها خليفة واحد ، وهذه المملكة العظمى يرتبط بعضها ببعض بالجامعة الإسلامية الكبرى ، على أن السنوسى لموقن حق الايقان أن تحرر المسلمين التحرر السياسى من ربقة السيطرة الغربية النصرانية ، يجب أن يسبقه انتشار التجدد الروحانى والدعوة الأخلاقية فى المسلمين ، فلهذا هو لا يفتأ يجاهد نحو ادراك هذه الغاية بتهذيب اخلاق رعيته وترقيتها ، وايتاء نفوسها التربية الصحيحة وتنشئتها على الفضائل الإسلامية العليا ، وهو لم يقصر الأمر على هذا فحسب ، بل يجد ايضا جدا اقتصاديا فى سبيل تحسين اسباب المعايش وتوفير وسائل الكسب فكثرت فلاحة الواحات الخصبة ، ونمت الزراعة ، واحتفرت الآبار الحديثة ، وابتنيت الأنزال على طريق القوافل ، وشرع فى انشاء وسائل التجارة على نطاق رحب وذلك فى ليبيا .

جميع هذا يوضح لنا أن الطريقة السنوسية قد بلغت مبلغا من الأعتزاز والمتعة لم يسبق له مثيل من قبل ، وهذا هو السبب الذى اقتضى أن تسير السنوسية سير الاتئاد ، مزدادة القوة مشتدة البأس ، محترزة على الدوام المجازفة بشىء من قوتها الحربية قبل اكتمال العدة اللازمة وحينونة الأجل المرتقب . وبينما (كانت) تسير السنوسية على هذا الجد الشديد ، تراها تنشر المدارس وتقيم **المآوى والاكنان فى**

جميع البلاد الأفريقية الشمالية . . . . . وتعلم الناس طاعة (الوكلاء) و (المقدمين) وفوق جميع هذا فانها قد اتجهت وتغلغلت جنوبا فى القارة الأفريقية ، مبشرة بالرسالة المحمدية حيث هناك الملايين من الزنج الوثنيين طفقوا يقبلون ايما اقبال على الدخول فى الإسلام افواجا .

الدعوة الكبرى التى قام بها جمال الدين الأفغانى : ــ

كان يختلف عن السنوسى منهاجا ، فجمال انكب على السياسة وشئونها وذاك على علوم الدبن وترقيتها . غير أن السيد جمال الدين الأفغانى كان أول مسلم ايقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة فى الشرق الإسلامى ، وتمثل عواقبها فيها اذا طال عهدها وامتدت حياتها ، ورسخت فى تربة الشرق وادرك شؤم المستقبل وما سينزل بساحة الإسلام والمسلمين من النائبة الكبرى اذا لبث الشرق الإسلامى على حال مثل حاله التى كان عليها . فهب جمال يضحى بنفسه ويفنى حياته فى سبيل ايقاظ العالم الإسلامى ، وانذاره بسوء العقبى ، ويدعوه إلى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصير فيها التغيير . . . . . ووجد مقاومة من المستعمرين ومن الحكام غير المستنيرين وطورد ونفى وشرد مرات عديدة .

وهاك ملخص تعاليم جمال الدين : ــ

« العالم النصرانى ، على اختلاف امه وشعوبه عرقا وجنسية ، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص . فجميع الدول النصرانية متحدة معا على دك الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

« الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقرا فى عناصرها متغلغلا فى احشائها ، ومتمشيا فى كل عرق من عروقها ، وهى ابدا ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء ، والحقد ، والتعصب الدينى الممقوت . وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان فى كثير من الشؤون الخطيرة والمواضع الكبرى حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الإسلامية مستوية مع الأمم النصرانية .

(تنتحل الدول النصرانية اعذارا لها فى كرهها وهجومها وعدوانها على الممالك الإسلامية واذلالها واكراهها ، بقولها إن الممالك الإسلامية هذه انما هى من الانحطاط والتّدنى بحيث لا تستطيع أن تكون قوامه على شئون نفسها بنفسها . وفوق جميع هذا فهذه الدول النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية ، وتتذرع بألوف الذرائع من نواح احرى ، حتى بالحرب والحديد والنار ، للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون فى بلادهم وديارهم فى سبيل الإصلاح والنهضة (جميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عداء الإسلام ، وروح هذا العداء متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهدا خفيا مستترا متواليا لسحق الإسلام سحقا .

(تأخذ النصرانية شواعر كل مسلم وآماله ورغباته التى تجول فى صدره ثم تمثلها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء . فان ما يدعوه الفرنجة عندنا فى الشرق تعصبا مذموما محرما ، هو عندهم فى بلادهم واوطانهم العصبية الجنسية المباركة والقومية المقدسة ، والوطنية المعبودة ، وأن ما يدعونه عندهم فى الغرب بعزة النفس والشمم ، والشرف الوطنى ، والعزة القومية ، يعدونه فى الشرق غلوا مكروها ، وافراطا فى حب الوطن ضارا ومقتا وشنأة للأجنبى) .

(جميع هذا يوضح أن العالم الإسلامى يجب عليه أن يتحد اتحادا دفاعيا عاما ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الذود عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى انما **يجب عليه اكتناه اسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته**) .

٣ ــ تقليد المسيحية الغربية : ــ

قال المسيو مرجيوفارا (مؤلف كتاب مائة مشروع لتقسيم تركيا)

مدة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية . وكان الوزراء ورجال السياسة واصحاب الأقلام يهيئون برامج تقسيم هذه السلطنة .

ولقد شهد هذا الرجل فى مقدمة كتابه هذا المصدر بمقدمة من قلم (لويس رنول) من مشاهير اساتذة الحقوق والعلوم السياسية ما ملخصه .

« إن من اعظم عوامل انحلال الدولة العثمانية هو مشربها فى اعطاء الحرية المذهبية والدينية التامتين للأمم المسيحية التى كانت خاضعة لها لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت تبث دعايتها القومية وتتماسك وتنهض وتتمالأ وتسير سيرا قاصدا فى طريق الانفصال عن السلطنة العثمانية » .

لذلك فان رفقاء مصطفى كمال يجعلون من جملة حججهم فى التغاضى عن الشريعة الإسلامية قولهم انه لولا مراعاة هذه الشريعة لكانت السلطنة التركية بقيت على عظمتها الأولى ولم تطرأ عليها هذه المصائب التى لزمتها مدة ستة قرون بسبب وجود الثلث من سكانها وربما اكثر من الثلث مسيحيين وبأن الشريعة كانت تمنع اجبارهم فى الدخول فى الإسلام أو الجلاء .

ولقد كان فى السلطنة العثمانية عشرات ملايين من المسيحيين واخرين مترفهين كاسبين متمتعين بامتيازات كثيرة مدة عمل الأتراك بالشرع الإسلامى .

فلما جاءت الجمهورية التركية وبطل العمل بالشرع واخذ الترك يقلدون الفرنجة فى كل شىء ، لم يبق فى جميع الأناضول الا فئة قليلة جدا من المسيحيين عدة آلاف . وان كان بقى فى الأستانة نحو مائة وخمسين الف نسمة فهؤلاء قد ابقتهم الدول بالأتفاق مع تركيا فى مقابلة مسلمى تراقيا الغربية الذين ابوا ان يتركوا اوطانهم ويرحلوا إلى تركيا عندما تقررت مبادلة السكان وأجلت الدول بمقتضى معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ المسلمين الذين فى الروملى إلى الأناضول والمسيحيين الذين فى الأناضول إلى الروملى والمورة .

وهكذا بدأ الأتراك يأخذون عن المسيحية عدم التسامح مع الأديان الأخرى وبعد أن كان فى المجلس النيابى ايام السلطنة العثمانية نواب مسيحيون ويهود لم يعد هناك نائب واحد غير مسلم .

واطاح مصطفى كمال اتاتورك بالخلافة الإسلامية ، واعقب ذلك فى ابريل ١٩٢٤ سلسلة من الإجراءات تستهدف القيادات الدينية وأُلغى منصب شيخ الإسلام وأُلغيت جميع الوظائف والمدارس والكليات الشرعية (الدينية) وفى شهر مايو أغلقت المحاكم الشرعية . وقد تأكدت هذه الإجراءات فى الدستور الجمهورى الجديد .

وقمعت الحركات الدينية المعارضة بعنف ، وحلت تنظيماتها وأُغلقت مدارسها وصدر امر سنة ١٩٢٥ بأن يرتدى جميع موظفى الحكومة الزى الغربى وتحريم ارتداء الملابس الدينية الا لمن يتولّون مناصب دينية معترفا بها ــ وصدر قانون باعتبار القبعة هى غطاء الرأس الرسمى للرجل وعد ارتداء الطربوش جنحة . وحرم على المرأة ارتداء الحجاب . . . الخ .

٤ ــ الثورة على نظم الحكم الداخلية لصالح تطبيق الشريعة الإسلامية : ــ

تعد جماعة الإخوان المسلمون مثالاً عن تنظيم إسلامى (داخلى) منظم هدف فى بداية امره ، إلى الحلول محل النظام الحاكم سلميا وبالطرق المشروعة بهدف تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية ، ثم لما اتبع سبيل العنف ، اصطدم بالنظام الحاكم فكان الاعتقال والتعذيب والنفى والتشريد ثم عدم الوصول إلى شىء من الحكم بعد سنوات طويلة من الكفاح وضحايا بالألوف .

التحق حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمون فى الثانية عشرة من عمره بجماعة السلوك الأخلاقى والتى كانت تهدف إلى تعميق حساسية اعضائها تجاه الآثام الأخلاقية ، والتى فرضت نظاما من الغرامات المرهقة يطبق على اعضاء الجماعة الذين يتلفظون بالسباب واللعنات فى حديثهم ويصبونها على زملائهم أو يرتكبون ما يخالف الدين ــ وقد شكل جماعة من الفتيان لم يقتنعوا بهذا العمل (جماعة النهى عن المنكر) تمثل هدفها الأساسى فى ممارسة تأثير اعمق على حياة المدينة* . وكان من بين نشاطاتها الرئيسية كتابة وتوزيع الخطابات السرية (وأغلبها خطابات تهديد) إلى من ترى انهم يحيون بصورة تتعارض مع تعاليم الإسلام .

ثم انضم البنا إلى جمعية الحصافية للبر ذات هدف مزدوج هو النضال من أجل الحفاظ على المبادىء الأخلاقية للدين الإسلامى ، ومقاومة نشاط البعثات التبشيرية فى المدينة .

وقد تواقت وصول البنا إلى القاهرة مع فترة الغليان الفكرى والسياسى التى ميزت العشرينيات . وباستعراضه للموقف (بعينى ريفى متدين) استطاع البنا أن يميز المشكلات الأكثر خطورة من وجهة نظره : الصراع المحتدم بين الوفد وحزب

(*) المحمودية ـ محافظة البحيرة .

الأحرار الدستوريين على حكم مصر والمحاولات السياسية الصاخبة التى اسفرت عن (الانقسام فى اعقاب ثورة ١٩١٩) و (اتجاهات الردة والعدمية) التى غمرت العالم الإسلامى بعد الحرب ، والهجمات التى كانت تشن على التراث وعلى السلف الصالح . . . والتى شجعتها (الانتفاضة الكمالية) فى تركيا ــ والتى اتخذت شكلا منظما من خلال حركة (التحرر الفكرى والاجتماعى لمصر) وكذلك التيارات (اللااسلامية) فى الجامعة المصرية بعد اعادة تنظيمها والتى بدا أنها تنطلق من الأعتقاد القائل بأن (الجامعة لن تحقق علمانيتها الا اذا ثارت ضد الدين وحاربت التقاليد الاجتماعية المستمدة منه) ، والجمعيات والأحزاب و (الصالونات الأدبية والاجتماعية) المؤيدة لمبادىء الحرية فى الفكر والعمل التى عملت على تثبيت هذه الأفكار مستهدفة (اضعاف شأن الدين بصفة اساسية) .

وانضم البنا إلى (جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية) التى كانت تنظم المحاضرات حول الموضوعات الإسلامية .

ولكن كل ذلك لم يقنع الرجل بامكانية سد الفجوة التى رأى أنها تفصل بين المسلمين وبين الإسلام وتعاليمه .

لذلك نظم مجموعة من طلبة جامعة الأزهر ودار العلوم الذين توفرت لديهم الرغبة فى التدريب للقيام بمهمة (الوعظ والارشاد) . وقدم هؤلاء خدماتهم فى المساجد كما قدموها فى التجمعات الشعبية (المقاهى واماكن التجمع الأخرى) وكان النوع الأخير هو الأكثر اهمية ، وقد ثبت نجاحه إلى حد كبير .

وقد تم تدريب مجموعة من الشباب على (نشر الدعوة الإسلامية) ولنشر فكرة جماعة الإخوان المسلمون .

وقد حمل البنا بشدة على معارضة الأزهر السلبية واستسلامه الواضح (للتيارات التبشيرية الالحادية) التى تشيع الفوضى فى العالم الإسلامى .

وفى الإسماعيلية التى عين بها حسن البنا مدرسا استخدم خلال ايام نشاطه الأولى المدرسة والمسجد ، الا أنه عاد مرة أخرى لاستخدام المقاهى ، كما فعل فى القاهرة ــ لخلق جمهور من المستمعين ، وهو اتجاه اوحت به مناقشات المسجد . وكانت طريقته أن يلقى حديثه وأن يلاحظ أى المستمعين الأكثر تأثرا ، ثم يأخذ

هؤلاء إلى مجموعات اصغر من أجل اعطائهم المزيد من الدروس والوعظ ومناقشة قضية الإسلام . كما سعى فى تلك الفترة ايضا أن يتعرف على مصادر القوة فى مجتمعه وهى:١ ــ العلماء ٢ ــ مشايخ الطرق الصوفية ٣ ــ علية القوم ، وكان يقصد بهم العائلات الكبيرة والأسر ذات المركز القيادى بالمعنى الواسع للكلمة ٤ ــ النوادى (الجمعيات ذات النشاط الاجتماعى والدينى) .

وأنشئت الجماعة سنة ١٩٢٨ واتخذت من أحد المنازل القديمة بالإسماعيلية مقرا لها ــ وتم جمع التبرعات وبنى بها مسجد سنة ١٩٣٠ ملحق به مدرسة للبنين وناد ومدرسة للبنات وتم تأسيس الشعب الأخرى على نفس النمط مع اضافة مصنع محلى صغير ــ أى مشروعات يمكن استخدامها ركيزة لممارسة مصالح أو انشطة تخص المجتمع المحلى .

وانتهى المؤتمر الخامس مع الذكرى العاشرة لتأسيس الحركة إلى : ــ

١ ــ الإسلام كنظام شامل متكامل بذاته ، هو السبيل النهائى للحياة بكافة نواحيها .

٢ ــ الإسلام نابع من ، وقائم على مصدريه الأساسيين ، ما جاء به الوحى فى القرآن وحكمة الرسول فى الحديث .

٣ ــ الإسلام قابل للتطبيق فى كل زمان ومكان .

وكانت تعاليمهم تدعو إلى الرجوع إلى الإسلام والأخذ بشعائره وتناهض الحركة التى كانت منتشرة بين طلبة المدارس الثانوية والجامعة من عدم اهتمامهم بأمور الدين . وكانت تعاليمهم كما فى قانونهم العمل على تكوين جيل جديد ، يفهم الإسلام فهما صحيحا ، ويعمل بتعاليمه ، ويوجه النهضة اليه حتى تكون مظاهر حياة الأمة كلها مستمدة من روحه ، مرتكزة على أصوله ، وذلك باتباع القيم والفضائل التالية :

١ ــ تقوية الفضائل الخلقية ، واحياء الشعور بكرامة الأمة ، وتحرير النفوس من الضعف والبأس والرذيلة ، واتباع القرآن فى قوله :«كنتم خير امة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»

٢ ــ التحذير من الاندفاع فى حياة المتعة والترف ، والمادة ، وتقليد الغرب فى ذلك اعجابا بحضارته المادية ، والتذكير باصول الحضارة الإسلامية الفاضلة المجيدة (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على اعقابكم فتنقلبوا خاسرين بل الله مولاكم وهو خير الناصرين) .

٣ ــ نشر الثقافة والتعليم والمحافظة على القرآن الكريم ، ومحاربة الأمية بانشاء المدارس والأندية والأقسام الليلية ، والنشرات الدورية والمحاضرات وغير ذلك من الوسائل النافعة . (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

٤ ــ تأسيس المنشآت النافعة للأمة روحيا واقتصاديا ، ما امكن ذلك كالمشاغل والمستوصفات الطبية ، والعيادات الخيرية والمساجد واحياء الشعائر فيها ، (فى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه) .

٥ ــ علاج الأفات الاجتماعية كالمخدرات ، والمسكرات ، والمقامرة ، والبغاء ونشر الدعايات الصحية ، خصوصا فى القرى والأرياف ، وارشاد الشباب إلى الاستقامة الصحيحة « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » .

٦ ــ تشجيع أعمال الخير والبر ، وتنظيمها ، ومساعدة الفقراء والبائسين والمصالحات بين الأفراد والأسر ، حتى يقوم التحاكم إلى الحب والإخاء مقام التحاكم إلى القانون والقضاء .

٧ ــ تقوية روابط التعارف والإخاء بين الشعوب الإسلامية كأمه واحدة الف بين قلوبهم الإسلام والعمل الدائب على ازالة الفرقة والانقسام من صفوف المسلمين (إنما المؤمنون اخوة) .

٨ ــ تنمية روح التعاون الاقتصادى ، والتعامل بين اعضاء الجماعة بتشجيع المشروعات الاقتصادية وتكوينها والنهوض بها (وتعاونوا على البر والتقوى) .

٩ ــ الدفاع عن الإسلام ومقاومة كل عدوان يراد به (وجاهدوا فى الله حق جهاده)

١٠ ــ تقوية الروح الرياضية الصحيحة فى نفوس الشباب (وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم) .

هذه اهم تعاليم الإخوان المسلمين ومبادئهم ، وهى مبادىء سليمه ترمى إلى احياء الحياة الروحية وتغلغلها فى الحياة المادية والإقتصادية ، وقد نجحت فى نشر تعاليمها لأنها والحق يقال وجدت فى زمن ضل فيه الشباب ، وحار واحتاج إلى زعيم يرشده .

ويستطرد الدكتور أحمد أمين قائلا:(ولقد لمست دعوتهم فكنت ارى الشباب المنضم إلى هذه الجمعية شبابا يتحلى بالفضيلة ، وتظهر فيه علامات الرجولة ولكن مع الأسف اراد زعماؤ ه السيطرة والحكم ، وهذا امر شائك .

وارادوا تنفيذ مبادئهم بالقوة لا بالاقناع ، فاستخدموا القنابل وسفك الدماء وكانت النتيجة مأساة ضاع فيها رئيس حكومة ورئيس حزب .

وكان الأولى فى نظرى الا يتعجلوا ، وأن يستمروا طويلا فى الإصلاح الخلقى والاجتماعى لأن السياسة مملوءة بالأشواك ، وقد كان . . . فقد اصطدم الحزب بهذه الأشواك ، (وكان مالمسناه من الصراعات التى حدثت بين الإخوان والجهاز الحاكم قبل قيام انقلاب عام ١٩٥٢ ثم بينهم وبين الجهاز الحاكم بقيادة الراحل عبد الناصر والذى عانت فيه قيادات الإخوان واتباعهم الكثير والكثير من انواع التعذيب الجسدى والنفسى والتضييق الاقتصادى . . . وفى عهد الراحل انور السادات سمح للإخوان بمزاولة نشاطهم بشروط لا تسمح لهم بالظهور بنفس القوة التى كانوا عليها ثم لينتهى حكمه باعتقال زعمائهم واضطهادهم) .

٥ ـ صراعات الغفلة : ـ

الغفلة لغويا يعنى ـ سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة قال تعالى:(لقد كنت فى غفلة عن هذا) أى غافلا عن ادراك القيامة وغافلا عن احداث ما بعد الموت .

وقال تعالى : (أولئك هم الغافلون) أى الذين لا يدركون الحق ولا يهتدون اليه فيعرضون عنه .

وهذا هو المقصود بحالة المسلمين فى العصر الحديث .

فهم قد غفلوا عن وضعهم المنهزم فى آخر حرب صليبية شنها الغرب المسيحى وانتصر فيها عليهم (حتى الآن) .

وهم قد غفلوا عن وسائل التخلص من هذه الهزيمة ، ومن هذا الانكسار ، والتى بدأها اسلافهم فى القرن السابق .

واكثر من هذا ، فهم قد شغلوا انفسهم فى صراعات دينية بينهم ، ثم بين غيرهم من اتباع العقائد الدينية أو الدنيوية الأخرى .

وبهذه الصراعات هم غفلوا عن الاستمرار فى العمل بأىٍّ من الوسائل التى بدأها اسلافهم لإنهاضهم سواء بالوسيلة السنوسية التى جمعت بين التوعية الدينية وبث الفضائل الأخلاقية ونشر التعليم والمدارس مع الاستثمار الأمثل للموارد الاقتصادية .

وسواء بالطريقة الأفغانية بالأخذ عن الغرب فى كل وسائل تقدمه .

بل الذى حدث ، فى الناحية التعليمية هو وصول الأمية فى كثير من الدول الإسلامية إلى ما يزيد على ٩٠٪ من مجموع عدد السكان ، مع هبوط مستوى خريجى الجامعات .

وهكذا انقلب رد الفعل عند العالم الإسلامى على تغلب المسيحية الأوروبية عليه ، من المقاومة عن طريق الجامعة الإسلامية ثم نشر العلم والتوعية والثقافة والتحضر ، إلى الغفلة عن وضعه المنهزم نتيجة للصراعات الدينية التى صدرها اليه الغرب المسيحى الظافر ، فانشغل بهذه الصراعات عن وسائل تقدمه وانتصاره .

وهذا هو نفس ما كان يريده له هازموه .

ولله فى خلقه شئون .

الباب الخامس

الاسلام والصراعات الدينية

ـ هذا الباب هو آخر رحلتنا مع الصراعات الدينية أو الصراعات التى اتخذت الشكل الدينى .

ولقد تم استعراض بعض صور لهذه الصراعات فى الأبواب السابقة والتى تخص بصفة اساسية ، تصرفات وسلوكيات البشر تجاه هذه الصراعات .

ولا يملك المتتبع لتاريخ الصراعات الدينية الا أن يسأل نفسه هذا السؤال .

اما كان الاجدر بالبشر أن لا يدخلوا فى الحلقة الجهنمية للصراعات الدينية التى لم يكسبوا منها الا الآلام والعذاب والفقر والتخلف ؟

واما كان الأفضل للبشرية أن تترك الناس على حرياتهم العقائدية بدون أن تعطل مسيرتها الحضارية عند منعطف الصراعات (الدينية) ؟

اننا لم نلاحظ ، فى جميع مراحل الصراعات الدينية الا الفقر والمعاناة لغالبية البشر .

وهنا ــ كان من (الواجب) أو من (المنطقى) أو من (البديهى) على أى إنسان أوتى شيئاً من المعرفة التاريخية أن يتوقف عن صراعاته (الدينية) إن كان لا زال داخلا فيها .

وذلك بأن (يؤمن) بحرية الجميع فى اعتناق ما شاؤوا من عقيدة وليصر تمام الإصرار على السير باقدام ثابتة على طريق تحقيق المصالح وكفاية الحاجات .

ومع تحقيق المصالح وكفاية الحاجات ينقلب الضعف إلى قوة وينقلب الجهل إلى علم ، وينقلب التخلف إلى حضارة .

وهذا هو المطلوب لكل المتصارعين دينيا وخاصة فى العالم الإسلامى .

فهل فى الدين الإسلامى ما يحض على أن يشغل المسلمون انفسهم بالصراعات (الدينية وغير الدينية) ؟

وهل فى اليهودية أو المسيحية شىء من ذلك ؟

لقد بذل الباباوات اقصى ماعندهم من فكر وجهد (لينتزعوا) من التوراة ومن الإنجيل ما يؤيد صراعاتهم الدموية .

وهكذا فعل ، ويفعل جميع الهادفين للمزايا السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية فهم يجدون فى البحث عن سند دينى يؤيد مزاعمهم فى التفوق والسيطرة وذلك عندما يعوزهم الأمر إلى مساعدة وتأييد اصحاب العقول المتخمة بالجهل وبالسذاجة .

ولسنا فى حاجة إلى تبرئة رسول اليهودية ومبلغ الوصايا العشر من سُبة التعطش لدماء غير المعتنقين لليهودية .

كما لسنا فى حاجة إلى تبرئة السيد المسيح ، وهو رسول المحبة والسلام من اتهامه بما ينافى المعروف عنه وهو ، عليه السلام ، القائل فى خطبة الجبل:(. . . باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم ، لكى تكونوا ابناء ابيكم الذى فى السماوات ، فانه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين ، لأنه إن احببتم الذين يحبونكم فأى اجر لكم ، أليس العشارون ايضا يفعلون ذلك ، وان سلمتم على اخوتكم فقط فاى فضل تصنعون اليس ألعشارون ايضا يفعلون هكذا . . .) .

فهل يعقل أن مبلغ كلمات السلام والمحبة هذه وغيرها وبالنسبة للاعداء بصفة اساسية ، هل يعقل أن يرضى عن كل المجازر والتعذيب والاحراق والاضطهاد ومصادرة الأموال وايلام النفس والتشهير بكرامة الإنسان والتى مارسها رجال الدين وأتباعهم فى المسيحية الأوروبية ؟

ولكن المنافع الشخصية هى التى كانت وراء غالبية قيادات الصراعات الدينية ثم يجىء المؤمنون ، الجاهلون باحكام دينهم ليكونوا جنودا مخلصين لاصحاب الأهداف الدنيوية .

وبهذا خسرت الأغلبية الجاهلة الساذجة الكثير ولمصلحة قلة من القيادات (الدينية الدنيوية) .

ترى ، أما آن للغارقين فى مستنقع الصراعـات الدينيـة أن (يتنبهوا) من غفلتهم عن طريق تحقيق المصالح وكفاية الحاجات ؟

وفى الأوراق التالية نعرض حكم الدين الإسلامى نفسه ، لا حكم البشر ، فى كل انواع الصراعات (الدينية) التى عطلت مسيرة الإنسانية بصفة عامة ، والشرق الإسلامى بصفة خاصة عن مواكبة ركب الحضارة العالمية (حتى الآن) .

ولعل بعد هذا العرض أن يتنبه (الغافلون) .

الفصـــل الأول

الإسلام والتآلف مع أتباع العقائد الأولى

قال تعالى : ـ

(وقـاتلُوهُـم حتى لا تكونَ فِتنـةٌ ويكونَ الـديُن كلُّهُ لله فان انَتَهـوْا فإنَّ الله بما يعملُوَنَ بصِيرٌ) الأنفال : ٣٩

أى قاتل (الكفار) ايها الرسول انت ومن معك من المؤمنين حتى تزول الفتنة فى الدين بالتعذيب وضروب الايذاء لاجل تركه ، كما فعلوا فيكم عندما كانت لهم القوة والسلطان فى مكة ، حتى اخرجوكم منها من اجل دينكم ثم صاروا يأتون لقتالكم فى دار الهجرة ، وحتى يكون الدين كله لله ، لا يستطيع احد أن يفتن احدا عن دينه ليكرهه على تركه إلى دين المكره له فيعتنقه تقية ونفاقا ويقول (صاحب المنار رحمه الله) :

«إن المعنى بتعبير هذا العصر ، ويكون الدين حرا ، أى يكون الناس احرارا فى الدين لا يكره احد على تركه اكراها ولا يؤذى ويعذب لأجله تعذيبـا ويدل عـلى العموم قوله تعالى : (لا اكراه فى الدين قد تبين الـرشد من الغى) (٢ : ٢٥٦) وسبب نزول هذه الآية أن بعض الأنصار كان لهم اولاد تهودوا وتنصروا منذ الصغر فارادوا اكراههم على الإسلام فنزلت ، فأمرهم النبى بتخييرهم .

والمسلمـون يقاتلون لحـرية دينهم ، وان لم يكـرهوا عليـه احـدا من دونهم ومارضى الله ورسوله فى معاهـدة الحديبيـة بتلك الشروط الثقيلة التى اشتـرطها المشركون الا لما فيها من الصلح المانع للفتنة فى الدين ، المبيح لاختلاط المؤمنين بالمشركين واسماعهم القرآن ، اذ كان هذا اباحة للدعوة إلى الإسلام بالحكمـة والموعظة الحسنـة ، ولرؤيـة المشركـين حال المؤمنـين ومشاهـدتهم انها خير من حالهم ، ولذلك كثر دخـولهم فى الإسلام بعـدها وسمى الله هـذا الصلح فتحا مبينا .

وقد فسر عبد الله ابن عمر هذه الآية بأنها قد زالت بكثرة المسلمين وقوتهم فلا يقدر المشركون على اضطهادهم وتعذيبهم ولو كانت بمعنى الشرك لما قال هذا ، فـان الشرك لم يكن قد زال من الأرض ولن يزول (ولو شاءَ ربُكَ لجَعَلَ الناسَ أُمَّةً واحدةً ١١ : ١١٨) الآية .

وقد جاء ابن عمر رجلان فى فتنة الزبير فقالا : إن الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر بن الخطاب وانت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما يمنعك أن تخرج ؟

قال : يمنعنى أن الله حرم على دم اخى المسلم ـ قالا : أو لم يقل الله :

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)

قال : **قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله** ـ وانتم تريدون ان تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله) وفى رواية زيادة (وذهب الشرك) . . . إلى اخر ما ذكره صاحب المنار من أقوال المحدثين والمفسرين)[1] .

وجاء فى تفسير سورة براءة (التوبة) :

(فاذا انسلخَ الأشْهُر الحُـرُمْ فاقتلُوا المشـركينَ حَيْثُ وَجَـدتُموهُم وخُـذُوهُم واحصُروهُم واقعُدُوا لهـُمْ كلَّ مَرْصَدٍ فإن تَابُوا وأقامُوا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ فَخَلُّوا سبيلَهُم إن الله غفورٌ رحيمٌ . وإن أحدٌ من المشركينَ استجاركَ فأجِرْهُ حتى يسمَعَ كلامَ الله ثم أبلغْه مأْمنهُ ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون) .

نزلت هذه الآية فى مشركى العرب الذين لا عهد لهم . . . والأمر بقتال مشركى العرب فى هذه الآيات مبنى على كونهم هم الذين بدؤوا المسلمين ونكثوا عهودهم حيث وردت بعذ ذلك الآية : (ألا تُقاتلُونَ قَوْمًا نكثُوا أيمانَهُمْ وهمُّواْ بإخراج الرسُول وهُم بَدَؤُوكم اولَ مرّة-١٣) .

وفى تفسير الآيات السابقة من سورة التوبة :

برىء الله ورسوله من المشركين الذين عاهدهم المسلمون على ترك القتال وامهلهم اربعة اشهر يسيحون فى الأرض احرارا آمنين ، وامر تعالى بالأذان العام إلى الناس فى يوم النحر الموسم العام ببراءة الله ورسوله من المشركين ودعوتهم إلى التوبة من الشرك وعداوة الإسلام ، وانذارهم سوء عاقبة الإعراض واستثنى من ذلك المعاهدين الذين نبذت اليهم عهودهم من وفوا بعهدهم ولم ينقصوا منه شيئا ، ولم يظاهروا على المؤمنين احدا من اعدائهم ، فامر باتمام عهدهم إلى مدتهم ثم امر بما يترتب على النبذ والتوقيت فيه وعود حالة الحرب معهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم التى وقتت بها العهود ، وهو مناجزة المشركين بكل نوع من انواع القتال المعروفة فى ذلك العصر من قتل واسر وحصر وقطع طرق المواصلات ، واستثنى من يستجير الرسول صلى الله عليه وسلم وامره باجارته حتى يسمع كلام الله .

فلفظ (المشركين والكافرين) موجه إلى العرب فى جزيرتهم لما كان يراد لهم من تشريف باسلامهم باعتبارهم رهط النبى (صلى الله عليه وسلم) .

وتعاون المسلمون مع المشركين فيما يعود بالخير على المجتمع .

وروى مسلمة بن الاكوع : انه صلى الصبح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع كفه الشريفة بين كتفى مسلمة ، فالتفت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى حدث منه ذلك ، فقال له : هل انت واهب لى فلانة — وكانت جارية مشركه عنده ، فوهبها للرسول صلى الله عليه وسلم فبعث بها إلى خاله حزام ابن وهب — وكان مشركا .

واباح الإسلام لغير المسلمين ان يدخلوا دار الإسلام للتعامل التجارى فيها ، وأن يقيموا فيها بالإذن من السلطة المختصة .

والمعاهد هو المشرك الذى دخل دار الإسلام بأمان فيحرم قتله ، وفى حرمة قتلة اخرج الأمام البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (من قتل معاهدا لم يرج رائحة الجنة ، وان ريحها توجد من مسيرة اربعين عاما) .

وقد رضى النبى أن تدخل معه قبيلة خزاعة فى صلح الحديبية مع أنها لم تؤمن بعد . وكان نقض قريش للصلح بالتعدى عليها من اسباب فتح مكة عندما استنصر به عمرو بن سالم الخزاعى قائلا :

يا رب إنى ناشد محمدا بحلف أبيه وأبينا الأتلدا

واستعار النبى ﷺ سلاحا من صفوان بن امبة ـ وهو مشرك ـ ليحارب به هوازن بعد فتح مكة ، وامر سعد بن ابى وقاص ان يتداوى عند الحارث بن كلدة الثقفى وهو غير مسلم .

وقال حجر الهيثم فى قول بعض الناس : الكفار خير من المسلمين فى اداء الحقوق ، وما يشبه ذلك من أقوال الاعجاب بسلوكهم : لو قصد الخيرية المطلقة ، وهى التى تشمل عقيدتهم ودينهم كله ، كفر وان اراد الخيرية فى اداء الحقوق لم يكفر .

والتعاون بين المشركين وبين المسلمين لتحقيق الكفاية للوفاء بحاجات المجتمع مطلوب ومرغوب فيه ما دامت المصلحة محققة للجميع . . . انما المنع آن كان هناك ضرر . . . فلا ضرر ولا ضرار .

وتآلف الإسلام مع (الكفرة) .

وهؤلاء الذين بعض من سماهم القرآن الكريم « المؤلفة قلوبهم » .

ومبدأ تأليف قلوب اعداء وحدة الشعوب واعداء مسيرتها فى التقدم والارتقاء يؤكد لك مدى حرص الإسلام ، وليس مسلمى اليوم ، على تحقيق مجتمع يتآلف فيه كل أتباع الرسالات السماوية وغيرها ، وبدون أى صراعات دينية .

وقال تعالى :

« إنما الصدَقَاتُ للفقراءِ والمساكينِ والعاملينَ عليْها والمؤلَّفةِ قُلُوبُهُمْ وفى الرِقَابِ والغارمينَ وفى سبيل الله وابنِ السبيلِ فريضةً مِنَ الله والله عليمٌ حكيمٌ» ـ التوبة : ٦٠) .

والمؤلفة قلوبهم ، اى الجماعة الذين يراد تأليف قلوبهم بالاستمالة إلى الإسلام أو التثبت فيه ، أو بكف ضررهم عن المسلمين أو رجاء نفعهم فى الدفاع عنهم أو نصرهم على عدوهم ، لا فى تجارة وصناعة ونحوهما . فان من يرى مخالفة فى الدين مصدر نفع له يوشك أن يواده ، فان لم يواده لم يحاده كالعدو الذى يخشى ضرره ولا يرجى نفعه .

وذكر الفقهاء ان المؤلفة قلوبهم قسمان : كفار ومسلمون . والكفار ضربان والمسلمون اربعة فمجموع الفريقين ستة ، وما يهمنا فى موضوع البحث هم الكفار اى غير المؤمنين بأى دين سماوى ـ وذلك حتى يتأكد القارىء من حرص الإسلام على وحدة الشعوب وعلى تآلفها وحتى تتفرغ ـ بعيدا عن الصراعات الدينية ــ الى بناء مجتمع الرخاء والسلام .

فمن الكفار من يأمر القرآن بتأليف قلوبهم بالعطاء .

١ ـ من يرجى ايمانه بتأليفه واستمالته ، كصفوان بن امية الذى وهب النبى صلى الله عليه وسلم له الامان يوم فتح مكة ، وامهله اربعة اشهر لينظر فى امره بطلبه ، وكان غائبا فحضر وشهد مع المسلمين غزوة حنين قبل أن يسلم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم استعار سلاحه منه لما خرج إلى حنين . وهو القائل يومئذ : لأن يرثنى رجل من قريش احب إلى من أن يرثنى رجل من هوازن . وقد اعطاه النبى صلى الله عليه وسلم ابلا كثيرة محمله كانت فى وادٍ فقال : هذا عطاء من لا يخشى الفقر ، والله لقد اعطانى النبى صلى الله عليه وسلم وهو لأبغض الناس إلى ، فمازال يعطينى حتى انه لاحب الناس إلى . . . وكان صفوان احد العشرة الذين انتهى اليهم شرف الجاهلية ووصله لهم الإسلام من عشرة بطون . وقال ابن سعد : كان احد المطعمين فى الجاهلية والفصحاء وقد حسن اسلامه .

٢ ـ من الكفار من يخشى شره فيرجى باعطائه كف شره وشر غيره معه ، قال ابن عباس : ان قوما كانوا يأتون النبى صلى الله عليه وسلم فان اعطاهم مدحوا الإسلام ، وقالوا : هذا دين حسن وان منعهم ذموا وعابوا وكان من هؤلاء سفيان ابن حرب وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس .

والرأى المختار ،(أن سهم المؤلفة قلوبهم لم يسقط) ، ويجوز هذا التأليف عند الحاجة اليه وتجاه أى تجمع يخشى منه على مسيرة الناس فى الوحدة والتآلف واقامة الدين وتحقيق مجتمع الرخاء والعدل .

فى التآلف مع المجوس والصابئة :

قال تعالى :

« إن الذينَ آمنُوا والذينَ هادُوا والصابئِين والنصارى والمجوسَ والذين اشركُوا إن الله يَفْصِلُ بْينَهُمْ يومَ القِيامَة إن الله على كُلِ شىءٍ شهيدٌ»ـ(٢٢ : ١٧) .

ونحن نعرف اليهود والنصارى . . . اما الصابئة والمجوس فلابـد من بيان عنهم .

وقد جاء ذكر كل من المجوس والصابئة لاتصال بلادهم ببلاد العرب ، فمن هم المجوس ، ومن هم الصابئة ؟

المجوس (بلاد فارس) :

يعتبر زرادشت نبى هذه الديانة التى تعتقد من بين ما تعتقد بوجود حياتين للإنسان حياة أولى فى الدنيا وحياة أخرى بعد الموت ونصيبه فى حياته الآخرة نتيجة لأعماله فى حيـاته الأولى وقـد أُحصيت اعمالـه فى كتاب وعـدت سيئاتـه ديونـا عليه . . . وعند الحساب توزن حسناته وسيئاته ، ودين زرادشت يرى أن العالم يحكمه إلهان ، اله الخير واله الشر(٥) .

الصابئة :

هم قوم يعترفون بان الله تعالى هو الخالق ، وانه واحد ازلى لا اول لوجوده ولا نهاية له ، منزه عن المادة والطبيعة ، فهو الذى اوجدها ، ولكنهم تقربوا اليه بعبادة الملائكة ويعتبرونها ارواحا ، وأن لها هياكل فى الكواكب فهى تحل بالكواكب كما تحل الروح بالجسد ، واعتقدوا انها ارباب ، فعبدوها ليتقربوا بعبادتها إلى الله ،

زاعمين انها اقرب الأجسام المرئية اليه تعالى ويعتقدون انها حية ناطقة وأن كل ما يحدث فى العالم يكون على حسب ما تجرى به الكواكب حسب امر الله لها ، ثم جعلوا لها تماثيل واصناما ترمز اليها فعبدوها .

ويقول إدوارد جيبون عن الصابئة :

والصابئة ترجع ديانتهم إلى زمن سحيق فى القدم حيث انتشرت ديانتهم فى ارجاء آسيا بفضل علوم الكلدانيين وجيوش الأشوريين ومن ملاحظات دامت الف سنه ، استنتج الكهنة وعلماء الفلك فى بابل القوانين الأزلية للطبيعة والعناية الإلهية فعبدوا الآلهه السبعة أو الملائكة السبعة الذين يتحكمون فى مسار الكواكب السبعة ، ويؤثرون فى الأرض تأثيرا لا سبيل إلى مقاومته وقد مثلت صفات الكواكب السبعة وعلامات البروج الاثنى عشر ومجموعات النجوم الأربع والعشرين فى نصف الكرة الشمالى والجنوبى ـ مثلتها صور وطلاسم وخصص كل يوم من ايام الأسبوع السبعة لأحد الآلهة . وكانت الصابئة تصلى ثلاث مرات فى اليوم . وكان معبد القمر فى حران نهاية حجهم .

والاجماع على أن الصابئة مشركون .

ويقول صاحب تفسير المنار

وقد ذكر الله تعالى الصابئين والمجوس منهم فى كتابة لاتصال بلادهم ببلاد العربَ ، فلم يدخلهم فى عموم المشركين ولانظمهم فى سلك أهل الكتاب ، لأنه **جعل لقب (المشركين) خاصا بوثنى العرب** ، ولقب (اهل الكتاب) خاصا باليهود والنصارى وان كان قد دخل عليهم الشرك ، والتاريخ يدل على أن الفريقين كانا اهل كتاب ، اما الصابئون فقد ذكروا مع المؤمنين واليهود والنصارى فى آية سورة البقرة (٢ : ٦٢) وآية سورة المائدة (٥ : ٦٩) واما المجوس فقد ذكروا مع أولئك كلهم فى قوله تعالى من سورة الحج : (إن الذين آمنوا والذين هادُوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا إن الله يفصلُ بينهُمْ يومَ القِيامِة إن الله على كُلِ شيءٍ شهيدٌ ٢٢ : ١٧) فقد جعل المجوس قسما مستقلا ، **وجاءت السنة بمعاملتهم كأهل الكتاب فى انتهاء قتالهم بالجزية مثل الصابئة .**

لا إكراه فى الدين :

ما كانت قصة موسى مع فرعون الا تجسيداً لمشكلة حريات الرأى والعقيدة حيث شجب القرآن الكريم قيام فرعون بفرض عقيدته الدينية بالقوة على جميع المصريين بما فيهم موسى واتباعه .

وتأمل فى بلاغة هذا التعبير الاستنكارى فى القرآن الكريم على لسان رجل من آل فرعون « . . . . أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله . . . غافر : ٢٨ » .

تأمل فى هذا التعبير وقس عليه كل ما يفعله غالبية حكام الشعوب المتخلفة ومن ضمنها الشعوب الإسلامية من كبتهم لحريات العقيدة وحريات الفكر والرأى .

فكل مَنْ يعتقد انه على حق ، اتركوه على حرياته مادام يعمل جهارا ولا يضر بوحدة المجتمع واسقراره . . .

وذلك أن ربك هو العالم وهو العظيم وهو الخالق للإنسان وعلى علم بما توسوس به نفسه .

ونفس الإنسان ترفض كل عقيدة مفروضة .

فهكذا خلقه الله سبحانه وتعالى .

ولهذا لا يؤاخذ الله الإنسان على ممارسة حرياته ولكن يحاسبه على خوضه إلى غير طريق الاستقامة بعد أن تبين له الرشد من الغى فى اجواء هذه الحريات وفى هذا يقول صاحب تفسير المنار :

(هذه المزية من مزايا الإسلام هى نتيجة المزايا التى بينا بها كونه دين-الفطرة فاما منع الاكراه فيه وعليه فالأصل فيه قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بمكة : (ولو شاءَ ربُّك لآمن من فى الأرض كُلُّهمْ جميعاً أفأنتَ تُكرِهُ الناسَ حتى يكُونُوا مؤمنينَ . وما كان لنفس أن تُؤْمِنَ إلا بإذنِ الله ويجعَلُ الرِجْسَ على الذينَ لا يعقِلُون . قُلِ انظُرُوا ماذا فِى السمٰواتِ والأرضِ وما تُغنِي الآيَاتُ والنُذُرُ عن قومٍ لا يؤمنون-١٠ : ٩٩ ـ ١٠١) علم الله تعالى رسوله بهذه الأيات أن من سنته فى البشر أن تختلف عقولهم وافكارهم فى فهم الدين ، وتتفاوت انظارهم فى الآيات الدالة عليه فيؤمن بعض ويكفر بعض ، فما كان يتمناه صلى الله عليه وسلم

من ايمان جميع الناس مخالف لمقتضى مشيئتته تعالى فى اختلاف استعداد الناس للإيمان ، وهو منوط باستعمال عقولهم وانظارهم فى آيات الله فى خلقه والتمييز بين هداية الدين وضلالة الكفر .

ثم قوله تعالى له عندما اراد اصحابه اخذ من كان عند بنى النضير من اولادهم عند اجلائهم عن الحجاز وكان قد تهود بعضهم : (لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ٢ : ٢٥٦) ــ فامرهم صلى الله عليه وسلم أن يخيرهم فمن اختار اليهودية اجلى مع اليهود ولا يكره على الإسلام ، ومن اختار الإسلام بقى مع المسلمين كما بيناه فى تفسير الآية .

واما منع الفتنة ، وهى اضطهاد الناس لاجل دينهم حتى يتركوه ، فهو السبب الأول لشرعية القتال فى الإسلام كما بيناه فى تفسير قوله تعالى : (وقاتلُوهُم حتى لا تكونَ فتِنةٌ ويكونَ الدينُ لله ٢ : ١٩٣) من سورة البقرة . ثم فى تفسير آية ٣٩ من سورة الأنفال التى بلفظها مع زيادة (كله) .

قال تعالى :

« يسئلونَكَ عنِ الشَّهرِ الحرامِ قِتالٍ فيه قُل قِتَالٌ فيه كبيرٌ وصدٌ عن سبيلِ الله وكُفْرٌ بهِ والمسجِدِ الحرام واخراجُ اهلهِ مِنهُ أكبرُ عِنَد الله والفتنةُ أكبرُ مِنَ القتلِ ولا يزالُوَنَ يُقاتُلونَكُم حتى يرُدُّوكم عن دينكِم إن استطاعُوا ومَنْ يَرْتَدِدْ مِنكم عن دينهِ فيمُتْ وهُوَ كَافِرٌ فأولئكَ حبطَتْ أعمالُهُم فى الدُنيا والآخرةِ وأولئِك اصحابُ النارِ هُم فيها خالدون».(البقرة : ٢١٧).

والآية نزلت بمناسبة قيام سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم لتنزل (نخلة) بين مكة والطائف لترصد اخبار قريش ، غير أن هذه السرية قامت فى آخر شهر رجب وهو من الأشهر الحرم المحرم فيها القتال ، بقتل احد القرشيين وانكر رسول الله هذا القتل فى الشهر الحرام ، فسقط فى ايدى القوم ، فانزل الله عز وجل هذه الآية ــ « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه » إلى قوله « هم فيها خالدون » .

واختلف العلماء فى نسخ هذه الآية ، فالجمهور على نسخها ، وأن قتال المشركين فى الأشهر الحرم مباح ، واختلفوا فى ناسخها ، فقال الزهدى : نسخها

(وقاتلوا المشركين كافة . . . وكان عطاء يقول : (الآية محكمة ولا يجوز القتال فى الأشهر الحرم ، ويحلف على ذلك ، لأن الآيات التى وردت بعدها عامة فى الأزمنة . . .)الخ .

وعلى كل حال فالآية تصور موازنة بين مخالفة عرف العرب والقرشيين فى عدم القتال فى الأشهر الحرم وبين قيام القرشيين بالكفر بالله واضطهاد المسلمين لاعادتهم إلى الكفر وذلك بالسجن والتعذيب وحبسهم عن المهاجرة إلى رسول الله بالمدينة وصدهم المسلمين عن المسجد الحرام فى الحج والعمرة فيه ، واخراجهم اهل المسجد الحرام وهم سكانه من المسلمين ، وفتنتهم اياهم عن الدين . . . فكل هذا اكبر وانكر من القتال فى الأشهر التى حرم العرب والقرشيون القتال فيها .

وتستكمل الآية الحكم على من يرتد عن دينه فى مواجهة هذا الاضطهاد (القرشى) والحكم فيه بفشل اعماله وتصرفاته وكيانه كانسان صاحب دين وفضيلة فى الدنيا أما فى الآخرة فهو فى العذاب الأبدى .

ويعرض القرطبى الكثير من الآراء (المختلفة) للمفسرين لأحكام (الارتداد) عن الدين ــ فالجمهور يقول بقتل المرتد وابو حنيفة واصحابه ومعه بعض المفسرين على عدم قتل المرتدة .

وهكذا فرقوا بين الذكر والأنثى فى التكاليف الدينية .

واستندوا فى ذلك إلى احاديث نبوية ــ وليس إلى نص قرآنى وهى :

امر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل يهودى اسلم ثم عاد إلى اليهودية .

« من بدل دينه فاقتلوه » ولم يخص مسلما من كافر . وقال مالك : معنى الحديث من خرج من الإسلام إلى الكفر ، اما من خرج من كفر إلى كفر فليس معّينا بهذا الحديث وهو قول جماعة من الفقهاء ، والمشهور عن الشافعى ما ذكره المزنى والربيع أن المبدل لدينه من اهل الذمة (أى مسيحى وتهود أو العكس) يلحقه الامام بأرض الحرب ويخرجه من بلده ويستحل ماله مع اموال الحربيين ان غلب على الدار ، لأنه انما جعل له الذمة على الدين الذى كان عليه حين عقد العهد .

والمعنى اللغوى لكلمة ـ ارتد : رجع وتحول ، والردة اسم هيئة من رد وأُطلقت على الرجوع إلى الكفر بعد الإسلام قال تعالى : (فلما أن جاء البشير القاه على وجهه فارتد بصيرا) أى رجع بصيرا كما كان ، وقوله : (ان الذين ارتدوا على ادبارهم) أى رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ، وقوله : (من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) أى يتحول .

وفى هذا يقول الدكتور مصطفى كمال وصفى :

(ليس للردة عن الدين مكان فى النظم الحديثة ، لأن المذهبية الحديثة ليست مذهبية دينية بل هى مذهبية مادية . وذلك كالنظم الماركسية مثلا فهى كلها تقوم على الإيمان بمبادىء ماركس ومن شايعه ، واذا كان لا يسمح فى تلك البلاد باتخاذ مذهب آخر ، ولا الارتداد عن هذا المذهب ، فان هذا الالتزام ليس دينيا .

واما النظم غير المذهبية ـ الليبرالية أو الديمقراطية الحرة ـ فالعقيدة فيها مطلقة سواء كانت عقيدة دينية أو عقيدة سياسية أو اقتصادية ، فيجوز للفرد على أية حال أن يتخذ ما شاء من العقائد .

وتحصل من ذلك أن النظم الحديثة كلها لا تأبه للدين ، ولا للردة عنه إما لأن مذهبيتها مادية لا تقوم على العقيدة الدينية ، أو لأنها لا مذهبية على الإطلاق .

وقد حدث فى السودان عام ١٩٦٩ ـ وكنت وقتها استاذا فى الجامعة الإسلامية ـ أن خرج احد الناس بآراء تعتبر من قبيل الردة . فرفع امره إلى قاضى الخرطوم الذى حكم بردته . وعند ذلك ثار المتشيعون للقوانين الحديثة ونشروا فى الجرائد نقدا لاذعا لذلك الحكم وقالوا انه مخالف للدستور لانه ينص على حرية العقيدة ، ومخالف للقانون الجنائى اذ لا جريمة فيه على تغيير الدين ، وللقانون المدنى اذ انه لم ينص على الردة كسبب لنقص الأهلية وابطال التصرفات أو وقفها فرد على ذلك بأن الردة حكم من احكام الحالة الشخصية ينصب على وصفه بأنه مسلم أو غير مسلم ، فالحكم الصادر منها يفصل فى المركز القانونى فقط للمرتد فلا تعارض مع الدستور إلى هذا الحد ، فاذا اردنا أن نقرر آثارا من هذه الآثار فى نطاق القانون الجنائى أو المدنى اتخذت الإجراءات القانونية المتعلقة بذلك وهذا امر آخر غير مجرد

تقرير وضعه القانونى المدنى بحكم الارتداد . وبذلك فقد عدل المحكوم عليه عن الطعن فى هذا الحكم وصار ذلك الحكم نهائيا . وفى مصر عرضت على الجمعية العمومية للقسم الاستشارى بمجلس الدولة مسألة متعلقة بوصية رجل ارتد عن دينه واخذت الجمعية رأى بعض المتخصصين منهم استاذنا الشيخ محمد ابو زهرة . وكان رأيى فيها ـ حيث تنص بعض المذاهب على وقف تصرفاته والبعض لا ينص ـ أنه لا يتحتم الأخذ بمذهب الامام ابى حنيفة (المطبق فى مصر) على وجهه ايامه بل على اساس اصوله ووسائله هو ما كان يقوله الأمام والمجتهدون على مذهبه لو كانوا الآن .

وأن الردة فى الأصل حكم من احكام السير ، وليست من الحدود . لأن الجماعة الإسلامية فى وقت النبى صلى الله عليه وسلم كانت معسكرا حربيا فكان المرتد فيها خطرا عليهم كالجاسوس فهو يقتل لهذا السبب لا لجناية أوجبت حدا .

وهذا من كلام استاذنا المرحوم الشيخ أحمد بك إبراهيم ابداه فى مقال له بمجلة القانون والاقتصاد وقد نظرت اليها بعض المذاهب على هذا الأساس ومنها مذهب الحنفية ، بينما نظر اليها بعضها الآخر كحد فقط .

وعلى اية حال فان الجمعية اعرضت عن كل هذا وارتكنت إلى نصوص القانون المدنى وانها لم تعتبر الردة موجبا لنقص الأهلية ، وبذلك لم تجد سندا للطعن على وصيته) .

وكانت جميع سياسة الخلفاء ، لا سيما الاتقياء منهم ، تدور على محور نشر الإسلام (بدون اكراه) . ولما شكا احد العمال بمصر من نقص الجباية بسبب اقبال اهل الذمة على الدخول فى الإسلام اجابه الخليفة عمر بن عبد العزيز : ويلك ان محمدا جاء هاديا ولم يجيء جابيا . وجاء فى فتوح البلدان للبلاذرى انه : لما استخلف عمر بن عبد العزيز كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام فاسلم بعضهم قال : ورفع عمر الخراج على من اسلم بخراسان وفرض لمن اسلم ثم بلغه عن عاملة على خراسان ، الجراح الحكمى ، عصبية ، وكتب إلى عمر انه لا يصلح خراسان الا السيف فانكر ذلك وعزله .

وجاء ايضا فى فتوح البلدان للبلاذرى أن امير المؤمنين المأمون أغزا السغد وأشرونسة وفرغانة وكان قد الح عليهم بالغارات ايام مقامه بخراسان ، وبعد

ذلك ، وكان مع تسريته الخيول بكاتبهم بالدعاء إلى الإسلام والطاعة والترغيب فيهما ثم إن المأمون كان يكتب إلى عماله على خراسان فى غزو من لم يكن على الطاعة والإسلام من اهل ما وراء النهر ، ويوجه رسله فيفرضون لمن رغب فى الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحى وابناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة فاذا وردوا بابه شرفهم وآنس صلاتهم وارزاقهم . ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من جند اهل ما وراء النهر من السغد والفراغنة والاشرونسة وغيرهم ، وحضر ملوكهم بابه ، وغلب الإسلام على من هناك .

وبينما كان الخليفة المأمون غازيا فى بلاد الروم ، مر ببلدة حران ، فالتقاه اناس بزَى غريب واثواب ضيقة يرخون ذوائبهم فسألهم ؟ من انتم ؟ فقالوا : حرانيون . فقال : أأنتم نصارى ؟ قالوا : لا قال : أيهود أنتم قالوا : لا قال : افعندكم كتاب الهى او لكم رسول ؟ قالوا : لا قال لهم : ان كنتم لا ترغبون فى الإسلام ، فتنصروا ، او تهودوا ، واتخذوا دينا يعرفه الإسلام ، هذا بينما فضل الأوروبيون فى مستعمراتهم بقاء الوثنيين على وثنيتهم بدلا من تحولهم للإسلام .

ولما ارسل المأمون إلى ميزدا نبخت ــ احد رؤساء المانوية ـ فاحضره من الرى ــ بعد أن أمنه ـ فقطعه المتكلمون فقال له المأمون : أسلم يا مزدا نبخت فلولا ما اعطيناه اياك من الأمان لكان لنا ولك شأن فقال له ميزدا نبخت : نصيحتك يا امير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم فقال المأمون : اجل ، ووكل به حفظه خوفا عليه من الغوغاء ، وكان فصيحا لسنا

(ليسُوا سواءً من أهلِ الكتابِ أُمةٌ قائمةٌ يتلُون آياتِ الله آناءَ الليلِ وهم يسجُدُون . يؤمنُون بالله واليومِ الآخِرِ ويأمُرونَ بالمعروفِ وينهْونَ عن المنكَر ويسارعُون فى الخيْراتِ وأولئكَ مِنَ الصَّالحين . وما يفعلوا من خيرٍ فلن يُكْفرُوهُ والله عليمٌ بالمتقين)

آل عمران : ١١٣ ـ ١١٥

الفصــــل الثــانى

الإسلام والتآلف مع أتباع المسيحية واليهودية

لاحظنا أن أتباع المسيحية الأوروبية لم يقبلوا على وجه الإطلاق التعايش مع المسلمين كما قاموا باضطهاد اليهود والمسلمين وعملوا بكل طاقتهم على اكراههم على التنصر أو استرقاقهم أو قتلهم أو طردهم من البلاد بعد سلب اموالهم أن رفضوا التنصر .

وكان من اولى مهمام محاكم التفتيش البحث عن المتظاهرين بالتنصر ، بعد إكراههم عليه ، ويبطنون اليهودية أو الإسلام ، بغية احراقهم واعدامهم ومصادرة اموالهم .

فلم تعرف المسيحية الأوروبية الا التنصير أو الإبادة خاصة بالنسبة للمسلمين .

ويؤكد لك هذا المعنى عدم وجود أى عائلة مسلمة فى صقلية أو اسبانيا رغم أن المسلمين استوطنوها لقرون طويلة .

بل لا توجد عندهم مقابر للمسلمين ؟

والمسيحيون اعتبروا كل من اليهود والمسلمين كفرة ومن ثم فان ابادتهم ترضى المسيح .

اما الإسلام فقد اعتبر أن اليهود والمسيحيين والمسلمين يتبعون دينا واحدا وان اختلفت شرائعه بين اليهودية والمسيحية والإسلام .

ــ ومن هذا المنطلق تآلف الاسلام مع اتباع العقائد السماوية الاخرى باعتبارهم اهل كتاب منزل .

ــ ولم يكتف الاسلام باقرار الحريات الدينية لاتباع الاديان السماوية ، بل انه نهى عن فتنتهم عن دينهم .
وقد نهى الرسول ﷺ عن فتنة اهل الكتاب عن دينهم كما استشعر عمر بن الخطاب الندم حينما طلب شفاهة من عجوز ان تدين بالاسلام واستغفر ربه وهو يتلو (لا اكراه فى الدين) .

ــ وكانت الحروب اهل الكتاب ، وهى حروب سياسية كما سبق البيان ، تنتهى بالجزية وليس بالاكراه على دخول الدين كما فعل أتباع المسيحية الاوروبية .

ــ وجاء فى كتاب خالد بن الوليد لاهل الحيرة من النصارى قوله وايما شيخ ضعيف عن العمل او اصابته آفة من الافات او كان غنيا فافتقر وصار اهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما اقام بدار الهجرة ودار الاسلام فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الاسلام فليس على المسلمين النفقه على عيالهم .

ــ وذكر أبو يوسف فى كتاب الخراج : ولاتؤخذ الجزية من المسكين الذى يتصدق عليه ولانفقة وكذلك الاعمى والمترهبون والذين فى الديارات اذا كان لهم يسار ، اخذ منهم وان كانوا مساكين يتصدق عليهم اهل اليسار منهم ، لم يؤخذ منهم .

ــ والجزية مقابل مادى بسيط يؤخذ من الرجال بين العشرين والخمسين من غير المسلمين فلا يثار الا عند الحروب وتغلب المسلمين على غيرهم ــ فيؤخذ هذا القدر من المال كبدل نقدى عن عدم الاشتراك فى جيوش الدفاع الاسلامية اما اذا اشترك هؤلاء فى الجيوش وحاربوا عن اوطانهم كما هو يحدث الان ، فلا جزية ، انما الجميع مواطنون يتمتعون بكافة الحقوق ويؤدون كافة الالتزامات المفروضة على المسلمين وغيرهم بدون أى تفرقة .

واليك ما قاله صاحب المنار عن موضوع الجزية :

(حتى يعطوا الجزية وهم صاغرون) هذه غاية للأمر بقتال اهل الكتاب ينهى بها اذا كان الغلب لنا ، أى قاتلوا من ذكر عندما يقتضى وجوب القتال كالاعتداء عليكم أو على بلادكم ، أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم او تهديد امتكم وسلامتكم كما فعل الروم ، فكان سببا لغزوة تبوك ، حتى تأمنوا عدوانهم باعطائكم الجزية فى الحالين اللذين قيدت بهما . فالقيد الأول لهم ، وهو أن تكون صادرة (عن يد) أى قدرة وسعة ، فلا يظلمون ويرهقون . والقيد الثانى لكم ، وهو الصغار المراد به خضد شوكتهم والخضوع لسيادتكم وحكمكم ، وبهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام بما يرونه من عدلكم وهدايتكم وفضائلكم التى يرونكم اقرب بها إلى هداية انبيائهم منهم . فان اسلموا عم الهدى والعدل والاتحاد ، وان لم يسلموا كان الاتحاد بينكم وبينهم بالمساواة فى العدل ، ولم يكونوا حائلا دونها فى دار الإسلام . والقتال لما دون هذه الأسباب التى يكون بها وجوبه عينيا أولى بان ينتهى باعطاء الجزية ، ومتى أُعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم وعن حريتهم فى دينهم بالشروط التى تعقد بها الجزية ، ومعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين ، ويحرم ظلمهم وارهاقهم بتكليفهم بما لايطيقون كالمسلمين ، ويسمون اهل الذمة لأن كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله .

والجزية ضرب من الخراج يضرب على الأشخاص لا على الأرض ، جمعها جزى كسدرة وسدر ، واليد : السعة والملك أو القدرة والتمكن ، والصغار : (بالفتح) والصغر (كعنب) وهو ضد الكبر ، ويكون فى الأمور الحسية والمعنوية والمراد به هذا الخضوع لاحكام الإسلام وسيادته الذى تصغر به انفسهم لديهم بفقدهم الملك ، وعجزهم عن مقاومة الحكم ، قال الراغب: الصاغر الراضى بالمنزلة الدنية وقال الإمام الشافعى رحمة الله فى الأم : وسمعت عددا من أهل العلم يقولون : الصغار أن يجرى عليهم حكم الإسلام . ومن المفسرين من قال فى هذه الآية اقوالا يأباها عدل الإسلام ورحمته .

وقد حقق شمس العلماء الشيخ شبلى النعمانى الهندى (رحمه الله) فى رسالة له أن لفظ الجزية معرب واصله فارسى (كزيت) وأن معناها الخراج الذى يستعان به على الحرب .

وكان أول من سن الجزية فيما علمنا كسرى انو شروان وهو الذى رتب اصولها وجعلها طبقات قال الإمام العلامة المحدث ابو جعفر محمد بن جرير الطبرى يذكر ما فعله كسرى فى أمر الخراج والجزية : والزموا الناس ما خلا أهل البيوتات والعظماء والمقاتلة والمرازبة والكتاب ومن كان فى خدمة الملك ، وصيروها طبقات : أثنى عشر درهماً ، وثمانية ، وستلا ، والابعة ، بقد اكثار الرجل أو أقلاله ، ولم يلزموا الجزية من كان له من السن دون العشرين وفوق الخمسين . ثم قال (وهى الوضائع التى اقتدى بها عمر بن الخطاب حين افتتح بلاد الفرس) وقال المؤرخ الشهير ابو حنيفة احمد بن داود الدينورى ، وهو اقدم زمانا من الطبرى فى كتابه الأخبار الطوال فى ذكرى كسرى انو شروان (ووظف الجزية على اربع طبقات ، استقطها عن اهل البيوتات والمرازبة والاساورة والكتاب ومن كان فى خدمة الملك ، ولم يلزم احدا لم تأت له عشرون سنة أو جاوز لخمسين) . **ومن وقف على هذه النصوص يظهر له أن الجزية مأثورة من آل كسرى وان الشريعة الإسلامية ليست باول واضع لها ، وان كسرى رفع الجزية عن الجند والمقاتلة وأن عمر بن الخطاب اقتدى بهذه الوضائع .**

وتفسير فرض الجزية عند كسرى انه يجب على كل فرد من افراد الملة المدافعة عن نفسه وماله ، فمن كان يقوم بهذا العبء بنفسه فليس عليه شيء ، وهؤلاء أهل الجند والمقاتلة واما من كان يشغله امر العمارة وتدبير الحرث عن المخاطرة بالنفس فيحق عليه أن يؤدى شيئا معلوما فى كل سنة يصرف فى وجوده حمايته والدفاع عنه . وهذا هو المعنى بالجزية ، فانها تؤخذ من اهل العمارة وتعطى للمقاتلة والجند الذين نصبوا انفسهم لحماية البلاد واستتباب وسائل الأمن والسلامة لكافة العباد .

ومن ذلك الجهاد والقتال المقصود بهما الذب عن حمى الإسلام والدفع عن بيضة الملك وازاحة الشر وبسط الأمن واستتباب الراحة ، فجعل الجهاد فرضا محتوما على كل احد ممن دخل فى الإسلام ، اما كفاية وهذه اذا لم يكن التغير عاما ، واما عينا اذا هاجم العدو البلد وعم النفير ، قال فى الهداية : الجهاد فرض على الكفاية اذا قام به فريق من الناس سقط عن الباقين ، فان لم يقم به أحد أثم جميع الناس بتركه ، الا أن يكون النفير عاما فحينئذ يصير من فوض الأعيان .

فالمسلم لا يخلو من إحدى حالتين اما مرتزقة ، وهو من دخل فى المعسكر ونصب للقتال نفسه ، أو متطوع ، وهو من لم يأخذ نصيبه من الجهاد ، ولكن اذا جاءت الطامة ووقع النفير لا يمكنه الاعتزال عن القتال والتنحى عنه ، بل عليه أن يدخل فيما دخل المسلمون طوعا أو كرها .

واذا كان من المسلم الثابت أن المرتزق والمتطوع سيان فى الحقوق الكلية التى تمنح للعكسر ، كان من الواضح أن يعفى المسلمون كلهم من ضريبة الجزية أما أهل الذمة فما كان يحق للإسلام أن يجبرهم على مباشرتهم للقتال فى حال من الأحوال ، بل الأمر بيدهم ، رضوا بالقتال عن انفسهم واموالهم عفوا من الجزية ، وان ابوا أن يخاطروا بالنفس فلا أقل من أن يسامحوا بشيء من المال وهى الجزية .

ومعنى هذا كله أن الجزية ما كانت تؤخذ من الذميين الا للقيام بحمايتهم والمدافعة عنهم ، وأن الذميين لو دخلوا فى الجند أو تكلفوا امر الدفاع لعفوا عن الجزية . . . واليك بعض الأمثلة المؤيدة لهذا :

١ ــ ما كتب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا حينما دخل الفرات واوغل فيها وهذا نصه : (هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه : إنى عاهدتكم على الجزية والمتعة فلك الذمة والمتعة وما منعناكم (اى حميناكم) فلنا الجزية والافلا ؟ كتب سنة اثنتى عشرة فى صفر .

٢ ــ ما كتب نواب العراق لأهل الذمة وهاك نصه : (براءة لمن كان من كذا وكذا من الجزية التى صالحهم عليها خالد والمسلمون ، لكم يد على من ينزل صلح خالد ما اقررتم بالجزية وكنتم ، امانكم امان ، وصلحكم صلح ونحن لكم على الوفاء) .

٣ ـ ما كتب أهل ذمة العراق لأمراء المسلمين وهذا نصه : (انا قد ادينا الجزية التى عاهدنا عليها خالد على أن يمنعونا واميرهم البغى من المسلمين وغيرهم) .

٤ ـ المقاولة التى كانت بين المسلمين وبين يزدجرد ملك فارس حينما وفدوا على يزدجرد وعرضوا عليه الإسلام ، وكان هذا فى سنة اربع عشرة فى عهد عمر بن

الخطاب ، وكان من جملة كلام نعمان الذى كان رئيس الوفد : (**وان اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم والا قاتلناكم**) .

٥ ـ ومنها المقاولة التى كانت بين محصن وبين رستم قائد الفرس ، وحذيفة هو الذى ارسله سعد بن ابى وقاص وافدا على رستم فى سنة اربع عشرة فى عهد عمر بن الخطاب ، وكان فى جملة كلامه : (**او الجزاء ونمنعكم ان احتجتم إلى ذلك**) فانظر إلى هذه الروايات الموثوق بها ، وكيف قارونوا بها بين الجزية والمتعة .

وقد عرض صاحب المنار الكثير من هذه الأدلة التاريخية فمن شاء التوسع فليرجع اليها . . . » .

وفى العصر الحديث ، اصبحت الجزية فى ذمة التاريخ حيث يشارك جميع المواطنين على اختلاف دياناتهم فى الدفاع عن بلادهم .

وقبل الفتوحات الإسلامية عانت شعوب دولتى الفرس والروم الكثير من الاضطهادات .

وفى كتاب (فتح مصر ــ من تأليف بتلر) نجد صورة واضحة لاضطهاد الدولة البيزنطية فى عهد (هرقل) اذ كانت على المذهب الملكانى ــ اضطهاد هذه الدولة للقبط فى مصر ، لأنهم كانوا على مذهب مخالف وهو اليعقوبى ــ نجد ذلك ـ ولا سيما فى الفصل الذى جعل المؤلف عنوانه : (الاضطهاد الأعظم للقبط على يد قيرس) (وقيرس كان الحاكم البيزنطى العام على مصر) وكان البيزنطيون يضطهدون ايضا أهل سورية ، لأنهم كانوا على نفس مذهب اهل مصر : أى يعاقبة .

قال (ارنولد) ــ بعد أن أشار إلى الخلاف الذى كان موجودا بين الطوائف المسيحية ، من ملكانية ويعقوبية وغيرهما ــ : (والواقع أن الشعور العام الذى أثاره هذا الامبراطور (أى هرقل) ، قد بلغ من المرارة مبلغا ، يبرر الاعتقاد بانه حتى السواد الأعظم من الأرثوذكس من رعايا الدولة البيزنطية ، الذين كانوا يقيمون فى البلاد التى فتحت فى عهد هذا الإمبراطور ، هم الذين رحبوا بالعرب . . ومن أجل هذا استقبلوا بالرضا ــ بل بالحماسة ــ هؤلاء السادة الجدد ، الذين وعدوهم بالتسامح الدينى ، واظهروا رغبتهم فى تسوية مركزهم الدينى ، واستقلالهم القومى ، وقد استطاع ميخائيل الأكبر ــ بطريق انطاكية اليعقوبى ــ أن يحبذ فيما كتبه

فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ما قرره اخوانه فى الدين ، وأن يرى اصبع الله فى الفتوحات العربية ، حتى بعد أن خبرت الكنائيس الشرقيـة الحكم الإسلامى خمسة قرون ، وقال : اما ولايات الدولة البيزنطية التى سرعان مـا استولى عليهـا المسلمون ببسالتهم فقد وجدوا انها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة ، ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح ، الذى يلفت النظر فى تاريخ القرن السابع من هذه العهود التى اعطاها العرب لأهالى المدن التى استولوا عليها وتعهدوا لهم فيها بحماية ارواحهم وممتلكاتهم واطلاق الحرية الدينية لهم فى مقابل الإذعان ودفع الجزية .

ثم قال : (وقد فرضت الجزية كما ذكرنا ، على القادرين من الذكور ، مقابل الخدمة العسكرية التى كانوا يطالبون بأدائها ، لو كانوا مسلمين . ومن الواضح أن أية جماعة مسيحية كانت كانت تعفى من اداء هذه الضريبة ، اذا ما دخلت فى خدمة الجيش الإسلامى) .

وقال : (لكن هذه الجزية كانت من البساطة ، بحيث لم تكن تثقل كاهلهم) ودلل على ذلك بقوله ــ (كان من هؤلاء الذين يتحملون إلى الإسلام أن يؤدوا بدلا من الجزية ، الصدقات الشرعية ، وهى الزكاة التى كانت تفرض سنويا على معظم انواع الممتلكات المنقولة والعقارية) .

وكذلك قرر (جيبون) حقيقة ترحيب القبط بـالعرب ، وقـال : إن العرب استقبلوا فى مصر كالمنقذين للكنيسة اليعقوبية ، وفى اثناء حصار (منف) عقدت معاهدة سرية نافذة : بين جيس انتصر وشعب كان من العبيد ، وبوثيقة الضمان هذه حطم طغيان الملكانيين الكنسى والمدنى) .

ثم قال : لقد اتبع المسلمون سياسة التسـامح مع الأمم المغلوبة ونجحت سياستهم وتركوا للناس حرية الضمير والعبادة) .

واثبت بتلر شهادة لمطران نطورى فى الشام سجلها بعد الاستيلاء على دمشق بخمسة عشر عاما ــ قال : (وهؤلاء العرب . . . لا يحاربون دين المسيح بل هم يدافعون عن ديننا ، ويجلون قساوستنا ، ويهبون الهبات لكنائسنا) .

وبين الأسباب التى عددها (فيلب حتى) ليعلل بها تيسير فتوح العرب السبب الذى عبر عنه بقوله : (ولنذكر أن الجزية التى فرضها الفاتحون العرب على أبناء البلدان المنسلخة عن فارس وبيزنطة (كانت اقل مما كان يفرض عليهم فى ظل الحكومات السابقة . ولقد انفتح امام الأمم المغلوبة باب الحرية : فصارط يمارسون عقائد اديانهم دون ازعاج) .

وتكلم جورجى زيدان عن الجزية، من حيث ثقلها أو خفتها ، فقال : (الجزية ليست من مستحدثات الإسلام) وبعد أن بين أن اليونان فرضوها من قبل قال (والرومان وضعوا الجزية على الأمم التى اخضعوها وكانت اكثر كثيرا مما وضعه المسلمون بعدئذ . فان الرومان لما فتحوا فرنسا ، وضعوا على كل واحد من اهلها جزية ، يختلف مقدارها ما بين تسعة جنيهات و خمسة عشر جنيها فى السنة ، اونحو سبعة اضعاف جزية المسلمين) .

وكان مما اوصى به (عمر) عند وفاته ، أن قال : (أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا : أن يوفى عهدهم وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم) .

وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال (من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة) وكان عمر يقول : (لا تكلفوهم مالا يطيقون). فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (لا تعذبوا الناس فان الذين يعذبون الناس فى الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة)

ومما رواه ابو يوسف ، أن عمر مر على شيخ يهودى يسأل ، فذهب إلى منزله فاعطاه ، ثم أمر خازن بيت المال أن يجرى عليه من الصدقة ، ووضع عنه الجزية) .

وعلى هذا النهج سار الخلفاء الراشدون وسار غالبية الحكام المسلمين من بعدهم الا قلة خرجت عن الدين فاضطهدت أهل الكتاب وغيرهم لفترات قصيرة لا حساب لها فى عمر التاريخ .

وعلى اية حال فان هذه القلة تعد مخالفة لتعاليم الإسلام ، فوزرها على نفسها وليس على الدين .

ولو سمحنا لانفسنا بعقد مقارنة صحيحة لمعاملة كل من بيزنطه لرعاياها فى الشام وفلسطين ومصر ومعاملة العرب لهم بعد الفتوح الكبرى لادركنا حجم العدالة والتسامح العربى أمام ذلك الاضطهاد الدينى العارم الذى تعرضوا له من قبل بيزنطة ، لهذا قوبل العرب بالمساعدة فى تلك الأمصار التى فتحوها فضلا عن العطف من قبل السكان المغلوبين ، ورد العرب على ذلك بأن عاملوا رعاياهم الخاضعين الجدد بكثير من التسامح . وهكذا فى الشام ومصر وفلسطين اقام الغالبون والمغلوبون علاقات سليمة استمرت فترة طويلة من الزمن . وفى ظل السيادة العربية منح الحكام العرب السكان المسيحيين فى الشام وفلسطين ومصر امتيازات ثابتة ، وظلت بطريركيات انطاكية والإسكندرية فى ايدى المسيحيين كذلك ظلت المدارس السريانية مفتوحة فى العصر الأموى كما كانت من قبل ، ولم يكن الخلفاء يتدخلون فى شئونهم الا عندما يحتدم النزاع الدينى بينهم فيلجأ بعضهم إلى الولاة يستنصرهم .

وتروى الروايات الكثير عن ملامح علاقات العرب المسلمين برعاياهم ، فحين فتح العرب دمشق مثلا ، دخل أبو عبيدة بن الجراح بالأمان من غرب المدينة ودخل خالد بن الوليد بالسيف من شرقها . فكانت دمشق نصفين والكنيسة كذلك . فاتخذوا منها النصف الشرقى المفتوح عنوة مسجدا يصلون فيه ويصلى النصارى فى النصف الآخر . وكان المسلمون يتأذون لمجاورة النصارى لهم فى مكان تعبدهم ، وكرهوا قرع النواقيس ، ويروى العمرى أن الوليد لجأ إلى حيلة بارعة ليلفت النظر إلى مدى الأذى الذى شعر به المسلمون فيقول : (. . . أعطى الوليد رجلا ديته حتى أتى القسطنطينية ودخل فى زى النصارى كنيستها العظمى يوم الأحد . والملك فيها فمن دونه ، فلبث حتى رأى أن جمعهم قد استكمل ثم قام فأذن . فأُخِذَ وأُحضر لدى الملك وقد جلس إلى جانبه البطريرك ، . . . . فقال له الملك : من أنت ؟ وما حملك على ما صنعت ؟ فقال : أما أنافرجلٌ من المسلمين من أهل دمشق ، وأما ما حلمنى على ما صنعت ، فانشدك الله ايها الملك هل ساءك ما فعلت وكرهته ام لا ؟ فقال : نعم ، قال : ونحن فى معبد فى شطره النصارى نسمع نواقيسهم ونستاء بمجاورتهم ، فاراد امير المؤمنين أن يعرفك أننا نستاء بذلك كما ساءكم ما فعلت ، فخلى عنه وكانوا قد هموا بقتله . ثم قال له : صالحونا على عوض ، فصولحوا عنه بنصف كنيسة مريم وكانت شطرين) .

. . . . . وهذا يبين أن الوليد بن عبد الملك ، الذى كان بامكانه أن يستولى على كنيسة القديس يوحنا بدمشق عنوة ، فضل أن يتم ذلك فى اطار الاقناع والاقتناع وموافقة المسيحيين الذين ربما كانوا يعتبرون انفسهم حتى تلك اللحظة رعايا الإمبراطور .

اليس فى هذا التصرف تسامح دينى ما بعده تسامح ؟ .

ويشير فنلاى إلى التسامح الدينى فى العصر الأموى قائلا : (لقد تساهل معاوية مع المسيحيين وجدد بناء كنيسة الرها ، واستمر العرب بعد ذلك يوجهون بافكار العدل التى قررها لهم الرسول بعناية وكانت معاملتهم لرعاياهم بعيدة عن أى ظلم دينى) .

وفى ظل الإدارة العربية استأنف المسيحيون واليهود مزاولة الأعمال التى طالما كسبوا بها عيشهم وبعض هذه الأعمال كان صنع الخمر والمتاجرة بها وممارسة بعض الألعاب التى هى من قبيل الميسر ، رغم أنها كانت جميعها محرمة فى الإسلام واستمرت حانات الخمور ودور المقامرة ، حيث كان لعب النرد ، وهو من احب ضروب اللهو ، فى ازدهارها . وكان الرهبان ارباب خبرة واسعة فى صناعة الخمور وجنى العسل وتعهد الأثمار والازهار . ويذكر العمرى انغماس بعض الخلفاء الأمويين فى مثل هذا اللهو غير البرىء مثل الوليد بن يزيد . ومن أمثلة تسامح الأمويين المعاملة الحسنة التى كان يلقاها شاعر البلاط الأموى الأخطل وكان الأخطل يدخل على معاوية والصليب يتدلى من عنقه .

ويقول الأستاذ متز (أن مما يميز المملكة الإسلامية عن اوربا النصرانية فى القرون الوسطى ، أن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقى الأديان الأخرى غير الإسلام وليست كذلك الثانية ، وأن الكنائس والبيع ظلت فى المملكة الإسلامية ، كأنها خارجة عن سلطان الحكومة ، وكأنها لا تكون جزءا من المملكة ، معتمدة فى ذلك على العهود وما اكسبتهم من حقوق ، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين ، فاعان ذلك على خلق جو من التسامح لا تعرفه أوروبا فى القرون الوسطى . كان اليهودى أوالنصرانى حرا أن يدين بدينه ولكنه إن أسلم ثم ارتد عوقب بالقتل ــ وفى المملكة البيزنطية كان عقاب من اسلم القتل) .

كان اليهود والنصارى منتشرين فى المملكة الإسلامية ، وكانوا عددا كبيرا ، فقد ذكر بنيامين أحد الرحالة اليهود عام ١٢٦٥ م أى نحو ٤٦٠ هـ (أن عدد اليهود فى المملكة الإسلامية غير العرب كانوا ثلاثمئة الف) وكانوا منتشرين على نهر دجلة والفرات ، وفى جزيرة ابنى عمر والموصل وتمكيره وواسط وفى بغداد والحلة والكوفة والبصرة ، وفى كثير من بلاد فارس ، فى همدان واصفهان وشيراز ، وكانوا فى غزنة ، وسمرقند ، وكان فى بلاد فارس بلدتان تسمى كل منها (اليهودية) احداهما بجرجان ، والأخرى باصبهان ، وكان ببغداد إذ ذاك نحو ألف يهودى ، وكان فيها درب يسمى درب اليهود ، نسب اليه قوم من المحدثين منهم ابو محمد عبد الله بن عبيد الله بن يحى اليهودى .

وكان لليهود والنصارى نفوذ كبير فى بعض الدول فى هذا العصر . وكان المسلمون فى أول امرهم لا يرضون باستخدامهم فى شئون الدولة ، فقد روى أنه ذكر لعمر بن الخطاب غلام كاتب حافظ من الحيرة ، وكان نصرانيا ، فقيل له لو اتخذته كاتبا ، فقال : لقد اتخذت اذن بطانة من دون المؤمنين .

فعمر بن الخطاب كان يحسن معاملتهم ولا يستعين بهم فى الأعمال، ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فاستخدموا فى الأعمال فى عهد معاوية ـ وفى القرن الرابع الهجرى زاد سلطانهم فيقول المقدسى (وقلما ترى بالشام فقيها له بدعة أو مسلما له كتابة ، إلا بطبرية فانها مازالت تخرج الكتاب ، وانما الكتبة به وبمصر نصارى) . وفى القرن الثالث ولى فى بعض الأحيان ديوان الجيش نصرانى وكان المسلمون يقبلون يده ، قال الصابى فى كتابه الوزراء : « إن على بن عيسى قال لابن الفرات : ما إتقيت الله فى تقليدك ديوان جيش المسلمين رجلا نصرانيا ، وجعلت انصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمتثلون امره ؟ فقال ابن الفرات : ما هذا شىء ابتدأته ولا ابتدعته وقد كان الناصر لدين الله قلد الجيش اسرائيل النصرانى كاتبه ، وقلد المعتضد ملك بن الوليد النصرانى كاتب بدر ، فقال على بن عيسى : (ما فعلا صوابا) . . . فقال ابن الفرات : حسبنا الأسوة بهما ، وان اخطأت على زعمك .

وكان لعضد الدولة البويهى فى بغداد وزير نصرانى اسمه نصر بن هارون ، وقد اذن له عضد الدولة فى عمارة البيع والديرة واطلاق الأموال لفقراء النصارى .

وافتى عالم العراق الإمام ابو الحسن على بن حبيب البصرى رحمه الله إلى جواز تقليد أهل الذمة وزارة التنفيذ وعارضه فى هذه الفتوى غيره .

واتسعت سلطة اليهود والنصارى ايام الفاطميين بمصر واشهرهم يعقوب بن كلس .

وقد ولى العزيز نزار ايضا عيسى بن نسطورس النصرانى كاتبه ، واستناب بالشام يهوديا اسمه منشا .

وكان الخلفاء وهم فى قوتهم وعصبيتهم الدينية يحترمون عقائد شعوبهم وكانوا يحترمون المتدينين من أهل الذمة وكانوا يوظفونهم فى حكومتهم فكان منهم الأطباء والوزراء . وكان المتوكل العباسى على صلابته فى دينه يؤاخذ النصارى على عدم تمسكهم بدينهم كما فعل مع طبيبه حنين وكان قد بلغه أنه تفل على صورة السيدة العذراء فحده وسجنه . وفى ايام المعتمد بالله قامت العامة على رجل من النصارى اتهموه بأنه سب النبى واحضروه بين يدى الوزير القاسم بن عبيد الله وطالبوه باقامة الحد عليه فصرفهم لعدم تحققه صحة دعواهم . وقد صلب الخليفة الحكم بن الناصر أحد عماله لأنه بلغه أنه ظلم أحد أهل الذمة) .

والدول النصرانية كانت تلجأ إلى سماحة الإسلام وعدالته فقد ارسلت دولة المجر إلى السلطان أحمد الأول ترجوه أن يأخذ المجر تحت حمايته وقاية لها من ظلم النمسا المسيحية) .

(ولما فتح المسلمون الجزيرة (العراق) هربت قبيلة إياد (وكانوا نصارى) إلى بلاد الروم فكتب عمر إلى هرقل بردها . فاخرجها هرقل من دياره وكان على الجزيرة الوليد بن عقبة فابى أن يقبل منهم الا الإسلام . فكتب اليه عمر : دعهم أن لا ينصروا وليدا ولا يمنعوا احدا من الإسلام ــ ثم عزل الوليد عنهم لشدته .

وكان يوحنا بن ماسويه مسيحى المذهب ، سريانيا ، قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجد بانقرة وعمورية وسائر الروم حيث سباها المسلمون ووضعه امينا على المكتبة وخدم هارون الرشيد والأمين والمأمون وبقى على ذلك إلى أيام المتوكل . وكان بنو هاشم لا يتناولون الأطعمة إلا بحضرته)

أما فى الأندلس ، فقد تمتع المسيحيون بكافة الحقوق الاقتصادية والسياسية والدينية . . . وكان منهم الوزراء والأطباء ورجال الدولة وكبار التجار . . . كما لم يتدخل الحاكم فى شعائرهم الدينية ولم يحاول أىٌّ منهم اجبارهم على الدخول فى الإسلام .

ثم ، وبعد هزيمة المسلمين فى الأندلس ، رد الحكام المسيحيون الجميل ، فأكرهوا المسلمين على التنصر .

ويقول ول ديورانت :

. . . وانا لندهش مما يرويه السياح الأوربيون من أن الأتراك لم يكونوا ، فيما عدا زمن الحرب ، (قساة بالطبيعة) ولكن طبيعيين وديعين . . . مهذبين اليفين ، (شغوفين بصفة عامة) وشكا فرانسس بيكون من أنهم بدوا أشد رفقا بالحيوان منهم بالإنسان .

وما كانت القسوة تنفجر إلا إذا تهددت سلامة العقيدة ، وهنا لم يكن التركى يكظم غيظه أو يحد من انفعاله ، بل كانت تثور ثائرته .

وكثير من المدن التى استولى عليها الأتراك نهضت اكثر مما نهضت المدن التركية التى استولى عليها المسيحيون . وعندما استولى إبراهيم على تبريز وبغداد عام ١٥٤٨ ، حرم على جنوده سلب المدينتين أو ايذاء سكانها ، كذلك عندما انتزع سليمان تبريز ثانية عام ١٥٤٨ ، حماها من السلب والنهب أو الذبح . ولكن عندما استولى شارل الخامس على تونس ١٥٣٥ لم يستطع دفع رواتب جنوده إلا باءباحة السلب والنهب .

قال لوثر (يقال انه لم يكن ثمة حكومة زمنية افضل من حكومة الأتراك) .

وفى مجال التسامح الدينى كان سليمان أجرأ وأكرم من انداده المسيحيين الذين ذهبوا إلى أن الانسجام الدينى أمر ضرورى للقوة الوطنية ، ورخص سليمان للمسيحيين واليهود فى ممارسة ديانتهم فى حرية تامة . وقال الكاردينال بول (ان الأتراك لا يلزمون الآخرين باعتناق ديانتهم ، ولهذا الذى لا يهاجم ديانتهم أن يفصح عن اية عقيدة يعتنقها ، وهو آمن) .

وفى نوفمبر ١٥٦١ حين كانت اسكتلنده وإنجلترا والمانيا اللوثرية تعتبر الكثلكة جريمة ، كما كانت إيطاليا واسبانيا تعدان البروتستانتية جريمة ، أمر سليمان بالإفراج عن سجين مسيحى ، غير راغب تحويل أى فرد عن دينه بالقوة .

وجعل من امبراطوريته مأوى آمنا لليهود الفارين من محاكم التفتيش فى اسبانيا والبرتغال(١٧) .

وهكذا عومل المسيحيون فى ظل الحكم الإسلامى ، ولم يكن هناك الزام للمسلم بأن يدخلهم فى الإسلام ، ولا بأن يبيدهم ، ومن هنا قامت شهرة الإسلام بوصفه دين تسامح ـ ويؤكد ارنولد ذلك التسامح الإسلامى وأنه فى عدد من المناسبات فر اليهود المضطهدون إلى الأراضى الإسلامية ويضرب مثلا لما حدث سنة ١٠٩/٧٢٤ هـ حين أجبرليو الثالث اليهود والمسيحيين الهراطقة على الدخول فى عقيدته المسيحية .

ويقول كورديه (لم توجد ديانه من الديانات الكبرى لا الزرادشتية ولا البوذية ولا النصرانية انتشرت بسرعة انتشار ملة محمد . فانها بدون عضد امتدت فى ثلاثة قرون من البرانس إلى هملايا ومن قلب آسيا إلى قلب افريقية . ولم تكن أسباب سرعة هذا الانتشار سوى ضعف مملكتى بيزنطة وفارس وحماسة العرب الفائقة وفروسيتهم الباهرة وسذاجة العقيدة التى نشروها . ثم باختلاط الغالبين بالمغلوبين تولدت هذه الحضارة الإسلامية التى لمعت لمعانا شديدا « بينما كان الغرب هائما فى الظلمات » .

وفى العصر الحديث يقول الشيخ محمد عبده رحمه الله :

«ومن أهم مظاهر المودة للمخالفين فى العقيدة المصاهرة ، حيث اباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية ، نصرانية كانت أو يهودية ، وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها ، والقيام بفروض عبادتها والذهاب إلى كنيستها أو بيعتها . . . . ولم يفرق الدين فى حقوق الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية . . . وهكذا بالمصاهرة يصبح للإنسان خال مسيحى أو يهودى وعم مسلم . ويصبح الجميع أقارب متآلفين .

وفى سنة ١٨٨٨ م ، وكان الأستاذ الأمام (الشيخ محمد عبده) لا يزال فى المنفى ببيروت ، ثارت بمصر مناقشات صحفية حامية حول تعصب (الأقباط) ضد المسلمين ، وكان ذلك بمناسبة استقالة أحد موظفى وزارة الحقانية (العدل) شفيق بك منصور ــ بسبب ما قيل من اضطهاد وكيل الحقانية ، بطرس غالى له والذى اتهم بالتعصب لأبناء دينه ضد الموظفين المسلمين ، فكتب الاستاذ الأمام مقالا فى مجلة (ثمرات الفنون) البيروتية حذر فيه من الإنسياق فى الطريق الطائفى غير القومى ، ولفت الأنظار إلى وجوب التفرقة بين من هو وطنى ومن هو اجنبى ، ففى حالة الأجانب من الممكن أن نأخذ الكل بذنب البعض لجواز أن يكون ذلك موقفا جماعيا لهذه الفئة من الأجانب أما بالنسبة لطائفة هى جزء من الوطن والمواطنين فان اخطاء البعض منها لا تنسحب على هذه الطائفة كلها بل المسئولية فردية ، بصرف النظر عن عقيدة المخطىء الدينية ، لأن الرباط القومى والجامعة الوطنية تشمل الجميع . . . كتب الرجل يقول : (. . . . ان التحامل على شخص بعينه لا ينبغى أن يتخذ ذريعة للطعن فى طائفة أو أمة أو ملة ، فان ذلك اعتداء على غير معتد ، ومحاربة لغير محارب ، أو كما يقال : جهاد فى غير عدو ، وهو مما ضرره اكثر من نفعه ، إن كان له نفع ، فليس من اللائق باصحاب الجرائد أن يعمدوا إلى إحدى الطوائف المتوطنة فى أرض واحدة فيشملوها بشىء من الطعن ، تعللا بأن رجلا أو رجالا منها قد استهدفوا لذلك . . . فاذا تنافرت الطوائف تشاغلت كل منها بما يحط بشأن الأخرى ، فكانت كل مساعيهم ضررا على أوطانهم . . . . نعم . . . . إن كانت الطائفة أو الأمة من قوم أجانب عن البلاد ، متغلبين عليها بقوة قاهرة أو حيلة غادرة ، وكانت اعمال إحداها مبنية على اصول سنّها المتغلبون ، فيكون عمل الواحد كانه صادر عن الجملة ، كما فى اعمال الإنجليز فى مصر ، جاز للناقد أن يأخذ الجماعة باثم الواحد منهم ، ويستصرخ ابناء الوطن جميعا لكشفهم عن بلاده ، واستخلاص الحق منهم لأربابه) .

ولم يكن موقف الأستاذ الامام ، هذا ، من قضية الوحدة الوطنية والقومية لأبناء الأمة ، على اختلاف شرائعهم الدينية ، لم يكن الموقف مجرد (موقف سياسى) تمليه ظروف (سياسة) طارئة أو دائمة ، وانما كان موقفا (فكريا ــ اسلاميا) مؤسسا على ما ذهب اليه الإسلام من وحدة الدين الإلّهى ، المقتضية اخاء اتباع الشرائع

السماوية الذين اقتضت حكمة الله ومشيئته التكوينية أن يظلوا اىما متعددة ، إذ لو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ، ولكن لا يزالون مختلفين . والاختلاف والتنوع فى الشرائع ، بين أمم الرسالات السماوية ، هى ارادة كونية لله ، وعندما ينظر اليه فى الإطار الذى عينه الإسلام وهو : (وحدة الدين مع تعدد الشرائع ، فان الوحدة القومية والوطنية للأمة تصبح ـ كما اصبحت عند الأستاذ الامام مؤسسة على الدين وليست مجرد موقف سياسى ، يقصر الالتزام به . . . وفقا للمقتضيات أو يطول . . . كما يصبح الطائفية والشقاق ردة عن الدين الصحيح وليس مجرد ضيق افق فى عالم السياسة والسياسيين .

لقد سن الإسلام سنة الوحدة والألفة والمودة بين المسلمين ، فالمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وسن الإسلام سنة الوحدة والألفة والمودة بين المسلمين وأهل الكتاب . . . . وذلك من واقع انهم جميعا يدينون بدين واحد ، وان اختلفت شرائعه الثلاث بين اليهودية والمسيحية والإسلام ـ بترتيب النزول .

وحدة الدين . . . ونجاة ابناء الشرائع المختلفة إن هم تدينوا باصوله الواحدة التى هى : الألوهية الواحدة . . . . والإيمان بالبعث والجزاء . . . . . والعمل الصالح .

وفى هذا يقول الأستاذ الإمام وهو يعرض لتفسير آيات القرآن : (ليسُواْ سَوَاءً مِن أهلِ الكتابِ أُمةٌ قائمةٌ يتلُون آياتِ الله آناءَ الليلِ وهم يسجُدُون ، يؤمنُون باللهِ واليومِ الآخِر ويأمرونَ بالمعرُوفِ وينَهوْنَ عنِ المُنكر ويُسارعُونَ فى الخيْراتِ وأُولئـكَ مِنَ الصـالحـين . ومـا يفعلوا مِن خـيرٍ فـلن يُكفـرُوهُ والله عليـمٌ بالمتقين) (آل عمران ١١٣ ــ ١١٥) .

وهذه الآية من العدل الإلهى فى بيان حقيقة الواقع . . . وهى دليل على أن دين الله واحد على ألسنة جميع الأنبياء ، وأن كل من أخذه باذعان وعمل فيه باخلاص فامر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو من الصالحين .

وفى هذا العدل قطع لاحتجاج اهل الكتاب الذين يعرفون من انفسهم الإيمان والاخلاص فى العمل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفيه استمالة لهم ، وثناء

عن التفرقة بين الأمم والملل التى لم يكن يعترف فيها احد الفريقين بفضيلة ولا مزية للآخر ، كأنه بمجرد مخالفته له فى بعض الأشياء وان كان معذورا ــ تتبدل حاله سيئات .

وعن نفى صفة (المشركين) عن أهل الكتاب يقول الأستاذ الإمام (أن الفرق بيننا وبين أهل الكتاب يشبه الفرق بين الموحدين المخلصين العاملين بالكتاب والسنة وبين المبتدعة الذين انحرفوا عنها . . . فكيف يكون أهل الكتاب كالمشركين فى حكمه تعالى ؟

لقد ارشدتنا التجربة إلى أن كل عارف بحقيقة الدين الإسلامى كان اوسع نظرا فى الأمور ، واطهر قلبا من التعصب الجاهلى ، واقرب إلى الألفة مع ابناء الملل المختلفة واسبق الناس إلى ترقية المعاملة بين البشر وانما يبعد المسلم عن غيره جهله بحقيقة دينه . . . إن القرآن ، وهو منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه انهم منهم ، لا يختلفون عنهم الا فى بعض احكام قليلة . ولكن عرض على الدين زوائد ادخلها عليه اللابسون ثياب احبائه فأفسدوا قلوب اهليه) .

ولكن هل نبذ أهل الكتاب الكتب السماوية

قال تعالى (ولما جاءَهُمْ رسولٌ من عِندِ الله مُصدِقٌ لما مَعَهُم نَبذَ فريقٌ من الذين أُوتُوا الكتابَ كِتابَ الله وراءَ ظُهُورِهِم كأنهم لا يعلمون)ـ(البقرة ١٠١) .

وفى تفسير هذه الأية يقول الأستاذ الإمام (. . . ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم انهم طرحوه برمته وتركوا التصديق به فى جملته وتفصيله ، وانما المراد انهم طرحوا جزءا منه ، وهو ما يبشر بالنبى صلى الله عليه وسلم ويبين صفاته ، ويأمرهم بالإيمان به واتباعه ، أى فهو تشبيه لتركهم اياه وانكاره بمن يلقى الشىء وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره . .) .

والمودة والرحمة هما طبيعة العلاقة بين المسلمين والكتابيين ، وهما ايضا طبيعة العلاقة بين المسلمين والمسلمين أما الطائفية والشقاق الدينى فمصدرهما السياسة والملوك ورؤساء الأديان . (إن ما نراه من التباين بين المسلمين وأهل الكتاب الآن

فسببه سياسة الملوك والرؤساء ولو اقمنا الكتاب واقاموه لتقاربنا ورجعنا جميعا إلى الأصل الذى ارشدنا اليه القرآن العزيز) .

هكذا تأسست نظرة الأستاذ الأمام إلى الوحدة القومية والوطنية على اساس من موقف الإسلام المنحاز إلى مبدأ (وحدة الدين . . . وتعدد الشرائع) ومن ثم الإخاء والوحدة بين أبناء الأمة والوطن رغم تعدد الشرائع الدينية . . . فهم متحدون فى القومية والوطن والحضارة . . . وايضا فى الدين)

ورغم كل ما سبق ، فلا زال فى العصر الحديث من يتصدى لايذاء أهل الكتاب وغيرهم باعلان تكفيرهم فى وسائل الإعلام المختلفة أو الطعن فى عقائدهم مما يدمى قلوب اتباعها ويباعد بينهم وبين المسلمين ، بل ويحضهم على كراهيتهم وفى ذلك ما فيه من انقسامات وصراعات دفينة فى الانفس وغليان فى الصدور مما يباعد بين (الجميع) وبين الوحدة على طريق التعمير والرخاء (للجميع) .

الا ليتهم يكفون عن ايذاء الناس فى حرياتهم الفطرية والتى اقرها الإسلام .

الا ليتهم لايتسببون فى فرقة المجتمع عن مسيرته .

وفى نهاية رحلتنا مع الصراعات الدينية فانه من الواجب عرض النقاط التالية للتأمل وللتفكر ولمراجعة النفس :

شجب القرآن الكريم الفرقة وانقسام الناس إلى شيع وأحزاب متصارعة ، كما نظر الاسلام الى هذا الوضع على أنه نقمة ومن أكبر الاضرار التى تصيب المجتمع :

قال تعالى :

«ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء» (الأنعام ـ ١٥٩)

«ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا» (القصص ـ ٤)

«أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض» (الانعام ـ ٦٥)

وعلى العكس من ذلك ، فقد اعتبر القرآن الكريم الوحدة والتآلف بين الناس نعمه لا تعاد لها نعمة أخرى ، قال تعالى :

«واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته أخوانا » (آل عمران ـ ١٠٣)

والوحدة والتآلف بين المسلمين وبينهم وبين غيرهم ليست مطلوبة لذاتها فحسب ، بل لما تحققه من الوفاء بحاجات الناس فى الدنيا وفى الآخرة .

و« لو » تحققت الوحدة بين المسلمين وبينهم وبين غيرهم من أبناء الوطن الواحد لشارك الجميع ، كل بما عنده من فكر و مال و جهد ، فى محو الأمية بين الناس وفى الارتفاع بهم ثقافيا وماديا ليرفعوا عن كاهلهم وزر الفقر والتخلف عن ركب الحضارة الغربية ، ثم ليصبح المسلمون « خير أمة أخرجت للناس » فيفوزوا برضاء الحق تبارك وتعالى فى الدنيا وفى الآخرة .

ولكن هل ينجح المسلمون فى تحقيق الوحدة والتآلف بينهم وبينهم وبين غيرهم من أتباع الشرائع والمذاهب المخالفة .

لقد رأينا كيف أن الاسلام يحض على الوحدة والتآلف ليس بين المسلمين فحسب بل بينهم وبين غيرهم من المخالفين لهم فى العقيدة وذلك لدفع المضار وجلب المنافع .

وهل يوجد مضار أكبر من أن يقع العالم الاسلامى فى ذيل قائمة الدول الفقيرة المتخلفة ؟

وهل يوجد نفع أكبر من أن يرتفع العالم الاسلامى إلى مصاف الدول المتحضرة .

ان الاسلام يهدف إلى تحقيق وحدة شاملة فقوة حضارية واقتصادية وعسكرية تفوق ما عداها ، و« لو » ثم نبذ الصراعات المذهبية الدينية بل والسياسية غير النباءة ،وتكثف الجهد والفكر لإعادة بناء الانسان ثقافيا وحضاريا لبزغ فجر جديد للحضارة الاسلامية .

ويقول على بن ابى طالب رضى الله عنه:« لا يسأل الجهلاء لم لم يعلموا ولكن يسأل العلماء لم لم يعلموا » .

وقال تعالى :

«وعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ لَيستخلِفَنَّهم فى الارضِ كما استخلفَ الذين من قبلِهم وليمكنن لهم دينهُم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد

خوفهِم أمنا يعبدوننى لا يُشركون بى شيئًا ومن كفرّ بعد ذلك فأولئك هم الفاسقونَ »
(النور ـ ٥٥)

وهذا وعد الله للمؤمنين (العاملين للصالحات) بتمكينهم واستخلافهم فى الأرض .

ومن أصدق من الله وعدا .

المؤلف

حافظ عثمان

وكيل أول وزارة الأعلام (السابق)

له مؤلفات

- في بعث الأمة العربية .
- حرية الرأى عند العرب .
- مؤلفات لأعمال درامية بالتليفزيون .
- حصل على نوط الإمتياز من الدرجة الأولى
- عضو إتحاد الكتاب .

المراجع

ول ديورانت : قصة الحضارة – لجنة التأليف والترجمة والنشر .

برستيد : فجر الضمير – مكتبة النهضة المصرية .

نخبة من العلماء : تاريخ الحضارة المصرية – مكتبة النهضة المصرية .

إدوارد جيبون : إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها – هيئة الكتاب .

تقى الدين أبى العباس المقريزى: المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والأثار – مكتبة الثقافة الدينية .

د . سالم عبد العزيز فرج

د . جوزيف نسيم يوسف : العرقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية – هيئة الكتاب – إسكندرية .

الأمير شكيب أرسلان : حاضر العالم الإسلامى – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

محمد حسنين هيكل : حياة محمد – دار المعارف .

د . حسين فوزى : سندباد مصرى – دار المعارف .

أحمد أمين : فجر الإسلام + ضحى الإسلام + ظهر الإسلام + يوم الإسلام – مكتبة النهضة المصرية .

محمد بن على محمد المعروف (بإبن العمرانى) : الأنباء فى تاريخ الخلفاء – نشريات فى المعهد الهولندى للأثار المصرية .

أحمد شلبى بن عبد الغنى الخلفى: أوضح الإشارة فيمن تولى القاهرة من الوزراء والباشوات – مكتبة الخانجى بمصر .

الشيخ محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية .

موريس دوب : دراسات فى تطور الرأسمالية - دار الكاتب العربى

يوهان هويزنجا : إضمحلال العصور الوسطى - الهيئة العامة للكتاب .

د . توفيق الطويل : قصة النزاع بين الدين والفلسف - مكتبة الآداب - إسكندرية .

ح . د . هـ . ول : المدخل إلى التاريخ الإقتصادى - هيئة الكتاب .

مجموعة من العلماء

الإقتصاديين الأمريكيين

ەم: الإقتصاد الأمريكى - دار المعارف .

د . ريتشارد ميشيل : الإخوان المسلمين - مكتبة مدبولى

الشيخ رشيد رضا : تفسير المنار - هيئة الكتاب .

محمد عماره : تجديد الفكر الإسلامى - محمد عبده ومدرسته .

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٣٢٦٦

I.S.B.N 977-01-37388-3